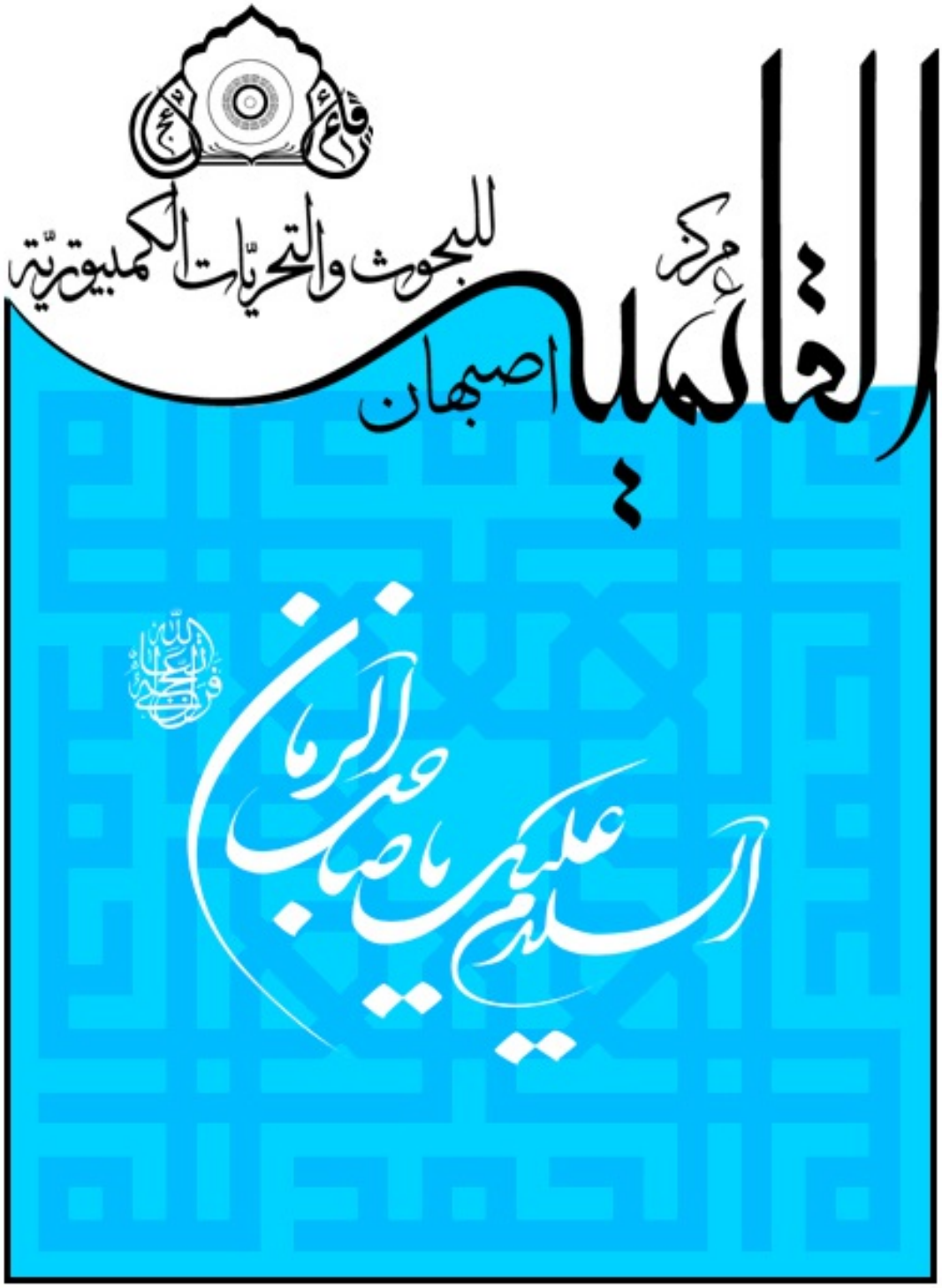

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

القرآن

نهج وحضارة

تأليف

الشيخ عبد الشهيد مهدي الستراوي

بسم الله الرحمن الرحيم

القرآن نهج و حضارة

كاتب:

عبد الشهيد مهدى الستراوى

نشرت فى الطباعة:

مؤسسة الاعلمى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الفهرس ----- ۵
القرآن نهج و حضارة ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
۱ القرآن دعوة إلى الحياة ----- ۱۴
اشارة ----- ۱۴
المشروع الدائم للحياة ----- ۱۴
انطلاقتان: ----- ۱۵
برمجة القلب: ----- ۱۷
۲ القرآن فی القرآن ----- ۱۸
اشارة ----- ۱۸
رسالة السماء: ----- ۱۸
الجاهلية الأولى: ----- ۱۸
الجاهلية الثانية: ----- ۲۰
الرسالة الخالدة: ----- ۲۰
اشارة ----- ۲۰
القرآن يعرّف نفسه: ----- ۲۲
۳ القرآن فی منظار السنة ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۳
علاقة مقدسة: ----- ۲۳
اشارة ----- ۲۳
فما هی حقيقة القرآن فی السنة؟ ----- ۲۴
حديث هام: ----- ۲۵
أصلان .. عدلان .. ثقلان: ----- ۲۵

اشارة ----- ۲۶
أولا: ----- ۲۶
ثانیا: ----- ۲۶
ثالثا: ----- ۲۷
رابعا: ----- ۲۸
کیف تصف السنة القرآن: ----- ۲۹
۴ القرآن سلوک یومی ----- ۳۰
اشارة ----- ۳۰
جذور المعرفة: ----- ۳۰
ممارسات و حاجات: ----- ۳۱
اشارة ----- ۳۱
أولا: ----- ۳۲
ثانیا: ----- ۳۳
ثالثا: ----- ۳۴
رابعا: ----- ۳۵
۵ القرآن و علاج أمراضنا ----- ۳۶
اشارة ----- ۳۶
کیف نمرض:- ----- ۳۶
العیادة القرآنیة: ----- ۳۷
القرآن شفاء و رحمة: ----- ۳۹
القلب .. الروح .. العقل: ----- ۴۰
القرآن و الأبدان: ----- ۴۱
۶ للقرآن أهداف ----- ۴۳
اشارة ----- ۴۳

أهداف سامیة: ۴۳
أولا: التغییر الاجتماعی: ۴۴
اشارة ۴۴
الأولی: أزمة المعرفة: ۴۵
الثانیة: مناهج الهدایة لبلوغ التکامل. ۴۶
ثانیا: الوصول إلی الرحمة: ۴۷
اشارة ۴۷
آثار الرحمة: ۴۹
۷ القرآن له أبعاد ۵۰
اشارة ۵۰
الإعجاز .. وجه آخر: ۵۰
أولا: البعد الثبوتی ۵۰
اشارة ۵۰
الوجه الأول ۵۱
الوجه الثانی: ۵۲
الوجه الثالث: ۵۳
ثانیا: البعد الزمنی: ۵۴
ثالثا: البعد الکمالی: ۵۶
رابعا: البعد العالمی: ۵۷
خامسا: البعد المنهجی: ۶۰
۸ معالم المنهجیة القرآنیة ۶۱
اشارة ۶۱
تخطیط: ۶۱
اشارة ۶۱

أولا: ----- ۶۱
ثانیا: ----- ۶۲
مميزات المنهج ----- ۶۳
وحدة المصدر و جهته: ----- ۶۳
اعتماد الحق: ----- ۶۵
اشارة ----- ۶۵
المنهج القرآنی القائم علی الحق یتجسد فی أمرین: ----- ۶۶
اشارة ----- ۶۶
أولا: القانونیة المتناسقة: ----- ۶۷
ثانیا: الوحدة الموضوعیة: ----- ۶۷
الحکمة الربانیة: ----- ۶۸
الحکمة القرآنیة: ----- ۷۰
التوافق العقلی: ----- ۷۲
مبارک: ----- ۷۴
۹ قرآننا و الدعوة ----- ۷۶
اشارة ----- ۷۶
أسس الدعوة القرآنیة: ----- ۷۶
کونوا موحّدین: ----- ۷۷
لعلهم یتفکرون: ----- ۷۹
اشارة ----- ۷۹
أولا: التفکیر فی الخلق: ----- ۸۱
ثانیا: البدایة و المصیر: ----- ۸۱
ثالثا: التفکیر فی الظواهر الکونیة و العلوم الإنسانیة: ----- ۸۳
رابعا: التفکیر فی السنن التاریخیة: ----- ۸۴

اعملوا ... ---- ۸۴
إلى السلام .. إلى الرفاه: ---- ۸۷
مع الأمة الواحدة: ---- ۸۹
۱۰ القرآن هو البديل ---- ۹۱
اشارة ---- ۹۱
تساؤلات ---- ۹۱
اشارة ---- ۹۱
أولا: التاريخ ---- ۹۱
ثانيا: تجارب البشر ---- ۹۲
ثالثا: العقلاء ---- ۹۲
رابعا: المؤمنون ---- ۹۳
محاولات يائسة: ---- ۹۳
اشارة ---- ۹۳
الجانب التشريعي ---- ۹۴
اشارة ---- ۹۴
شأن المجتهدين: ---- ۹۶
الجانب العلمي ---- ۹۶
اشارة ---- ۹۶
القرآن يقرن العلم بالإيمان: ---- ۹۸
بين العيني و الكفائي: ---- ۹۹
للعلم قواعد و أسس: ---- ۹۹
اشارة ---- ۹۹
الأول: العلم بالقيم: ---- ۱۰۰
الثاني: العلم بالواقع: ---- ۱۰۰

التطویر و التحدیث ----- ۱۰۲
اشاره ----- ۱۰۲
القرآن یدعو إلی التطور: ----- ۱۰۲
موقف شرعی: ----- ۱۰۴
باب الاجتهاد: ----- ۱۰۴
الإنسان و بناء الحضارة ----- ۱۰۵
اشارة ----- ۱۰۵
إنسان و مهمتان: ----- ۱۰۶
۱۱ کیف نستوعب القرآن ----- ۱۰۷
اشارة ----- ۱۰۷
قبل أن نفهم: ----- ۱۰۸
عقل البشر و فهمه: ----- ۱۰۹
کیف نفهم؟ ----- ۱۱۰
عربی هکذا .. نزل: ----- ۱۱۰
اشارة ----- ۱۱۰
عربیة القرآن لا عروبیته: ----- ۱۱۱
هکذا نزل القرآن: ----- ۱۱۴
آراء حول النزول: ----- ۱۱۵
اشارة ----- ۱۱۵
نزل تدریجا .. لهذا السبب: ----- ۱۱۶
اشارة ----- ۱۱۶
أولا: المرحلیة فی طرح الرسالة: ----- ۱۱۶
ثانیا: صیاغة شخصیة القائد: ----- ۱۱۷
ثالثا: تربیة الأمة: ----- ۱۱۹

رابعا: ارتباط الأمة بوحی السماء: ۱۲۰
مکی و مدنی: ۱۲۱
اشارة ۱۲۱
التقسیم و موضوعات الآیات: ۱۲۳
و أهم ما نستفیده بناء علی هذا التقسیم مجموعة من الحقائق: ۱۲۳
خصائص و ممیزات: ۱۲۴
مکة و بدایة الدعوة: ۱۲۴
المدینة و قیام الدولة: ۱۲۵
محکم و متشابه: ۱۲۶
اشارة ۱۲۶
البحث عن حکمة المتشابه: ۱۲۷
أولا: معرفة الحقیقة ۱۲۷
ثانیا: رد المتشابه إلی المحکم: ۱۲۸
ثالثا: مستوی الفهم ۱۲۹
للمتشابهات ثمرات: ۱۳۰
أولا: تجدید البحث العلمی: ۱۳۰
ثانیا: تنمیة العقل: ۱۳۰
ثالثا: امتحان الإنسان: ۱۳۱
ناسخ و منسوخ: ۱۳۱
اشارة ۱۳۱
ما هو المنسوخ؟ ۱۳۳
النسخ لغة: ۱۳۳
النسخ اصطلاحا: ۱۳۴
النسخ فی المفهوم الإسلامی: ۱۳۴

حکمة النسخ: ۱۳۵
نسخ الشریعة و فی الشریعة: ۱۳۶
أحکام مؤقتة: ۱۳۶
فائدة بقاء المنسوخ فی القرآن: ۱۳۸
ما ذا نستفید من ذلک؟ ۱۳۸
الفهم المطلوب: ۱۳۹
اشارة ۱۳۹
تعالوا نفهم القرآن: ۱۴۱
اشارة ۱۴۱
أولا: الفهم العمقی: ۱۴۱
ثانیا: الفهم الحیوی: ۱۴۳
و لکن کیف؟ ۱۴۴
۱۲ کیف نقرأ القرآن ۱۴۵
اشارة ۱۴۵
لما ذا نقرأ القرآن؟ ۱۴۵
قبل أن نقرأ القرآن: ۱۴۷
اشارة ۱۴۷
ما هی القراءات؟ ۱۴۷
عدم صحة القراءات: ۱۴۸
الأحرف السبعة: ۱۵۰
و أخیرا: ۱۵۲
القراءة الرسالیة: ۱۵۳
اشارة ۱۵۳
أولا: قراءة الاستعاذة: ۱۵۳

ثانیا: قراءة الحق: ----- ۱۵۵
ثالثا: قراءة التدبر: ----- ۱۵۶
رابعا: قراءة الترتیل: ----- ۱۵۸
لکی تکتمل القراءة: ----- ۱۵۹
اشارة ----- ۱۵۹
أولا: الاستعداد النفسی للقراءة: ----- ۱۵۹
ثانیا: الصوت الحسن: ----- ۱۶۰
ثالثا: الخشوع: ----- ۱۶۱
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۶۲

القرآن نهج و حضارة

اشارة

نام كتاب: القرآن نهج و حضارة

نويسنده: عبد الشهيد مهدى الستراوى

موضوع: معارف قرآنى

تاريخ وفات مؤلف: معاصر

زبان: عربى

تعداد جلد: ۱

ناشر: مؤسسة الاعلمى

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ۱۴۱۸ / ۱۹۹۷

نوبت چاپ: اوّل

۱ القرآن دعوة إلى الحياة

اشارة

* المشروع الدائم للحياة* انطلاقتان* برمجة القلب

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱

المشروع الدائم للحياة

العنصر الأكثر إثارة و قوة فى الوجود فى هذا الكون هو الإنسان، يجب أن يوجد شاء أم أبى، و يجب عليه أن يحيا. أجل إنها الحياة، ذلك هو السر فى بقائه على مر العصور و الأزمان، مهما طالت أيدى بعضنا بعضا، و مهما حاولت فئة أو طائفة أن تبيد الأخرى. إن الإنسان سوف يبقى إلى أن يأذن اللّه سبحانه له بأن يرحل من هذا الوجود.

الحياة إذا لفظة تعنى الاستمرارية و البقاء و الحركة. و هى ضد الموت، لأنها مركز وجود الإنسان، الذى هو أحد الأحياء الموجودة و المتنوعة و المختلفة، و لكنه أعظمها، لهذا نراه يسعى دائما إلى الرقى، و إلى الكمال، و الذى يوصله إلى ذلك طموحه، و إيمانه الجبار بطاقاته و إمكانياته الكبيرة التى ما زالت و لا تزال تنمو و تكبر إلى أن خرق الأرض، و اخرج كنوزها، و جاب البحار و عرف أسرارها، و ارتفع إلى المجرات و الكواكب و وصل إلى أبعدها، و ذلك لم يتم لو لا فضله و رحمته علينا كما فى قوله تعالى: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ. «۱»

مع كل ذلك و لكى يحيا الإنسان حياة طيبة- تغمرها السعادة و يحدوها الأمل المشرق- لتحقيق طموحاته، فهو بحاجة إلى مشروع دائم، يتوافق مع هذه الحياة فى كل مراحلها، باعتبارها لا تنتهى، فهى تمتد من عالم الدنيا إلى عالم الآخرة. فليس الإنسان مجرد مادة أوجدت على هذه الكرة الأرضية و تنتهى بانتهائها بل خلقه اللّه عز و جل ليتجاوز مرحلة الدنيا إلى الآخرة

(۱) سورة الرحمن آية ۳۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲

و كلاهما حياة بالنسبة إليه.

انطلاقتان:

البعض من البشر يجعل عامل الزمن و اختزاله هو الركيزة الأساسية فى الوصول إلى الهدف، أى بعبارة أخرى أى الطرق أسرع فهو الأسلم و المتّبع، دون النظر إلى عواقبه، ما دامت ثماره الدنيوية و البسيطة قد حصلوا عليها. و هذه هى الانطلاقة المادية التى تربط الإنسان، و تشده إلى الأرض، و حب ما فيها، و التعلق بشهواتها، كما فى قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقاءَنا وَ رَضُوا بِالْحَياةِ الدُّنْيا وَ اطْمَأَنُّوا بِها وَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ آياتِنا غافِلُونَ أُولئِكَ مَأْواهُمُ النَّارُ. «۱»

أما الانطلاقة الثانية و هى المعنوية و التى ترتفع بروح الإنسان لا بجسده إلى السماء، و تعرج به فى آفاق الكون الرحب، ليكتشف حقائقه من مادية و معنوية، و فى ذلك قوله عز و جل وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا «۲» و هذه الانطلاقة المعنوية هى التى يجب أن تكون الحاكمة فى حياة الإنسان، و هى تمثل الجانب المضىء للحياة المرجوة، فلا بد أن تتوافق مع المشروع الدائم الذى يتواكب معها يغذيها و ينميها، وفق برامج معدة لكل مرحلة زمنية يمر فيها الإنسان. و القرآن الكريم هو مشروع الحياة للإنسان، فهو مشروع و دعوة للحياة ما دام الإنسان حيا يعيش عليها فهو بحاجة إليه.

و هذه الحياة التى يدعو إليها القرآن الحياة الممتدة المتصلة، الدنيا بالآخرة

---

(۱) سورة يونس آية ۷

(۲) سورة القصص آية ۷۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳

ضمن مساحة، واسعة لا تكون إلا بمقدار الاستجابة للّه، و لدعوته و لطاعة القيادة المتمثلة فى النبى (ص) فى تطبيق برنامج السماء، و أحكام الشريعة، و النظم الإسلامية، فيقول ربنا سبحانه و تعالى: اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ «۱» فما هى هذه الحياة التى يدعونا إليها القرآن؟

جاء فى التفاسير لهذه الآية احتمالات «۲»:

۱- الحياة: هى الدعوة إلى الإيمان أى يحييكم بالإيمان.

۲- الحياة: هى الدعوة إلى الجهاد أى يحييكم بالجهاد.

۳- الحياة: هى الدعوة إلى الجنة أى يحييكم بالجنة.

۴- الحياة: هى الدعوة إلى الولاية أى يحييكم بالولاية.

۵- الحياة: هى الدعوة إلى القرآن أى يحييكم بالقرآن.

فلو افترضنا صحة أحد هذه الاحتمالات الخمسة كل على حدة، حيث لا تكون الحياة إلا بالإيمان، ذلك النور الإلهى الذى يضىء القلب، فهو ركيزة و برنامج اتضحت معالمه من خلال القرآن.

أما الجهاد فالإيمان به يشكل أحد الفروع التى يؤمن بها الإنسان، و هو يمثل جانب البذل، و التضحية بالمال و النفس التى دعا إليها القرآن.

و الجنة فإنما هى ثمرة يقتطفها المؤمن، و يحصل عليها من خلال إيمانه و عمله الصالح، و لا ننسى ذكر الولاية التى أشارت إليها

التفاسير على أنها الأساس لذلك الإيمان فبدونها لا يتم ذلك الإيمان.

---

(۱) سورة الأنفال آية ۲۴

(۲) مجمع البيان (ج ۴) ص ۸۲۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴

بعد هذه المقدمة تبيّن لنا أن أى واحد من هذه الأمور لا يمكن أن يكون بمفرده هو المعنى الوحيد، و الأصيل للحياة، و جميعها وجدناها ترجع بالنتيجة إلى القرآن. فالقرآن وحده مصدر الحياة العملية حينما يتبع الإنسان برنامجه و يهتدى إلى نوره، و يقف عند أوامره، فيطبقها، و يمر على نواهيه فيبتعد عنها.

إذن الحياة فى نظر القرآن ابعد من مجموعة ارتباطات مادية محدودة بحدود الأرض، و إنما هى حياة يكون من ضمنها البقاء فى الأرض. فالقرآن لا يلغى الحياة فى الأرض، فهى واقع بيّنه القرآن و أوضح كيفية الاستفادة منها و التكيف وفق طبيعتها، بشرط أن لا يفقد الإنسان إنسانيته، و ينزل إلى الحيوانية، و ذلك من خلال المشروع الدائم للإنسان الموجود فى القرآن الكريم.

فدعوة القرآن إلى الحياة قائمة على الإيمان و على العلم و العمل، و بهذه يحيا الإنسان و بدونها يموت. فالقرآن يحيى قلب الإنسان و يغمره بالإيمان، باعتباره مركز الحياة، فحياته بحياة قلبه، جاء

فى نهج البلاغة «إن الله لم يعظ أحدا بمثل هذا القرآن و فيه ربيع القلب و ينابيع العلم» «۱»

فموت الإنسان ليس بجسده و إنما بقلبه، فالميت قلبا فى الحياة لا ذكر له حتى قبل موت الجسد، و الحى قلبا فى الحياة فانه يبقى رمزا حتى بعد فناء جسده، لان الذى يخلد و يبقى هو عمل الإنسان، جاء هذا الحديث عن الرسول (ص) ليؤكد هذه الفكرة

فقال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» «۲»

الإنسان يسمو بقلبه و روحه و الجسد يسمو بسموهما فلا قدسية للجسد و لا قيمة له إلا

---

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱۷۶

(۲) ميزان الحكمة (ج ۷) ص ۱۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵

بسمو و صلاح القلب و الروح و إذا تطبع القلب بمعالم القرآن تميّز و انبعثت منه الحيوية و الحركة فى الحياة.

و الآية الكريمة الآتية هى خير دليل على ما ذكرنا، قال ربنا سبحانه كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ كُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ. «۱»

بدون القرآن و بدون البرنامج السماوى لا حياة للإنسان، فالكفر موت بطىء له، و هو تجسيد لكل معانى الجهل و الظلام و الخرافة، و هو انحراف حقيقى عن المعنى الواضح للحياة، و الخط الأصيل للقرآن، الذى لا يتحقق إلا بالعلم و الإيمان، يتوّجهما العمل الصالح الدءوب، و الحياة المستمرة فى الدنيا و الآخرة، كما أشار ربنا سبحانه بالنسبة إلى الذين يقتلون فى سبيله، بأن هذا الموت لهم حياة بقوله تعالى:

وَ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. «۲»

فهؤلاء أحياء بقلوبهم الحية حين الجهاد، و مواصلة الدعوة فى سبيله، فهم لا يفرقون بين هذه الحياة الدنيا و الحياة الآخرة، فكلاهما حياة بالنسبة إليهم، و ما الموت إلا مرحلة انتقالية من الأولى إلى الأخرى، و هذه الأخيرة حياة لهم، لأنهم يبقون بها بقلوبهم و عملهم، و ذكرهم خالد ما دام الزمن ينقل آثارهم إلى الأجيال القادمة.

حتى فى حين ارتكاب الجريمة التى يترتب عليها القتل، فيكون العلاج هو القصاص، و فيه تكون الحياة، حيث يقول سبحانه

(۱) سورة البقرة آية ۲۸

(۲) سورة آل عمران آية ۱۶۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶

وَ لَكُمْ فِي الْقِصاصِ حَياةٌ يا أُولِي الْأَلْبابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ «۱» حياة لأهل الحق، و حياة للمجرمين كى لا يكرروا إجرامهم. فالحياة تكون فى كف المعتدى عن جريمته ساعة الإقدام عليها، فمن يعرف أن مصيره القتل كم سيتروى و يفكر و يتردد، فيرتد عن جريمته و يرتدع، كى لا تكون حياته ثمنا لحياة من يقتله ظلما و عدوانا.

فهو حياة للمظلوم حيث يؤخذ حقه، و تعيش من بعده عائلته مطمئنة.

و حياة للظالم فانه يؤخذ العقاب منه فى الدنيا، و يحيا فى الآخرة، حين يرتفع عنه العذاب، و قد ذكر ربنا فى كتابه، إن القصاص شرّع لاحترام الحياة، فقال:

مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَ مَنْ أَحْياها فَكَأَنَّما أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً. «۲»

برمجة القلب:

إذا الحياة بالقرآن و مركز الحياة هو القلب، فإذا مرض القلب اختلت الحياة فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ «۳» فمتى ما زال هذا المرض، يحيا الإنسان، فحياة الإنسان تتمحور بكل أبعادها حول كتاب اللّه المجيد، عند ما يكون قلبه فى مأمن من ضغوط الأهواء و الشهوات النفسية، التى طالما كانت السبب فى انحراف البشرية عن الطريق السليم.

فبرمجة القلب بالقرآن هى الدعامة الرئيسية فى حفظه و جعله صلبا، كما

فى الحديث الشريف عن الإمام الصادق (ع): «المؤمن أشد من زبر الحديد، إن زبر الحديد إذا دخل النار تغير، و أن المؤمن لو قتل ثم نشر ثم قتل لم يتغير قلبه». «۴»

(۱) سورة البقرة آية ۱۷۹

(۲) سورة المائدة آية ۳۲

(۳) سورة البقرة آية ۱۰

(۴) بحار الأنوار (ج ۷۶) ص ۳۰۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷

فقلب المؤمن خالى من الأمراض و الأوبئة النفسية، لهذا نراه كما

فى الحديث الشريف يصفه قائلا «المؤمن بشره فى وجهه» «۱»

أى دائما مستبشر بنور الإيمان، و الحب للّه و فى اللّه يكون حبه للناس جميعا، بعيدا عن كل الأحقاد و الضغائن المفسدة للقلب، و لم يكن له ذلك لو لا التأييد الإلهى له كما فى قوله تعالى: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ «۲» و ذلك لكى يثبته على الإيمان، بعد ما رأى منه ذلك الإصرار العنيد فى السير قدما لتحقيق الإيمان القلبى.

فإذا أراد الإنسان أن يحيا قلبه، و أن يكون مركزا لحياته، التى هى هدف القرآن، فعليه أن يقوم بإعطائه دوره الحقيقى فى تحويل تلك الرؤى و البصائر و الأفكار التى نتعلمها من واقع النظرية المجردة و القانون المجرد إلى تفاعل نفسى يتحول إلى عمل يتحرك مع الإنسان فى حياته اليومية.

إذا علينا بالقرآن ثم القرآن لكى نحيا به، و لن نصل إلى ذلك إلا بعد دراسة ما فيه من قوانين دراسة معمقة، حتى نستطيع أن نميز بينها و بين قوانين البشر، لا أن ندرسها كتراث خلّفه لنا التاريخ لترضية الترف الفكرى.

و أن نلاحظ روح القانون، فالباعث على الإلزام ليس هو القوة أو الإجبار القهرى، و إنما روح القانون، و فهم العقل، و إدراك الإنسان بوعى تام و ضمير حى، كل ذلك هو الذى يجعل الإنسان يلتزم بالقانون دون جبر أو إكراه لا إِكْراهَ فِى الدِّينِ «۳» بعد أن تبين للإنسان الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ «۳» و من الأدوار التى يجب أن يتقمصها القرآن، أن يجعله المسلم إماما و قائدا

---

(۱) بحار الأنوار (ج ۷۹) ص ۴۱۱

(۲) سورة الأنفال آية ۲۴

(۳) سورة البقرة آية ۲۵۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸

و حاكما له على كل تصرفاته الفردية و الاجتماعية و الشخصية و العائلية.

فيكون حينها قدوة، و مثلا- يحتذى به، و حينما يكون القرآن كذلك، يكون سكنا نأوى إليه، لكى لا يتحول إلى مجرد اثر جاء به محمد (ص) و وضع فى بيوتنا، فلا نعرفه إلا إذا ألّمت بنا مصيبة، اتجهنا لنفض الغبار الذى علق به، و أن يتخذ الإنسان القرآن سكنا، يتحصن به من البرد و الحر و من الأخطار المحدقة به، فإذا جعلنا القرآن سكنا فانه يحمينا من كل الأخطار المخبّئة لنا، دون أن يكون موضعا لحالات الطوارئ فقط.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹

۲القرآن فى القرآن

اشارة

* رسالة السماء* الجاهلية الأولى* الجاهلية الثانية* الرسالة الخالدة

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱

رسالة السماء:

ما هو القرآن؟ و ما ذا فيه؟ و ما هو التحدى الذى اعجز البشر عن الإحاطة بأبعاده!؟

كان و ما زال القرآن الكريم و كأنه حديث جديد و مثير رغم مرور الزمن، بل نراه يتجدد كل يوم، ليتواكب مع الإنسان فى حاضره الجديد المتطور، و مستقبله المرتقب. لكن مع ذلك هذه الرسالة واجهت تحديا كبيرا بشتى أصنافه و أشكاله و جميع فنونه، و هذا ما عاصره النبى محمد (ص) و العهد القريب بالرسالة و هو ما يسمّى بالجاهلية الأولى.

و تحدى الجاهلية الثانية التى تمثلت بالمستشرقين و المغتربين ممن اغترّ بالثقافة الغربية.

الجاهلية الأولى:

تمثّل تحدى الجاهلية الأولى فى استخدام ابشع الوسائل على الصعيد الإعلامى، لغرض إيقاف تأثير القرآن على قلوب الناس، بعد عجزهم من المواجهة البلاغية، أو الإتيان بسورة واحدة.

و كانت وسيلة السحر التى توسلوا بها، و استخدموها، باعتبارها شائعة فى ذلك العصر لم تنفعهم،

فالوليد بن المغيرة و كان شيخا كبيرا مجربا من دهاة العرب، و كان من المستهزئين برسول اللّه (ص)، و كان رسول اللّه يقعد فى الحجرة و يقرأ القرآن، فاجتمعت قريش إلى الوليد بن المغيرة، و قالوا: يا أبا عبد شمس، ما هذا الذى يقول محمد، اشعر أم كهانه أم خطب!؟

فقال لهم: دعونى اسمع كلامه، فدنا من الرسول (ص) فقال: يا محمد

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲

أنشدنى من شعرك.

قال: ما هو شعر، و لكنه كلام اللّه الذى ارتضاه لملائكته و أنبيائه و رسله.

فقال: اتل علىّ منه شيئا.

فقرأ رسول اللّه (ص) حم السجدة، فلما بلغ قوله «فأعرضوا» يا محمد اعنى قريشا «فقل لهم أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود».

قال فاقشعر الوليد، و قامت كل شعرة فى رأسه و لحيته، و مرّ إلى بيته، و لم يرجع إلى قريش من ذلك فمشوا إلى أبى جهل فقالوا: يا أبا الحكم إن أبا عبد شمس صبا إلى دين محمد، أما تراه لم يرجع إلينا.

فغدا أبو جهل إلى الوليد فقال له: يا عم نكّست رءوسنا و فضحتنا، فقال: ما صبوت إلى دينه، و لكن سمعت كلاما صعبا تقشعر منه الجلود.

فقال أبو جهل اخطب هو! قال: لا، إن الخطب كلام متصل، و هذا كلام منثور، و لا يشبه بعضه بعضا.

قال: أ فشعر هو! قال: لا، إما أنى لقد سمعت أشعار العرب بسيطها و مديدها و رملها و رجزها (يقصد هنا بحور الشعر) و ما هو بشعر.

قال: فما هو! قال: دعنى أفكر فيه.

فلما كان الغد قالوا: يا أبا عبد شمس ما تقول فيما قلناه.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳

قال: قولوا: هو سحر فانه اخذ بقلوب الناس. «۱»

فنزلت هذه الآية فَقالَ إِنْ هذا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ. «۲»

بهذه الكيفية تحدّت الجاهلية الأولى القرآن، كى تبعد الناس عنه، حينما صوّرت لهم القرآن انه سحر، و لا فرق بين عمل السحر و تأثيره، و تأثير القرآن و عمله، متجاهلين حقيقة السحر أنه من الباطل، حيث انه يعمى عن الحقيقة التى يكتشفها العقل، لان من ميزاته انه يرهب و يأخذ العين على غرة فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ «۳» و هو اقرب إلى الخيال من الحقيقة، و لا يتخطى ذلك الخيال إلى العقل فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى. «۴»

«أ لم يقل الوليد انه سحر ما رأيتموه، يفرق بين الرجل و أهله و ولده و مواليه» «۵» فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُما ما يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ زَوْجِهِ. «۶»

إن القرآن آيات معجزة، لأنها مبصرة مبينة، لا تخفى على أصحاب العقول النيرة، و ذات تأثير يأخذ القلوب بأزمتها، و تباشر مخاطبة العقل و الفطرة و الفكر بالبرهان القائم على العلم، فليس ذلك سحر.

و فى بعض الأحيان نجد التحدى للقرآن العظيم فى صور أخرى و محاولات يائسة شتى، كلّفت قريش و من والاها ثمنا باهظا، يتمثل فى عنادهم و

---

(۱) تفسير القمى (ج ۲) ص ۳۹۳

(۲) سورة المائدة آية ۲۴

(۳) سورة الأعراف آية ۱۱۶

(۴) سورة طه آية ۶۶

(۵) تفسير كنز الدقائق (ج ۱۴) ص ۲۰

(۶) سورة البقرة آية ۱۰۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴

استعلائهم على الإيمان بكتاب اللّه عز و جل، فعجزوا على أن يأتوا بسورة واحدة فقط، و لم يستطيعوا أن يبرزوا عيبا واحدا فى آياته، لذلك عجزوا عن القول بأنه غير متناسق، و فيه تناقض، و كل محاولاتهم و تحدياتهم باءت بالفشل الذريع السريع، و هذه نتيجة حتمية لكل من تسوّل له نفسه بتحدى آيات السماء الخالدة.

الجاهلية الثانية:

لقد تغيّرت تلك الصور و الأشكال التى تحدت بها القرآن، و حاولت أن تطعن فى كتاب اللّه بطريقة أخرى، و هى التشكيك فيه بالمقارنة بين ما جاء به و بين متطلبات العصر الحديث، و راحت تقول! إن كتاب اللّه ليس نصا ثابتا لا يتغير، و أنكرت المصدر الإلهى، و أن وجوده أزلى فى اللوح المحفوظ، ما هى إلا- أسطورة فأنكرت الغيب، و انه من شروط الإيمان «۱» و كل ذلك نتيجة الانبهار بالتقنية الحديثة و الانهزامية النفسية، و لعدم فهم كتاب اللّه، و كذلك نتيجة التخلف المتوارث فى الأمة الإسلامية، و ابتعادها عن القيم الحقة. استطاع المستعمر عن طريق بعض المستشرقين و المنبهرين بالثقافة الغربية من أبناء الأمة الإسلامية، أن يدخل هذه الأفكار الغريبة و الخطرة، ليؤكد على أن القرآن لا يلائم العصر و هو السبب فى تأخر المسلمين.

إذا هذه الفئة تحدت القرآن، بإيراد إشكالات فى ثوب جديد، تسعى من خلاله إلى تضليل المسلمين.

و لكن بقى القرآن أصلا و نصا و رسما، كما هو على مر الزمن

---

(۱) نجد هذه الأفكار فى كتاب نقد الخطاب الدينى لمؤلفه نصر حامد أبو زيد

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ. «۱»

الرسالة الخالدة:

اشارة

القرآن كتاب السماء، لم ينزل لجيل واحد، و لا لمجموعة بشرية محدودة، و لا لزمن معين، و لمكان فقط. فقد تجاوز هذه الحدود الزمنية و المكانية فالكتاب له امتدادان:

أما الأول: فلأنه خطاب اللّه الذى امتد مع الزمن، منذ أن أنشأه اللّه إلى يوم يبعثون، فهو امتداد عبر الزمن.

أما الثانى: فقد امتد مع البشر، عند ما نزل على النبى (محمد بن عبد اللّه (ص)) لتكمل به رسالات اللّه، و ليكن خاتما إلى يوم يبعثون. فهو كتاب البشرية جمعاء، ماضيا و حاضرا و مستقبلا.

سئل الإمام الصادق (ع) «ما بال القرآن لا يزداد على النشر و الدرس إلا غضاضة؟

فقال: لأن اللّه تبارك و تعالى لم يجعله لزمان دون زمان، و لا لناس دون ناس، فهو فى كل زمان جديد، و عند كل قوم غض إلى يوم

القيامة». «۲»

و ما تلك الرسالات السماوية التى جاءت قبل رسالة النبى (ص) إلا و تصب فى هذا المجال، كى تصل البشرية إلى مرحلة النضج العقلى، حيث أن العقل عاجز عن الإحاطة بأسرار الوجود و معرفة ما فيه. فكلما توغل فى أعماق هذا الكون، كلما تفتحت له آفاق جديدة من العلوم و المعرفة، و تكون كل مكتشفاته و مخترعاته ما هى إلا جزء بسيط، فهو بحاجة إلى أن يكون بجانب

---

(۱) سورة الحجر آية ۹

(۲) بحار الأنوار (ج ۲) ص ۲۸۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶

القرآن ليفتح له أبواب المعرفة الأصيلة. و الذى يرفع العجز عن حجب المعرفة، هو السير قدما فى آفاق المعرفة القرآنية، و تلك ضرورة تفرضها علينا حقيقة هذه الرسالة.

حيث أن القرآن رسالة السماء إلى الأرض، فهى ليست نتاج بشرى، و لا من بنات صناع الفكر البشرى، فليس هو كتاب سياسى يعالج مشاكل إدارية و يحل قضايا شعبية بين حاكم و محكوم، و لا كتاب اقتصادى يتعرض لأزمات اقتصادية و يضع الحلول لها، و ليس كتابا أخلاقيا يتحدث حول النفس و علاج مشاكلها، و لا كتاب فلسفة أو قصص تاريخية و عبر و حكم.

فالقرآن هو كل ذلك وفق ما تبين، لأنه رسالة جاءت إلى الإنسان لإخراجه من الظلمات إلى النور.

فالقران و النبى يعلن صراحة و على الملأ انه كتاب جاء من السماء، و أن منشأ القرآن هو (الله) جل و علا، و قد نزل به جبرئيل بإذن من اللّه، و قال ربنا سبحانه و تعالى: وَ إِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. «۱»

و يقول ربنا مخاطبا النبى: ما كُنْتَ تَدْرِى مَا الْكِتابُ وَ لَا الْإِيمانُ وَ لكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشاءُ «۲» و يقول أيضا: وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ «۳» و هذه دلالة واضحة على أن القرآن ليس من نتاج النبى و لا من نتاج البشر و إنما هو رسالة سماوية إلى الأرض، رسالة التغيير و التطور للتقدم بالإنسان إلى الأمام.

---

(۱) سورة الشعراء آية (۱۹۲- ۱۹۳)

(۲) سورة الشورى آية ۵۲

(۳) سورة العنكبوت آية ۴۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷

رسالة التغيير بمعنى أن القرآن يصنع النقلة من حالة إلى أخرى، و القرآن ينقل الإنسان من حالة الحضيض إلى حالة ارفع و أرقى، من الجهل إلى القيم، و من الفوضى إلى القانون لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ. «۱» من يرتبط بالدين يرتفع بتلك القيم لان هذه القيم هى التى تصنع هذه النقلة عند الإنسان.

أما رسالة التطوير فلأن الدين لا يريد منّا بأن نبقى على حالة معينة

قال الإمام الصادق (ع): «من استوى يوماه فهو مغبون» «۲»

، و إنما يجب أن نتقدم إلى الأمام بعد أن نتغير من حالة إلى احسن دائما على كل الأصعدة و المجالات فى الحياة.

و لهذا عجز البشر عن الإحاطة بأبعاده لأنه فوق مستوى العقل البشرى لا مستوى الفهم، و هنا يوجد فرق بين العبارتين.

أما بالنسبة للعبارة الثانية فيما أن القرآن جاء من السماء إلى أهل الأرض، فلا بد أن يكون فى مستوى الفهم البشرى. فليس من الحكمة له سبحانه أن ينزّل كتابا معقدا لا يفهمه الإنسان وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. «۳» و ما دامت هذه الرسالة جاءت إلى العبد

فلا بد أن يفهمها حسب مستواه، نعم للفهم درجات و مستويات، و كما أن العلماء يتفاضلون فيما بينهم بالعلم، كذلك العوام تختلف مستوياتهم فى الفهم، و حينما لا يفهم الإنسان أمرا فما عليه إلا أن يرجع إلى أهل الذكر حتى يسأل منهم ما لا يعلم

---

(۱) سورة التين آية (۴- ۶)

(۲) بحار الأنوار (ج ۷۱) ص ۱۷۳

(۳) سورة القمر آية ۴۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸

فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. «۱» و على هذا الأساس و بهذا المفهوم و هذه الرؤية حول القرآن سيضل المعجزة الباقية الدائمة فى الأفكار و المحتوى و اللفظ و المضمون، فقد جاء النبى (ص) بمعجزة خالدة للبشرية كانت و ما تزال قائمة بالتحدى و التفوق العلمى، و لعل ابرز ما يمثله القرآن تطابقه لحقائق الماضى و الحاضر و المستقبل المتوافقة مع الفطرة و العقل و العلم و المنطق.

القرآن يعرّف نفسه:

لا نستطيع أن نتعرف على شىء ما من خلال شىء آخر خارجى و إنما بذات الشىء تتم المعرفة، و كذلك القرآن لا يمكننا التعرف عليه إلا من خلال القرآن نفسه، ففيه توجد آيات عدة تعرف القرآن، و ما علينا إلا أن نفتحه و نقرأ هذه الآيات.

يقول ربّنا عز و جل: كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ «۲». من ظلمات الجهل إلى نور العلم، و من الخرافة و الأسطورة إلى الحقيقة و الإدراك.

«الظلمات هى الحالة الأولى التى كان البشر فيها على حالة من العجز و النقص، و غلظة الروح، و انغلاق النفس و الجهل، و بتعبير آخر: إنها حالة العدمية المحيطة بالخلق من قبل أن يرش عليها ربنا من نوره خلقا و إنشاء و قوة و علما». «۳»

و قد قصد ربنا بالظلمات كل جهل يحيط بالإنسان، فالجهل الاجتماعى

---

(۱) سورة الأنبياء آية ۷

(۲) سورة إبراهيم آية ۱

(۳) من هدى القرآن (ج ۵) ص ۳۷۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹

و الأخلاقى و السياسى و الاقتصادى كل ذلك ظلمات، فالقرآن جاء ليخرج الإنسان من كل هذه الظلمات المختلفة الأبعاد إلى واقع الحياة السليمة بعيدا عن الأمراض و العقد و السلبيات المضلة عن جادة الصواب.

و يمكن أن يعرّف القرآن بالميثاق بين اللّه و العبد بدون واسطة، فيقول سبحانه و تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لا تَكْتُمُونَهُ. «۱»

و يقول ابن حزم: «القرآن هو عهد اللّه إلينا الذى الزمنا الإقرار به». «۲»

لكن لهذا الميثاق أو العهد مواصفات، فما هى هذه المواصفات؟ و كيف يصف القرآن نفسه؟

هناك أكثر من مائة آية تبين خصائص القرآن غير الآيات التى تتحدث عن الشئون المختلفة فى القرآن.

تعالوا نقرأ هذه الآيات فى وصف القرآن لنفسه.

يقول ربّنا: قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ، يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ

يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيم. «۳»

هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. «۴»

وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ. «۵»

---

(۱) سورة آل عمران آية ۱۸۷

(۲) القرآن- أنور الجندى- ص ۱۱

(۳) سورة المائدة آية (۱۵- ۱۶)

(۴) سورة آل عمران آية ۱۳۸

(۵) سورة الأنبياء آية ۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰

تَبْصِرَةً وَ ذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ. «۱»

القرآن نور و كتاب مبين، سلام و صراط مستقيم و هدى و بصيرة و تذكرة و ضياء. هكذا نعت القرآن نفسه، و بيّن انه الطريق الوحيد لنجاة و صلاح الناس.

---

(۱) سورة ق آية ۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱

۳ القرآن فى منظار السنة

اشارة

* علاقة مقدسة* حديث هام* أصلان .. عدلان .. ثقلان* كيف تصف السنة القرآن

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۳

علاقة مقدسة:

اشارة

قد بيّن القرآن نفسه من خلال آياته، و تحدثت هذه الآيات عن مواصفات هذا الكتاب، و لكن بقى هناك عدة أسئلة عن القرآن، و كيف تنظر إليه السنة، و ما هى العلاقة بينهما؟

الحديث عن السنة نقصد به روايات النبى (ص) و أهل بيته التى تعتبر شارحة و موضحة لكتاب اللّه عزّ و جل.

و هى بمثابة المفسرة لآيات الذكر الحكيم، فجاءت هذه الأحاديث التى وردت عنهم (ع) فى صفة القرآن و بيان معالمه و أهدافه و أسباب نزول الآيات و بيان المحكم و المتشابه و الناسخ و المنسوخ.

يقول أبو عبد اللّه (ع): «انهم ضربوا القرآن بعضه ببعض و احتجّوا بالمنسوخ و هم يظنونه الناسخ و احتجّوا بالخاص و هم يظنون انه العام و احتجّوا بالآية و تركوا السنة فى تأويلها و لم ينظروا إلى ما يفتح به الكلام و إلى ما يختمه و لم يعرفوا موارده و مصادره إذ لم يأخذوه عن أهله فضلوا و أضلوا» «۱»

و كما أن رواياتهم رفعت اللبس عن القرآن، و بيّنت دوره فى صياغة شخصية الإنسان، و بناء المجتمع و بيان الأحكام و التشريعات و النظم الإسلامية و القوانين الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية.

فى مرسلة شبيب بن انس عن أبى عبد اللّه عليه السلام انه قال لأبى حنيفة: «أنت فقيه العراق. قال نعم قال: فبأى شىء تفتيهم؟ قال: بكتاب اللّه و سنة نبيه صلى اللّه عليه و آله قال: يا أبا حنيفة تعرف كتاب اللّه حق معرفته و تعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال نعم. قال عليه السلام: يا أبا حنيفة لقد ادّعيت علما ويلك

---

(۱) فرائد الأصول (ج ۱) ص ۵۸ القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۴

ما جعل اللّه ذلك إلا عند أهل الكتاب الذين انزل عليهم ويلك و ما هو إلا عند الخاصة من ذرية نبينا صلى اللّه عليه و آله و ما ورثك اللّه من كتابه حرفا» «۱».

فما هى حقيقة القرآن فى السنة؟

لعلنا لا نبالغ أبدا إذا قلنا أن السنة- و هى أقوال العترة الطاهرة- عدل القرآن و الثقل الأكبر- كما وصفها النبى (ص)- و هى موازية للقرآن و الثقل المقابل له.

فيا ترى ما ذا يحدث لو ألغينا أقوال النبى (ص) و أهل البيت عليهم السلام فهل نبلغ مراد القرآن بصورة كاملة وافية؟ و هل يمكن لنا أن نستفيد منه بالشكل المطلوب؟! ربما نقع فى كثير من الأخطاء، فمن اللازم أن نضم العترة إلى كتاب اللّه عز و جل و بهما يتكامل الفهم للقرآن، و تتضح الرؤية، و نصل إلى معانى و مقاصد كتاب اللّه العزيز.

و لا شك أن السنة القطعية الصدور عن النبى و أهل البيت هى عدل القرآن فى شرح كلياته و تفصيل مجملاته، إلا انه يجب الحيطة فى دراسة مصدرها و سندها و التثبت من صحتها و صدورها، لان الكذّابة كثرت على الرسول و أهل بيته، فالتحرز فى ذلك طريق الاطمئنان و الاحتياط سبيل النجاة «۲» فالسنة المطهرة هى المصدر الأول لفهم كتاب اللّه و هى الشارحة و المبينة له و الموضحة لغوامضه، و لذا

ورد عن النبى (ص) «ألا و أنى أوتيت القرآن و مثله معه» «۳»

---

(۱) فرائد الأصول (ج ۱) ص ۵۷

(۲) دراسات قرآنية ص ۴۸

(۳) الإتقان فى علوم القرآن.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۵

و عن سليم بن قيس الهلالى عن أمير المؤمنين «قال: إن اللّه طهّرنا و عصمنا و جعلنا شهداء على خلقه و حجته فى أرضه و جعلنا مع القرآن و القرآن معنا لا نفارقه و لا يفارقنا» «۱».

و عليه فليس بيانهم للأحكام هو من قبل رواية للسنة أو حكايتها، و لا هى من نوع الاجتهاد فى الرأى و الاستنباط من مصادر التشريع، بل هم أنفسهم مصدر التشريع، فقولهم سنة لا حكاية السنة.

قال الطوسى: «و اعلم أن الرواية ظاهرة فى أخبار أصحابنا بأن تفسير القرآن لا يجوز إلا بالأثر الصحيح عن النبى صلى اللّه عليه و آله و عن الأئمة عليهم السلام الذين قولهم حجّة كقول النبى (ص) و إن القول بالرأى لا يجوز.» «۲»

و عن سدير عن أبى عبد اللّه فى حديث «و اللّه عندنا علم الكتاب و اللّه عندنا». «۳»

حديث هام:

أهل البيت عليهم السلام هم عدل القرآن برواية النبى (ص)، و هم أدرى بالكتاب من غيرهم، و
قد اخرج ذلك الترمذى و أورده ابن الأثير و غيره من الرواة فى كتبهم.
و أصرح هذه الروايات، رواية زيد بن أرقم قال: «قال رسول الله (ص): إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى، أحدهما أعظم من الآخر و هو كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، و عترتى أهل بيتى لن يفترقا حتى

---

(۱) الوسائل (ج ۱۸) ص ۱۳۲
(۲) التبيان (ج ۱) ص ۴
(۳) الوسائل (ج ۱۸) ص ۱۳۴ القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۶
يردا علىّ الحوض، فانظروا كيف تخلفونى فيهما» «۱».
هذه الرواية أجمع عليها الشيعة و السنة، و من خلال النظرة الخاطفة لها تبيّن لنا ارتباط الكتاب بالسنة، و إن أئمة أهل البيت قولهم هو قول النبى، و لا يوجد فرق بين قوله و قولهم، و انهم معصومون عن الخطأ و مؤيدون بأمر السماء.
و لكن عند التمعن و التدبر فى هذا الحديث الشريف المبارك نستنتج عدة أمور و هى «۲»:
أولا- إن النبى قرنهم بالقرآن، و قد صرح من خلالها بعدم افتراقهم عن الكتاب، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه، و صدور آية مخالفة من الأئمة للكتاب تعد افتراقا عنه عمدا أم سهوا أم غفلة، و الحديث صريح بعدم الافتراق.
ثانيا: لو جاز افتراقهم عن الكتاب يعد مخالفة صريحة للقرآن، و عندها يكون صدور الذنب عنهم جائز، و لهذا جاز الكذب و العياذ باللّه على رسول اللّه (ص) الذى اخبر عن اللّه سبحانه و تعالى بعدم افتراقهما.
و ذلك مناف لشخص النبى (ص)، و تجويز الكذب متعمدا فى مقام التبليغ هو مخل بالعصمة.
ثالثا: قد صرح النبى (ص) كذلك إن التمسك بهم عاصم من الضلالة دائما و أبدا، و هو ما تفيده كلمة لن التأبيدية.

---

(۱) جامع الأصول لابن أثير (ج ۱) ص ۱۷۸
(۲) أسانيد هذه الرواية تجدها فى المراجعات ص (۲۰- ۲۱)
القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۷
رابعا: إن التمسك بأحدهما لا يغنى عن الآخر، و المنع من الضلالة لا يتحقق بتعاليم أهل البيت، و السير على هداهم و اقتفاء أثرهم، و السر فى ذلك انهما معا. أى الكتاب و العترة يشكلان وحدة واحدة.
خامسا: يدلك الحديث على تميز أهل البيت عن غيرهم بالعلم بالشريعة و ما يتصل بها، ففيهم نزل القرآن و فى بيتهم نزل الوحى فقرنهم النبى (ص) به و
لقوله (ص): «لا تعلموهم فانهم أعلم منكم» «۱».
سادسا: ملازمة العترة إلى جنب الكتاب إلى يوم يبعثون، فانهما مرتبطان فى كل زمن إلى قيام الساعة، و لن يفترقا حتى يردا على الحوض.

أصلان .. عدلان .. ثقلان:

اشارة

ما فى السنة هو بيان و شرح وافى لما فى القرآن، و ما فيهما جميعا ما هو إلا تلك النظم و الأحكام فى المجالات المختلفة، التى تنظم حياة الإنسان مع ربه و مع نفسه و مع مجتمعه، و مجموع هذه العلائق تبينها السنة المطهرة من خلال كتاب اللّه عز و جل.

و هناك أحاديث مستفيضة تدلل على أن كل ما يقوله الأئمة عليهم السلام فإنما هو فى الكتاب أو السنة.

فعن سماعة عن أبى الحسن (ع) قال: قلت له كل شىء تقول به فى كتاب و سنة أو تقول برأيكم قال: «بل كل ما نقوله فى كتاب و سنة» «۲».

و السنة لم تقتصر على بيان الأحكام و الشريعة و النظم الاجتماعية، بل

---

(۱) الصواعق المحرقة ص ۱۴۸

(۲) الاختصاص ص ۱۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۸

ذهبت إلى بيان الفلسفة و العلة و الحكمة لكل تشريع و لكل حكم، بل و ذكرت التفاصيل و الشواهد لكل قصة و حدث ورد فى القرآن.

فالكتاب هو أصل التشريع فى الحياة، و الدستور الأوحد. الجامع لخير الدنيا و الآخرة، و هو القانون الذى ينظم العلاقة بين اللّه و الإنسان و الإنسان و المجتمع الذى يعيش فيه.

و السنة هى الأصل الثانى و عدل القرآن أو الثقل المقابل له، و هى التى أعطيت تلك الأهمية و الأولوية من قبل النبى (ص). بناء على ذلك يمكن أن نوجز علاقة السنة بالكتاب من خلال النقاط التالية:-

أولا:

أن تكون السنة موافقة لما ورد فى كتاب اللّه عز و جل من كل وجه، و نعنى بذلك أن تتفق مع الخط العام للقرآن، و القواعد الأساسية التى تحدث عنها، و مراجعة هذه الروايات من حيث الصحة سندا و متنا، و مراعاة الظروف التاريخية التى مرت فيها الرواية.

ثانيا:

أن تكون السنة بيانا لما أريد بالقرآن، و تفسيرا له و شارحة و موضحة لمعانيه فى بيان المجمل، كبيان مواقيت الصلاة و عدد ركعاتها و كيفية ركوعها و سجودها، و غير ذلك من العبادات و المعاملات و الأحكام الشرعية الأخرى التى ترتبط بالجانب الفردى أو الجانب الاجتماعى.

كما أن هناك فى القرآن محكم و متشابه و ناسخ و منسوخ و عام و خاص، و كل ذلك بحاجة إلى بيان و توضيح من قبل النبى (ص) و أهل بيته.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۹

فعن يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبى الحسن بمكة فقال له قائل: إنك لتفسر من كتاب اللّه ما لم نسمع.

فقال: «علينا نزل قبل الناس و لنا فسر قبل أن يفسر فى الناس فنحن نعلم حلاله و حرامه و ناسخه و منسوخه و متفرقه و خطيره و فى أى ليلة نزلت من آية و فى من نزلت، فنحن حكماء اللّه فى أرضه» «۱»

ثالثا:

السنة هی التی سمحت لنا بالاقتراب من القرآن، و أجازت لنا فهم القرآن من خلال الظواهر و التدبر فیه، ناهیک عن الآیات التی حثّت علی دراسة القرآن لفهم آیاته لَقَدْ یَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّکْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّکِرٍ. «۲»

فَإِنَّما یَسَّرْناهُ بِلِسانِکَ لَعَلَّهُمْ یَتَذَکَّرُونَ. «۳»

أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُها. «۴»

و من هنا وردت عند علماء الفقه و الأصول مسألة حجّیة ظواهر الکتاب فی أنها حجة أم لا؟ و قد بحثوها من خلال العقل، و تأیید روایات أهل البیت. لذلک فهی واضحة ما دام البشر جمیعهم قد تعارفوا علیها، و جرت معاملاتهم علی الأخذ بظواهر الکلام، و ترتیب الآثار و اللوازم علیه، فلو تخلی الناس عن ذلک لما استقام لهم التفاهم بحال، و ما استطاعوا أن یتعایشوا مع بعضهم البعض.

و عصر النبی (ص) لم یکن یختلف عن بقیة العصور التی سبقته حتی تکون

---

(۱) الوسائل (ج ۱۸) ص ۱۴۵

(۲) سورة القمر آیة ۱۷

(۳) سورة الدخان آیة ۵۸

(۴) سورة محمد آیة ۲۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۰

فیه أسالیب خاصة و معقدة و بعیدة عن الافهام، و لم تکن لهم طریقة خاصة فی التفاهم انفردوا بها.

و لذا نزل القرآن الکریم بلغة العرب الفصحی، و علی طریقتهم فی عرض تلک المفاهیم و الأفکار، لکی یفهمونه و یسیرون علی وفقه.

و السنة حینما سمحت لنا بالاقتراب من القرآن و التدبر فیه و فهمه، اشترطت أن لا یکون بالرأی، و تحمیل القرآن ما لم ینطق به، و لم یقله، و إلیک هذه الروایات:

عن سلیم الفراء عن رجل عن أبی عبد اللّه (ع) قال: «ینبغی للمؤمن أن لا یموت حتی یتعلم القرآن أو یکون فی تعلمه». «۱»

و قال رسول اللّه (ص): «لا یعذّب اللّه قلبا وعی القرآن». «۲»

و عن النعمان بن سعد بن علی (ع) أن النبی (ص) قال: «خیارکم من تعلم القرآن و علمه» «۳»

و عن الفضیل بن یسار عن أبی عبد اللّه علیه السلام قال: قال رسول اللّه (ص): «تعلموا القرآن فانه یأتی یوم القیامة صاحبه فی صورة شاب جمیل شاحب اللون فیقول له، أنا القرآن الذی کنت أسهرت لیلک و أظمأت هو اجرک و أجففت ریقک و أسبلت دمعتک ... إلی أن قال فابشر فیؤتی بتاج فیوضع علی رأسه و یعطی الأمان بیمینه و الخلد فی الجنان بیساره و یکسی حلتین ثم یقال له اقرأ و ارقأ فکلما قرا آیة صعد درجة و یکسی أبواه حلتان إن کانا مؤمنین لهما هذا لما علمتماه من

---

(۱) أصول الکافی (ج ۲) ص ۱۰۶

(۲) أمالی الطوسی (ج ۱) ص ۵

(۳) أمالی الطوسی (ج ۱) ص ۳۷۶القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۱

القرآن». «۱»

رابعا:

الآيات القرآنية نزلت لهداية الناس للخير و الصلاح، و فى بعض الأحيان كانت للعبرة و النصيحة، كما فى القصص التاريخية التى وردت فى القرآن الكريم، و فى بعض الأحيان كانت أسباب خاصة لنزولها، فجاءت السنة المطهرة موضحة لها، و مبيّنة مدى ارتباطها بما جرى فى عصر النبى (ص) بحادثة معينة أو جواب لسؤال ما، أو هناك أسباب أخرى، و هذا ما نسميه بأسباب النزول.

و لم نكن نستطيع أن نستفيد حق الاستفادة من معرفة حدود و طبيعة الآية و بيان مدلولها و مفهومها، خاصة إذا عرف الزمان و المكان و سائر الظروف المحيطة بالآية، لم يكن كل ذلك لو لا السنة الشريفة التى بيّنت لنا هذه العلاقة بين الآية و سبب النزول.

قال ابن تيمية: «معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب» «۲» و معرفة سبب النزول تعنى الكشف عن الأحداث التاريخية، و الوقائع التى كانت سببا لنزول النص القرآنى، فهناك من الآيات التى سبقت الحدث، و آيات نزلت بعد حصول الحدث التاريخى، و كان بعضها يجيب عن الملابسات و يفصح عن الأسباب. و لهذه المعرفة دور مؤثر فى بيان مراد الآية و ما تضمنته من أبعاد و أغراض.

---

(۱) أصول الكافى (ج ۲) ص ۶۰۳

(۲) مباحث فى علوم القرآن ص ۱۳۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۲

لنقرّب الفكرة إلى الأذهان من خلال مثال من آى الذكر الحكيم، كما فى قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ جُناحٌ فِيما طَعِمُوا «۱» إن كل شىء حلال تناوله، و هو ما احتجّ به عثمان بن مظعون و عمر بن معد يكرب حيث كانا يقولان: أن الخمر مباحة، و استندوا إلى هذه الآية، و خفى عليهما سبب النزول. فى حين أن معرفة سبب النزول هو الحل الحاسم فى تفسير هذه الآية، فقد جاءت جوابا لسؤال عند ما حرّم اللّه الخمر هو: كيف بإخواننا الذين ماتوا و هى فى بطونهم (أى الخمر) «۲». و لو لا بيان سبب النزول لظل الناس يبيحون شرب الخمور، آخذين بظاهر هذه الآية، دون أن يعرفوا أنها نزلت فى أولئك الذين ماتوا و لم يصلهم حكم حرمة الخمر.

فالسنة جاءت مبيّنة و رافعة للإبهام و سوء الفهم، خصوصا بعد ما بعد الزمان بنا، و جهل الناس بأسباب النزول، الذى أوقعهم فى الغلط و هذا الجهل.

و فى كثير من الأحيان تقوم السنة ببيان الحكمة الباعثة على تشريع ذلك الحكم من خلالها، و توسيع دائرة الآية فى كيفية تطبيقها على عصرنا الحاضر، فالاستفادة من روايات أهل البيت (ع) الصحيحة، هى التى تجعلنا نهتدى إلى معرفة الواقع، و البحث عن مصاديق لهذه الآيات، و الوقوف على المعنى المراد، و حينها نستطيع أن نطبقها على أنفسنا، و مجتمعنا، و لو أحصرت هذه الآيات فى سبب النزول فقط فإنها ستموت، كما

ورد فى الحديث عن الإمام الباقر (ع): «و لو أن الآية إذا نزلت فى قوم ثم مات أولئك القوم ماتت الآية لما بقى من القرآن شىء و لكن القرآن يجرى أوله على آخره ما دامت السماوات و الأرض

---

(۱) سورة المائدة آية ۹۳

(۲) و البرهان (ج ۱) ص ۲۸ القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۳

و لكل قوم يتلونها هم منها من خير أو شر» «۱»

کیف تصف السنة القرآن:

کلام أئمة أهل البیت أبلغ أثرا و أوضح عبارة من کلامنا فی وصف القرآن الکریم، فإننا مهما حاولنا أن نصف هذا الکتاب فإننا لن نرقی إلی ما وصفوه به، فانهم أهل القرآن و عندهم نزل، فهم أدری بما فیه، فتعالوا لنری کیف تصف العترة الطاهرة هذا الکتاب السماوی؟

فعن النبی (ص) قال: «إن أردتم عیش السعداء و موت الشهداء و النجاة یوم الحسرة و الظل یوم الحرور و الهدی یوم الضلالة فادرسوا القرآن فإنه کلام الرحمن و حرز من الشیطان و رجحان فی المیزان». «۲»

و عنه أیضا «إن هذا القرآن هو النور المبین و الحبل المتین و العروة الوثقی و الدرجة العلیا و الشفاء الأشفی». «۳»

و عن السیدة فاطمة الزهراء علیها السلام: «للّه فیکم عهد قدمه إلیکم و بقیة استخلفها علیکم کتاب اللّه بینة بصائره منکشفة سرائره و برهان متجلیة ظواهره، مدیم للبریة استماعه، و قائد إلی الرضوان أتباعه و مؤید إلی النجاة أشیاعه، فیه تبیان حجج اللّه المنیرة و محارمه المحرمة و فضائله المدونة و جمله الکافیة و رخصه الموهوبة و شرائعه المکتوبة و بیناته الجلیلة. ففرض الإیمان تطهیرا من الشرک و الصلاة تنزیها عن الکبر و الزکاة زیادة فی الرزق و الصیام تثبیتا للإخلاص و الحج تسنیة للدین و العدل تسکینا للقلوب و الطاعة نظاما للملة و الإمامة من الفرقة و الجهاد عزا للإسلام و الصبر معونة علی الاستیجاب و الأمر بالمعروف مصلحة للعامة و بر الوالدین وقایة عن السخط وصلة الأرحام منجاة للعدد و القصاص حقنا للدماء و الوفاء للنذر تعرضا للمغفرة و توفیة

---

(۱) تفسیر العیاشی (ج ۱) ض ۱۰

(۲) البحار (ج ۹۲) ص ۱۹

(۳) البحار (ج ۹۲) ص ۳۱ القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۴

المکائیل و الموازین تغییر للبخسة و اجتناب قذف المحصنات حجبا عن اللعنة و مجانبة السرقة إیجابا للعفة و أکل أموال الیتامی إجازة من الظلم و العدل فی الأحکام إیناسا للرعیة و حرم اللّه عز و جل الشرک إخلاصا للربوبیة فاتقوا اللّه فیما أمرکم به و انتهوا عما نهاکم عنه» «۱».

و عن مولانا أمیر المؤمنین علی بن أبی طالب علیه السلام قال: «ثم انزل علیه الکتاب نورا لا تطفأ مصابیحه و سراجا لا یخبو توقده و بحرا لا یدرک قعره و منهاجا لا یضل نهجه و شعاعا لا یظلم ضوؤه و فرقانا لا یخمد برهانه و تبیانا لا تهدم أرکانه و شفاء لا تخشی أسقامه و عزا لا- تهزم أنصاره و حقا لا- تخذل أعوانه فهو معدن الإیمان و ینابیع العلم و بحوره و ریاض العدل و غدرانه و أثافی الإسلام و بنیانه و أودیة الحق و غیطانه و بحر لا ینزفه المستنزفون و عیون لا ینضبها الماتحون و مناهل لا یغیضها الواردون و منازل لا یضل نهجها المسافرون و أعلام لا یعمی عنها السائرون و آکام لا یجوز عنها القاصدون، جعله اللّه ریا لعطش العلماء و ربیعا لقلوب الفقهاء و محاج لطرق الصلحاء و دواء لیس بعده داء و نورا لیس معه ظلمة و حبلا وثیقا عروته و معقلا منیعا ذروته و عزا لمن تولاه و سلما لمن دخله و هدی لمن ائتم به و عذرا لمن انتحله و برهانا لمن تکلم به و شاهدا لمن خاصم به و فلجا لمن حاج به و حاملا لمن حمله و مطیة لمن اعمله و آیة لمن توسم و جنة لمن استلام و علما لمن وعی و حدیثا لمن روی و حاکما لمن قضی». «۲»

---

(۱) علل الشرائع ص ۲۴۸

(۲) نهج البلاغة خطبة (۱۹۸) ص ۳۱۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۵

۴ القرآن سلوک يومی

اشارة

* جذور المعرفة* ممارسات و حاجات

القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۷

جذور المعرفة:

يحتاج كل إنسان فی الوجود إلی دعائم و ركائز، لكی يستند عليها فی أفكاره التی ستصبح أفعاله فيما بعد، فإن كانت هذه المرتكزات و الدعائم منذ وضع أول لبنة لحجر الأساس متينة، كانت كل أفكاره سليمة طبعا يتبعها الأعمال، و العكس هو الصحيح.

لهذا كان حری علی كل مسلم أن تنمو جذور شجرة أفكاره من القرآن، لكی تينع و تثمر فی مجالها الصحيح، لأن أساسها سليم و متين، و لا- يستطيع أحد أن يقف بوجهه و يعاتبه علی قول أو عمل، إلا- الذين فِی قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً «۱» أو فی بعض الأحيان الجهل و القصور فی عدم فهم الآخرين هو السبب وراء معاداتهم و تكذيبهم للقرآن كما فی قوله بَلْ كَذَّبُوا بِما لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ «۲» و

فی الحديث الشريف «من قصر عن معرفة شیء عابه» «۳» و «من جهل شيئا عابه» «۴»

من هنا تبين لنا بأن صياغة الحياة وفق نظم عادلة و مقبولة مهمة صعبة لا يقوم بها إلا القرآن الكريم لأن هذه الصياغة لا بد و أن تكون وفق قيم تتأقلم مع طبيعة الإنسان، نابعة من تلك التشريعات الصادرة من خالق هذه الطبيعة.

فالتعرف علی القرآن الكريم يختلف عن التعرف علی أی كتاب آخر.

معرفة العبرة هی التی يستفيد منها الإنسان، ليتدارك بها اللحظة الراهنة التی يعيشها، و يخطط من خلالها للمستقبل، و معرفة العبرة هی التی يتحدث

---

(۱) سورة البقرة آية ۱۰

(۲) سورة يونس آية ۳۹

(۳) بحار الأنوار (ج ۷۷) ص ۴۲۰

(۴) بحار الأنوار (ج ۷۸) ص ۷۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۸

عنها القرآن، و يحرضنا علی أن نعتبر من الماضی، لكی نبصر المستقبل، فهی من المسائل المهمة جدا فی حركة الحياة لديموميتها وفق أطر صحيحة.

فَاعْتَبِرُوا يا أُولِی الْأَبْصارِ. «۱»

لَقَدْ كانَ فِی قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِی الْأَلْبابِ. «۲»

إِنَّ فِی ذلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِی الْأَبْصارِ. «۳»

إِنَّ فِی ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشی. «۴»

و أن نتعلم من القرآن لنكتشف الداء، و مواضع الخطأ، و نقاط الضعف من نقاط القوة، و أن نسد الثغرات التی خلفتها الثقافات الدخيلة و المستوردة من هنا و هناك علی مجتمعنا الإسلامی عبر العقول الملوثة بتلك الأفكار السوداء.

فالارتشاف من القرآن فی هـذا المجال یعنی أن نسـد الأبواب فی وجه الثقافـة المنحرفة و التبریریة، التی تبعد الإنسان عن مسـئولیته، و تسلخه من دینه، و تصبغ فطرته النظیفة بألوان داکنة شتی.

فعلینا أن نتثقف بثقافة القرآن، لکشف تلک الأقنعة الزائفة المسـتترة تحت شـعارات براقة، و أسلحة عصریة، ترید أن تمزق جسد الأمة إلی أحزاب، و قومیات و أقالیم و ثقافات منحرفـة، و لا یمکن ذلک إلا بعـد أن نتتلمـذ علی ضوء القرآن، حتی یعطینا تلک المناهج و البرامج التی تترجم إلی واقع حی، لتتحول إلی حرکة اجتماعیة و اقتصادیة و سیاسیة و تربویة سلیمة تقودنا إلی بر

---

(۱) سورة الحشر آیة ۲

(۲) سورة یوسف آیة ۱۱۱

(۳) سورة النور آیة ۴۴

(۴) سورة النازعات آیة ۲۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۴۹

الأمان.

من منطلق العبرة و العلم نسـتطیع أن نجـد نوع المعرفـة، لأـن القرآن لیس کتابا اقتصادیا لکیفیـة الحصول علی الثروة مثلا، و لیس کتابا سیاسیا للوصول عن طریقه إلی سدة الحکم أو المنصب، بل هو کتاب العبرة و العلم و العمل.

فیعتبر الإنسان لکی یصون مسـتقبله من الأخطاء، و یتعلم منه لکی یحفظ إنسانیته، و یعیش مـدرکا للأمور فی الحیاة، ببرامج القرآن، و بصائره النیرة، و عطائه الفیاض.

و یعمل به لکی یحقق کل طموحاته و آماله التی یصبو إلیها.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۰

ممارسات و حاجات:

اشارة

کلمـا طـال الزمن و بعـدت بنـا المسافات عن زمن النزول، کلما احتجنا إلی الکنز الإلهی اکثر، و اصـبح ما وصل إلینا من نوره بصیصـا ضئیلا من إشـراقة الأمل، التی یجب أن تنیر قلوبنا، و أن تثمر بها نفوسـنا من الحب و الخیر، و تتوج مجتمعاتنا و أجیالنا القادمـة بذلک النور الإلهی الوهاج.

فحاجتنـا إلیه لاـ تقتصـر فی أن نودع القرآن الکریم فی بیوتنـا لحفظنـا من الشـر و جلب الخیر لنـا، أو نقرأه علی موتانا لینوّر قبورهم، و یجلب لهم الحظ السعید فی الآخرة فقط، بل إن هذا ما هو إلا قطرة من فیض النور الإلهی.

فاحتیاج البشـر إلیه کحاجته إلی الطعام و الشراب لدیمومة حیاته، بل أشد من ذلک، فالبشر إذا کانت حاجتهم إلی الطعام المادی دون الفکری الذی یغذی العقل و الروح فهم طبقا للمثال الذی یضربه سبحانه و تعالی فی کتابه إِنْ هُمْ إِلَّا کَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِیلًا «۱».

حیث لا فرق بیننا و بینهم و السبب هو الإنسان نفسه و طریقة تفکیره و منهجه فی الحیاة لعدم الاستفادة من القرآن.

و هنا سؤال یطرح نفسه، ما هی نوع الحاجة؟

و إذا کنا فعلا نحتاج للقرآن. فهل القرآن یقوّم ممارساتنا الحیاتیة و یضبطها؟! للإجابة علی هذا السؤال نقول:

---

(۱) سورة الفرقان آية ۴۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۱

أولا:

منذ أن خلق اللّه سبحانه و تعالى أبانا آدم و أمنا حواء، أعطى لهم الحرية فى تناول ما لذ و طاب باستثناء شجرة واحدة، و هذا يعنى، ينبغى عليهم الالتزام بالقانون الإلهى، و لم يفرض عليهم مجموعة من القوانين، بل اكتفى بقانون واحد وَ لا تَقْرَبا هذِهِ الشَّجَرَةَ «۱». و لكن بعد خطيئته و نزوله إلى الأرض، و بتوالد البشر و تكاثرهم عبر الدهور، تعقّدت حياتهم، و اصبح لزاما على الإنسان أن يكون جماعات و من ثم مجتمعات و أمم، و لا بد من وجود ضوابط و قوانين، تحمى حقوقهم، و ترتب عليهم واجبات تجاه أنفسهم و تجاه المجتمعات الأخرى.

و لهذا لم يترك اللّه عز و جل البشر يتخبطون فيما بينهم بالنظم الوضعية، بل توالت الكتب السماوية عليهم، و انزل الأنبياء و الرسل (ع)، و كان آخرهم القرآن الكريم على خاتم الأنبياء محمد (ص).

لأنه مهما حاول الإنسان أن يستخدم كل طاقاته الفكرية و إمكانياته المادية فلن يستطيع أن يتوصل إلى ذرة من الفيض الإلهى.

فلقد مرّت البشرية بمراحل متعددة و هى فى كل يوم تطالعنا بقانون جديد، الهدف من ذلك هو ضبط الإنسان، سلوكا و منهجا، فردا و مجتمعا فى قنوات معينة، و عبر قوانين محدودة، و لم تكن تنجح إلا فى حدود ما وافق الشريعة السماوية، أو ما كان مستلهما من رؤى الدين و بصائره، و موافقا لهدى العقل.

فعلا الدين رسالة السماء، لا تلغى كل قانون يضعه الإنسان فيما إذا كان

---

(۱) سورة البقرة آية ۳۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۲

موافقا للعقل، و الشرائع السماوية، و لا يجوز تشريع قانون إن لم يكن موافقا لشريعة اللّه.

إذا لا بد من قانون و لن يكون إلا من القرآن الكريم. و هل هناك أفضل من قانون اللّه و برنامجه؟! أ ليس خالق البشر اعرف بما يصلح للبشر؟! «ثم أن كل قانون عدا قوانين اللّه سبحانه ليس صالحا، إذ القانون يجب أن يكون ملائما للإنسان، و لا يتمكن من وضع القوانين الملائمة للإنسان، إلا من عرف الإنسان و البشر، و من لم يعرف الإنسان لا يتمكن أن يضع قانونا ملائما له» «۱».

خالق الإنسان هو اللّه سبحانه و تعالى، و قد أودعه فطرة، و أعطاه عقلا، و منحه إرادة، ثم جعله خليفة على الأرض بدلا من الملائكة التى اعترضت عليه، و هل يعقل أن يكون هذا القلق على الأرض من قبل الملائكة دون أن يبعث اللّه قانونا يتمثل فى الرسول و الكتاب.

كما انه لا يعقل لهذا المخلوق الضعيف اللَّهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ «۲» أن يصنع من ضعفه قانونا لضعيف مثله ذا ميول و هوى و رغبات.

لأن الإنسان المقنن مهما كان عالما، و ذا خبرة و نزيها، و حرا فى تصرفاته، فانه لا يستطيع أن يخرج من الظروف المحيطة به، و التقاليد الموروثة، و العادات المتعارفة، و الأهواء التى تضغط عليه من الداخل، فقانونه قد يكون خاص به فقط.

---

(۱) الفقه حول القرآن الكريم (ج ۹۸) ص ۱۱۰

(۲) سورة الروم آية ۵۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۳

و كيف يمكن أن يجبر الإنسان أخاه الإنسان على الالتزام بما يرتضيه هو لغيره، باعتبار انه مخلوق مثله؟

إذا لا يستطيع هذا الإنسان أن يلزم غيره بالمواثيق، و العهود التى يأخذها على نفسه بهذا الاعتبار، فلا تنتظم الحياة، و بالتالى لا يرتقى المجتمع لفقدان الضوابط، و القوانين الملزمة له.

ثانيا:

لقد اختلف البشر فى الحاجة إلى القانون، و أهمية تطبيقه فيما بينهم، فمنهم من تشدد فى فرضه عنوة على الناس، و مثال ذلك الملك حمورابى المتمثل قانونه فى شريعته المسماة بشريعة حمورابى. و منهم من تجاهل دور القانون إلى درجة اصبح قانون الغاب هو الحاكم بينهم، كما فى عرب الجاهلية قبل الإسلام، حيث كانت لديهم حروب كثيرة تأكل أبناءهم، كما فى حرب داحس و الغبراء و حرب البسوس و ... الخ. فلو كانوا يعرفون القانون السليم لما نسف بعضهم بعضا.

«و لقد اهتم العلماء فى تعريف القانون، بأنه انعكاس من التجارب منطلقين من مدرسة التجربة.

و منهم من قال: إن مستند القانون شىء من العدالة و التجربة.

أما القسم الآخر عرّف القوانين انعكاس عن العرف و العادة منطلقين من مدرسة الاجتماع» «۱» و نحن نعرّفه بأسلوب ابسط و اشمل، بأنه نوع من الإلزام. و الإلزام

---

(۱) راجع الفقه الحقوق للإمام الشيرازى ص ۲۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۴

وحده لا يكفى دون أن تكون له خلفية و برنامج و خطة، ترشد الإنسان و توجهه فى الحياة، و تبين له الهدف من وجوده، و ما هو مصيره، و ذلك ما تكفلت به برامج السماء عبر الكتاب كتاب اللّه المجيد.

قوانين الدين و الشريعة التى جاء بها القرآن، و شرحتها روايات أهل البيت، هى ليست قوانين مجردة جوفاء لا روح فيها، فهى تتحرك مع الفرد حينما ينقاد لها و يتبع القرآن، فلا يكون كالأعمى حيث يقاد إلى أمر دون أن يبصره، و قد يكون فيه حتفه.

فهناك ثقافة خاصة للقانون قد تكفل القرآن بها. فعلى المسلم أن يؤمن بكتاب اللّه حتى يستطيع أن يطبق ما فيه، و أن يتعرف على مدى أهمية الالتزام به كى لا يتهرب منه.

فالدين حينما يضع قانونا للجريمة، فهو إنما يمنع الجريمة قبل وقوعها ببرنامج معد سلفا، فلا يتفاجأ الإنسان حين تنفيذ القانون. و لذا نلاحظ أن كثير من الحدود تدرأ بالشبهات، التى تأسست عليها قاعدة يعمل بها فى القضاء الإسلامى، و هى قاعدة «الحدود تدرأ بالشبهات». فبمجرد الشّبه يتوقف التنفيذ للقانون، فكيف إذا لم يكن لديه معرفة بالقانون، أو بالحكم، و لم يستطع أن يطلع عليه إما قاصرا أو مقصرا، على تفصيل عند الفقهاء فى ذلك لسنا بصدده (تراجع فى ذلك الكتب المختصة بالموضوع)، و لكن يمكن أن ندلل على ما نقول بالرواية التالية:

عن أبى عبد اللّه (ع) قال: «شرب رجل على عهد أبى بكر خمرا فرفع إلى أبى بكر فقال: له أشربت خمرا؟

قال: نعم قال: لم و هى محرمة؟

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۵

قال: فقال له الرجل إنى أسلمت و حسن إسلامى و منزلى بين ظهرانى قوم يشربون الخمر و يستحلون و لو علمت إنها حرام اجتنبتها.

فالتفت أبو بكر إلى عمر فقال: ما تقول فى أمر هذا الرجل؟

قال عمر: معضلة ليس لها إلا أبو الحسن.

فقال أبو بكر: ادع لنا عليا.

فقال عمر: يؤتى الحكم فى بيته فقاما، و الرجل معهما، و من حضرهما من الناس، حتى أتوا أمير المؤمنين (ع) فاخبراه بقصة الرجل و قص الرجل قصته.

فقال (ع): ابعثوا معه من يدور به على مجالس المهاجرين و الأنصار من كان تلا عليه آية التحريم فليشهد عليه.

ففعلوا ذلك فلم يشهد عليه أحد قرا عليه آية التحريم.

فخلى عنه و قال له: إن شربت بعدها أقمنا عليك الحد «۱».

العقوبات و أحكامها هى جزء من النظام الاجتماعى الذى يسود الناس، حتى يأمنوا من خلاله على أنفسهم و أرواحهم، و تتوفر لهم الحرية و الاستقرار من جرّاء تطبيقه، فهى ليست مجرد قوانين للردع فقط، بل هى أوامر الشريعة جاءت لتهذيب النفوس، و صقل الشخصيات، لتتوافق مع تعاليم القرآن.

و مرتكب المعصية أيضا أو الجريمة لا يجوز عقابه، و لا حكم على من لا يعرف الحكم، هذا ما كان

يقوله الإمام على (ع): فقد رفعت امرأة إلى عمر بن الخطاب قد زنت، فسألها عن ذلك، فقالت فى يسر: «نعم يا أمير المؤمنين و أعادت ذلك و أيدته كأنها لم تقترف ذنبا، و على يسمع و يتأمل،

---

(۱) التهذيب (ج ۱۰) ص ۹۴ القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۶

فقال على عليه السلام: إنها لتستهل به استهلال من لا يعلم انه حرام.

فأعلمها بحرمة الزنا و درأ عنها الحد». «۱»

ثالثا:

لتوجيه البشر إلى طريق الصلاح و الخير، فقد يضيع الإنسان فى خضم هذه الحياة فيحتاج إلى المرشد و الموجه، و خير مرشد هو القرآن. يقول ربنا هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. «۲»

فى بعض الأحيان يفقد الإنسان صوابه، و لا يعرف أين الطريق السليم، فيكون القرآن هو الموجه و الوسيلة التى يسلكها، و ينتهجها فى حياته، لتحقيق السعادة و النجاح.

فهو أقرب طريق موصل إلى اللّه سبحانه فى معرفة التزاماته، و قوانينه، و هو وسيلة، لأنه طريق موصل إلى أهداف سامية، يريد الإنسان من الوصول إليها أن ينال رضا اللّه فى الدنيا من خلال تحقيقها، و الفوز بالجنة فى دار البقاء.

إذا معرفة الخير من الشر، و الحسن من القبيح، هى إحدى اهتمامات البشر، للوصول بمعرفتها إلى الغايات النبيلة، و المعارف السامية، و الحقيقة القرآنية قد كملت فى هذا المجال، لتكون بمثابة العطاء التام و الكامل لهم، فما على الإنسان المسلم إلا أن يتوجه إلى مصدر الخير و هو القرآن، فيرتشف منه معانى العلم و المعرفة و النهضة العملية، بل و كل وسائل الصلاح، التى مصدرها كتاب اللّه، الذى هو خير للإنسانية، و منبع قوة المسلمين، و عزتهم، و هو حبل اللّه المتين.

فهو عهد من اللّه إلى البشرية و ميثاقه إليهم، كما

قال الإمام الصادق (ع):

---

(۱) أخلاقيات أمير المؤمنين ص ۹۴

(۲) سورة آل عمران آية ۱۳۸ القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۷

«القرآن عهد اللّه إلى خلقه فقد ينبغى للمرء المسلم أن ينظر فى عهده و ان يقرأ منه فى كل يوم خمسين آية». «۱»

و القرآن ليس عهدا فقط أو مصدرا للخير و إنما هو المقياس الذى تقاس به صحة القوانين، و سلامتها، و مدى توافقها للفطرة الإنسانية و العقل، و كذلك الأحكام و الاجتهادات، بل و كل الجهود الفكرية و النشاط العلمى الذى يقرره الإنسان، و تنتجه ممارسات العلماء و المجتهدين و المفكرين و الباحثين الإسلاميين.

يقول سبحانه: فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَ الرَّسُولِ. «۲»

رابعا:

التكاملية ضرورة فى الحياة، لا يستطيع أحد من البشر مهما حاول الوصول إلى التكاملية إلا أن يبقى عاجزا عن تحقيق حلمه الأزلى.

لهذا نرى أن القانون البشرى أو ما نسميه بالوضعى رغم كل الجهود المبذولة، فهو خال من الدقة و غير كامل، و ما يطرأ عليه من تغيير أو إلغاء أو محاولة ترميم ثغرات النقص المتعفنة فيه، خير دليل على عدم صلاحيته للبشرية.

بينما كتاب اللّه لا نقص فيه، فهو بيان لكل شىء كما فى قوله تعالى:

وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِى هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ. «۳»

فهو من عند خالق البشر لكل البشر فى كل مكان و زمان وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً. «۴»

فوحدة المصدر و وحدة التناسق و شموليته للبشر و صلاحيته للزمان و المكان، دلالة واضحة على انه بيان كامل مفصل فيه كل شىء، قال سبحانه:

---

(۱) البيان لخوئى ص ۲۵

(۲) سورة النساء آية ۵۹

(۳) سورة الإسراء آية ۸۹

(۴) سورة النساء آية ۸۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۸

الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. «۱»

و النظرة إلى القرآن يجب أن تكون نظرة متكاملة أيضا، بملاحظة جميع الأبعاد، دون أن ننظر إلى الآيات منفصلة بعضها عن بعض أَ فَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتابِ وَ تَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ. «۲»

هناك من يختار الآيات التى تناسب هواه و مستوى تفكيره دون النظر إلى الآيات الأخرى و كأن القرآن مجزأ إلى أقسام كل حسب هواه، يأخذ الآيات التى تتحدث عن الطبيعة دون الإنسان، أو الإنسان دون علاقاته مع المجتمع، أو الآيات التى تتحدث عن الحكومة و الاقتصاد و السياسة، و لا يقترب من الآيات التى تتحدث عن القيامة و الجنة و النار.

فى حين عليه أن يعتبر القرآن وحدة واحدة، و رؤى و بصائر مترابطة مع بعضها البعض، لأنه أمر غيبى جاء من خالق البشرية، و لكى لا نكون مصداق الآية التى تقول الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ. «۳» أى فرقوه و جعلوه أعضاء كأعضاء الجزور فآمنوا ببعضه، و كفروا ببعضه عن قتادة قال آمنوا بما وافق دينهم و كفروا بما خالف دينهم. «۴»

---

(۱) سورة هود آية ۱

(۲) سورة البقرة آية ۸۵

(۳) سورة الحجر آية ۹۱

(۴) مجمع البيان (ج ۵- ۶) ص ۵۳۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۵۹

۵ القرآن و علاج أمراضنا

اشارة

* كيف نمرض؟

* العيادة القرآنية* القرآن شفاء و رحمة* القلب .. الروح .. العقل* القرآن و الأبدان

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۱

كيف نمرض:-

المريض يحتاج إلى شفاء و رحمة، و الشفاء يتمثل فى استخدام العقاقير الطبية التى يصفها له الطبيب، و أما الرحمة فلأن المريض قد تعطلت كل طاقاته و قدراته فهو لا يمتلك القدرة البدنية و النفسية على مجابهة الحياة.

المرض قد يكون فى البدن، كما أنه قد يكون فى القلب و النفس و ينعكس ذلك على المجتمع بشكل مباشر.

كيف يمرض القلب و كيف يمرض المجتمع؟

حينما يذاع نبأ انتشار جرثومة مرض ما، فإن الجميع يهرع إلى السؤال عن طرق الوقاية خشية الإصابة بهذا المرض، و قد يبالغ الفرد من شدة خوفه فى تجنب طرق العدوى لهذا الوباء.

و فى حال الإصابة به سيكون سعيه نحو الطريقة الفضلى فى كيفية العلاج، و الشفاء التام منه، حتى لو كلفه ذلك إمكانيات مادية ضخمة.

هذا فى حالة كون المرض عضوى، أما فى حالة كون الفيروس يصيب النفس و القلب، فإن علاجه و طرق الوقاية تكون اصعب بكثير، لأن مجاهدة النفس صعبة، و علاجها يتطلب المزيد من الجهد و الوقت. و

فى حديث للإمام على (ع) «إن هذه النفس لأمارة بالسوء، فمن أهملها جمحت به إلى المآثم» «۱»

و يبدأ المرض عند ارتكاب أول معصية للفرد، فتلك تكون بوابة الانحراف للحياة المستقيمة، و للفطرة السليمة، فتسبب نتائج سيئة لنفسه و لمجتمعه، فالذى يشرب الخمر، و الذى يقامر، و الذى يزنى، و يرتكب الموبقات، يسبب لنفسه حياة

---

(۱) غرر الحكم

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۲

مليئة بالمشاكل الصحية و النفسية و الاجتماعية.

و المنحرف يتصور أنه يضر نفسه فقط أو كما يدّعى البعض أنها مرحلة و تزول، بل إن حاضره و مستقبله فى خطر، و ينعكس ذلك على الجيل القادم، الذى يتأثر بسلبيات الماضى، و تلعب عوامل الوراثة دورا كبيرا إلى جانب تلك المخلفات السلبية السيئة التى خلفها فى المجتمع، فلا هو ربح الدنيا وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً «۱» و لا الآخرة وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمى. «۲»

إذا الفرد هنا يكون أداة هـدم فی المجتمع، و وسـيلة تخريب، لأنه بمعاصـيه لا يضـر نفسه، و إنما يضـر مجتمعه أيضا، و لا يسـتطيع أن يبنی ما هدمه، ما دام فی غيه مستمر. و

فی الحديث للإمام علی (ع) «كيف يصـلح غيره من لا يصـلح نفسه» و «كيف يهدی غيره من يضل نفسه» «كيف ينصح غيره من يغش نفسه». «۳»

أ ليس ما يحدث اليوم من تصـرف علی الصعيد الاجتماعی و السياسی حيث الفقر و الجوع و الحروب و تلوث البيئة، و ما يستتبع ذلک من فساد، و إزهاق للنفس البريئـة، كموت الأطفال فی العالم اليوم، و زيادة الأمراض، و انتشار الأوبئة، نتيجة حتمية لذلک. فعالم اليوم لا يتصف بالحكمة و لا العقلنة، لأنه فقد الموازين، بابتعاده عن القيم الربانية، و هو نوع من السفاهة و المرض النفسی، حيث أنه مخالفة لأدنی و ابسط قواعد الحياة و الفطرة و العقل.

ففی رواية «أن رسول اللّه (ص) رأی إنسانا يتصـرف تصـرفا سيئا، فقال من هذا قالوا: هو مجنون فقال الرسول (ص) ليس هذا بمجنون بل هو مبتلی، قالوا: فمن المجنون

---

(۱) سورة طه آية ۱۲۴

(۲) سورة طه آية ۱۲۴

(۳) غرر الحكم القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۳

يا رسول اللّه، قال: المجنون الذی يعصی اللّه». «۱»

إذا من الواضـح أن الأـمر لاـ يحتـاج إلاـ أن ننظر إلی علامـات و ملامـح المرض فی مجتمعنـا، فقـد ظهرت من خلاـل التـدنی و ظهور النواقص و مشاهدة حالة التفسخ من الدين، و الارتباط بالثقافات الأخری، و التيارات البعيدة عن روح البرامج السماوية.

فما دام الأمر كذلک فكيف يكون العلاج و الخلاص للعالم لا لأمة الإسلام فقط؟

---

(۱) الصياغة الجديدة ص ۱۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۴

العبادة القرآنية:

عالج القرآن الجذور الأساسية للانحراف، ليستطيع أن يبنی الأسس الكفيلة لسعادة الإنسان، و عمارة الأرض، ببناء الأساس الأول و هو الأيمان بخالق هذا الكون، ثم دعوة القرآن إلی الأيمان بالنبی المرسل، و من بعث من قبله، و الإيمان بالقرآن نفسه و بما قبله من كتب جاءت للبشرية.

و قـد أشار القرآن إلی هـذه الحقيقـة بقوله سـبحانه و تعالی: وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قالُوا سَمِعْنا وَ أَطَعْنا غُفْرانَکَ رَبَّنا وَ إِلَيْکَ الْمَصِيرُ. «۱»

و فی مقابـل ذلـک فـأن عـدم التوجيه إلی هـذه الفكرة و الكفر بهـا، يعنی هـدم الأساس الأول و القاعـدة الرصـينة التی يقوم عليها بناء المجتمع، و بالتـالی ضـلاله و انهيـاره. فيقول ربنـا سـبحانه و تعـالی: يـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، آمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِی نَزَّلَ عَلی رَسُولِهِ وَ الْكِتابِ الَّذِی أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَ مَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَ مَلائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا بَعِيداً. «۲»

الإيمـان بـاللّه هو المبعث الأول لانطلاقـة المسـلم فی الحياة، فالقرآن الكريم أوجـد فی المسـلمين الروح المعنويـة العاليـة، التی تتحلی بالأخلاـق الرفيعـة و النفسـية الطيبـة، الـتی كـانت وراء سـعادتهم فی الـدنيا، حينمـا كـانوا ملتزمين بكتـاب اللّه عز و جـل كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ «۳» أى عند ما كنتم مطبقين لهذا الكتاب. و لكن حينما تخلى المسلمون عن كتاب اللّه، فلم يكونوا كما كانوا سادة فى العالم. فلو أردنا الحياة السعيدة فى الدنيا، و المجتمع السليم الخالى من

---

(۱) سورة البقرة آية ۲۸۵

(۲) سورة النساء آية ۱۳۶

(۳) سورة آل عمران آية ۱۱۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۵

الأمراض و المشاكل، و البعيد عن الويلات و الأخطار، بإقامة كتاب اللّه، الذى يتجلى فيه الأيمان باللّه و اليوم الآخر. حيث يقول سبحانه و تعالى: وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقامُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ. «۱» ما لم تتوفر العناصر و المقومات السليمة النابعة من القرآن و تتهيأ الأرضية الصالحة لذلك، لن ينجح المجتمع فى الوصول إلى قمة السعادة، و الخطوة الأولى فى ذلك هى التربية القرآنية فى التقرب إلى كتاب اللّه، لمحاولة التطبيق العملى له، التى تتخذ أشكالها التنفيذية على الصعيد الفردى و الاجتماعى، أو على صعيد المؤسسات الشعبية أو الأجهزة الحكومية فى جعل الممارسات منطلقة من القرآن، مثل ما ورد أن أعرابيا جاء إلى رسول اللّه (ص) و شهد الشهادتين و اسلم ثم قال: يا رسول اللّه ما هو تكليفى الآن؟

فقال النبى (ص): فى جملة ما قال تعلّم القرآن.

فأخذ أحد المسلمين يعلمه سورة الزلزلة و قرأ عليه بسم الله الرحمن الرحيم، إِذا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزالَها، وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقالَها، وَ قالَ الْإِنْسانُ ما لَها، يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبارَها، بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحى لَها، يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتاتاً لِيُرَوْا أَعْمالَهُمْ، فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. «۲» فقام الأعرابى يريد الانصراف فقال له المعلم المسلم: اصبر حتى أعلمك بعض السور الأخر.

فقال الأعرابى: كفانى ذلك.

فقال: كيف؟

قال: أنى لم أكن أحتاج إلى كل هذه السورة حتى أستقيم فى طريق الإسلام، بل تكفينى آيتان فقط، قوله سبحانه فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ

---

(۱) سورة المائدة آية ۶۶

(۲) سورة الزلزلة آية (۱- ۸)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۶

فأنى علمت أن الإسلام فى هاتين الكلمتين. «۱»

فالعلاج فى القرآن يتمثل فى تطبيقه، و جعله الانطلاقة فى الحياة و المبدأ هو كتاب اللّه عز و جل، فحينها نسعد فى الدنيا و الآخرة، و من هنا علينا أن نحول القرآن إلى مدرسة كبيرة واسعة مترامية الأطراف، تسع البشرية كلها، حتى نستطيع أن نفهم كتاب اللّه و نفسره التفسير الصحيح.

القرآن كتاب الإسلام عقيدة و شريعة و منهاجا و سلوكا نرجع إليه، فتظل قيمه و بصائره عالية تشرق على الإنسانية، ما دامت تسعى إليه، و تستنير بهديه.

و ليس يعوزنا إلا تلك العقلية المنفتحة على القرآن، التى تحول المناهج إلى سلوك عملى، و الشريعة إلى أحكام التزامية، و القيم و البصائر إلى واقع حى، و مراكز توجيه للبحث و الدراسة و التنقيب فى آيات كتاب اللّه، لكى تترجم إلى عمل.

(۱) الصياغة الجديدة ص ۴۲۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۷

القرآن شفاء و رحمة:

يقول سبحانه و تعالى: وَ نُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ ما هُوَ شِفاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. «۱»

كيف يكون القرآن شفاء و رحمة للمؤمنين؟

الشفاء هو نتيجة العلاج، لأنه الحاصل بعد الدواء و هو سبب للرحمة.

تعاليم القرآن هى الدواء الناجع لشفاء الإنسان، باعتبارها طريق إلى الهداية، فلها آثارها الطيبة و الحسنة على مسيرة الإنسان.

عن النبى (ص): «عليكم بالقرآن فإنه الشفاء النافع و الدواء المبارك». «۲»

و يقول ربنا سبحانه: قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ. «۳»

فالذى يتعافى ترى آثار المعافاة على بدنه و نفسه، و الشفاء الذى يتحدث عنه القرآن نتيجة الالتزام بتعاليمه، هو عودة الروح إلى الحياة من جديد نتيجة الأثر الحاصل، فليست المعافاة مرتبطة بالجسد بل بالنفس و المجتمع و الأمة.

و المرض هو ليس المرض الجسدى فقط، بل هناك أمراض اقتصادية و سياسية و اجتماعية و تربوية، و لو كانت جسدية فقط لنهض المجتمع من أزماته، و تخلص من جميع مشاكله، مع أن الأمراض البدنية علاجها أيضا بعلاج الروح، فالذى ينهض بالإنسان روحه و قلبه و ليس بدنه فقط. قال سبحانه و تعالى: قالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَ زادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَ الْجِسْمِ. «۴»

و العلم هو غذاء الروح فى الجسم، و هو الشفاء الذى يتمثل فى تعاليم

(۱) سورة الإسراء آية ۸۲

(۲) البحار (ج ۹۲) ص ۳۱

(۳) سورة فصلت آية ۴۴

(۴) سورة البقرة آية ۲۴۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۸

القرآن الحقة، أ ليس المجتمع المريض حتى يتعافى من أمراضه الاجتماعية بحاجة إلى إرشاد و توجيه!

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب عن القرآن: «فاستشفوه من أدوائكم و استعينوا به على لأوائكم فأن فيه شفاء من أكبر الداء و هو الكفر و النفاق و الغى و الضلال». «۱»

فالقرآن كتاب الهداية للإنسان، كما أنه كتاب الحقوق و الواجبات، التى توجهه نحو السلوك العام فى مجتمعه على الأسس السليمة، و هذه بدورها تهدف إلى تربيته، و تنزيه العقل و العقيدة من الخرافة و الجهل، و إلى إصلاحه بالعلم النافع و العمل الصالح.

و لكن تحقيق السعادة التامة لا تكون بالشفاء وحده، لأن الإنسان المريض بحاجة إلى الرحمة و العطف.

فحينما يرفع عنه المشاكل، و يبتعد عن الأخطار بمعرفة الحلال من الحرام، و معالجة الأوضاع الفاسدة، التى لا تلتقى مع أحكام القرآن و مبادئه، فإنه يرفع عنه جانب العذاب و الألم و الشقاء، و يمنع حدوث الفتن و الحروب، و لكنه لا يحصل على تلك السعادة الكاملة إلا عند ما تحصل له السكينة، و الاستقرار و الاطمئنان، ببلوغ غاياته النبيلة، و أهدافه السامية، و ذلك بتحصيل الرحمة التى تتبع الشفاء.

و الرحمة فى قدرة هذا الإنسان على استخدام طاقاته و إمكانياته من أجل تسخير النعمة التى أودعها اللّه له فى هذا الكون.

و تتجلى الرحمة فى الموعظة و الهدى و الرشاد، فهى إذا إفاضة منه سبحانه و تعالى ليتم النقص بها عند الإنسان، و ترتفع بها الحاجة، و لا يتم ذلك إلا بنور

---

(۱) نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج ۲) ص ۹۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۶۹

القرآن، فإنه السبيل الوحيد للنجاة فى الدنيا و الآخرة، لأنه بنور القلوب بنور الأيمان و اليقين و العلم، بعد ما يرفع عنها غشاوة الجهل و الشك و العمى و الريب، فيتضح له طريق الهدى من الضلالة،

يقول مولانا أمير المؤمنين (ع) عن القرآن «إنه هدى من الضلالة و تبيان من العمى و استقالة من العثرة و نور من الظلمة و ضياء من الأحداث و عصمة من الهلكة و رشد من الغواية و بيان من الفتن و بلاغ الدنيا إلى الآخرة و فيه كمال دينكم». «۱»

---

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱۹۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۰

القلب .. الروح .. العقل:

هذه الثلاثية تعبر فى حقيقتها عن الجانب المعنوى، و هذا يعنى أن المقياس فى شخصية الإنسان هو الجانب المعنوى، الذى يحدد أبعادها و ليس الجانب المادى. فبقوة نفسيته و مدى صلابتها و تحديها و مقاومتها تصبح شخصيته قادرة على تجاوز السلبيات و تصحيح الأخطاء.

فالقلب الذى يشكل مصدر الحياة، و هو مركزها، حيث تبدأ المشكلة منه و تنتهى إليه. حينما يضيق صدر الإنسان الذى يحوى هذا العضو اللطيف فتكون حينها الموعظة هى الحل لهذا الإنسان؛ أ لم يقل ربنا سبحانه و تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِي الصُّدُورِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. «۱»

و عند انشراح الصدر تنتهى المشكلة، فيتفتح القلب بالموعظة و نور الأيمان، و لذا وجه اللّه عز و جل خطابه إلى النبى (ص) بقوله: أَ لَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَ وَضَعْنا عَنْكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ. «۲»

فقد شرح اللّه قلب النبى بالأيمان حتى يتسع لمواجهة المشاكل و الصعاب، و يستطيع أن يواجه أكبر التحديات. فحينما يكون القلب طاهرا نقيا. بعيدا عن وساوس الشيطان. خاليا من رواسب و مخلفات الشك، دون أن تعشعش فيه الأحقاد و الضغائن و الحسد و الظنون، و ليس فيه مكانا للخداع الذاتى و التبرير، حينها يكون هذا القلب قد انفتح على القرآن و انشرح بالأيمان.

و بهذه الروح الشفافية اللطيفة التى هى من روح اللّه

---

(۱) سورة يونس آية ۵۷

(۲) سورة الانشراح آية (۱- ۳)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۱

فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ. «۱»

و قبل أن تكون فى الأبدان، كانت فى ملكوته الأعلى فى أرفع محل، فشرّف اللّه الأبدان بها، و تشرّف الإنسان بهذه الروح الملكوتية، فحطت بالبدن بأمر القدرة الربانية فكمل الإنسان بها، فهى تمثل الجانب الإيجابى فى حياته، فيكون العلم و العقل و الحكمة و الإيمان

و اليقين و الطمأنينة منها، و البدن بدون الروح لا قيمة له فانه يحيا بها، و الذى يحيى هذه الروح و يجعلها حية فى هذا البدن، ما دامت على اتصال دائم بالرب عبر كتابه العزيز و تعاليم قرآنه المجيد، كما أن القرآن لا يعمل على صياغة و بناء الإنسان الخالى من الروح فلا يكون شفاء له بدونها.

و العقل يتحرك فى الداخل، حينما تتوقف نوازع الشر فى النفس و عقدها و ضغوط الشهوة ليخترق حجب الجهل و الغرور و الخرافة و الضلال بإزالتها عبر القرآن.

فبين الإنسان و معرفة الحقائق مجموعة حواجز، تكون حائلا لتقف أمام تفكير الإنسان، و تعطل هذه الطاقة، فيأتى دور القرآن فى إثارة العقل، و هذا الضمير، لكى يتخلص من هذه الحجب و الحواجز.

و القرآن فى هذا المجال قد أشار إلى إنسانية الإنسان حينما أودع هذه النعمة الكبيرة ألا و هى نعمة العقل.

عن هشام بن الحكم قال: قال إلى أبو الحسن موسى بن جعفر (ع) «يا هشام إن اللّه بشّر أهل العقل و الفهم فى كتابه فقال: فَبَشِّرْ عِبادِ. الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولئِكَ الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ

---

(۱) سورة الحجر آية ۲۹ القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۲

وَ أُولئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبابِ «۱»» «۲»

بشرهم رب العزة لأنه هداهم إلى الشرائع المفصلة، لتنمية المواهب الخيرة عن طريق استخدام عقولهم فى إتباع الأحسن بعد تطهير النفس، برفع تلك الحجب و الحواجز، إذ يعالج القرآن تفكير الإنسان لكى لا يقع فى الأخطاء المنهجية لفهم الحقائق حينما يقدم له المنهج الصحيح.

---

(۱) سورة الزمر آية (۱۷- ۱۸)

(۲) الصياغة الجديدة ص ۳۰۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۳

القرآن و الأبدان:

هناك نظرة سائدة لدى المجتمعات الإسلامية فى الاستشفاء بالقرآن الكريم، و بآياته من الأمراض و الأسقام التى تصيب الإنسان فى الحياة.

صحيح أن للكتب السماوية باعتبارها صادرة من اللّه عن طريق الوحى للأنبياء، لمسات روحية تختلف فى محتواها و مضمونها عن أى كتاب آخر.

فقراءة القرآن وحدها تضفى على الإنسان حالة الهدوء و الاطمئنان لأنها قراءة كتاب الرب إلى العبد. ألا- ترتاح النفس المخلوقة الضعيفة بتوجيهات الخالق الرحيم بعباده، الرءوف عليهم!.

و لكن من الصحيح أيضا أن لا- يتحول القرآن إلى مجرد آيات تتلى على المرضى للاستشفاء بها، و هذا ما يفقد القرآن دوره الحقيقى، و يعطله عن العطاء المتكامل الفياض بالدروس و العبر. فللقرآن أفق واسع و أبعاد كبيرة و أهداف سامية، فهو الذى صنع تاريخ الأمة الإسلامية، و ضم شعوبها تحت راية التوحيد، و كرم الإنسان و حمّله مسئولية خلافة الأرض. فإذا كان القرآن كذلك فهل نحصر دوره فى اللجوء إليه حين المرض فقط؟ و إذا كان الجواب لا- فكيف نوفق بين الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت (ع) بالاستشفاء ببعض آيات القرآن و بين عدم حصر القرآن فى هذه الفكرة إعطاءه دور أكبر من ذلك؟! إن القرآن يقدم مجموعة من

النصائح و القوانين و الإرشادات للحفاظ على البدن و النفس معا.

«فالقرآن يؤكد على ضرورة النظافة و الطهارة و الوقاية من الأمراض، و يقدم للإنسان البرامج الصحية التى يصح بها البدن، و يكون الشفاء فيها

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۴

للجسد، و هذا ما توحيه كلمة الطهارة التى تكررت فى القرآن بصيغ مختلفة، بمعنى النظافة و النزاهة، يقول صاحب الميزان: أن النظافة هى الطهارة العائدة إلى الشىء بعد قذارة سابقة و يختص استعمالها بالمحسوسات» «۱» فظاهر الحياة مبنىّ على أساس التعامل و التصرف المادى، فكما يجب تطهير الروح و النفس مما يدنسها، و كما للروح لباس- و هو لباس التقوى- فللجسم ثياب يجب تطهيرها، تنزيها للظاهر. و تطهير الثياب يعنى رفع القذارة عنها بمراعاة القواعد الصحية العامة، كى لا تتعرض للأدناس، و هى من المظاهر التى تدل على نظافة المسلم أمام غيره، و لذا أمر سبحانه و تعالى نبيه الكريم حيث خاطبه بقوله وَ ثِيابَكَ فَطَهِّرْ «۲» أى و ثيابك فأغسلها عن النجاسة بالماء لأن المشركين لا يتطهرون.

عن ابن زيد و ابن سيرين «۳» و روى أبو بصير عن أبى عبد اللّه (ع) قال أمير المؤمنين (ع): «غسل الثياب يذهب الهم و الحزن و هو طهور للصلاة و تشمير الثياب طهور لها و قد قال اللّه سبحانه و تعالى و ثيابك فطهر أى فشمر» «۴»

فلا تتعرض للأدناس فيكون اللباس دائما نظيفا لا يحمل قذارة. فالقرآن شفاء للبدن إذ يزيل بتعاليمه الحقة و برامجه السليمة و مواعظه الشافية كل ما يسبب المرض و العاهة.

فعلى الإنسان أن يتعلم ما يقوى البنية الجسمانية، و يجعلها بعيدة عن الموانع المضادة للسعادة. كذلك يؤكد القرآن على مجموعة مفاهيم ضرورية

---

(۱) الميزان (ج ۲) ۲۰۹

(۲) سورة المدثر آية ۴

(۳) مجمع البيان (ج ۱۰) ص ۵۸۰

(۴) مجمع البيان (ج ۱۰) ص ۵۸۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۵

تساعد على رفع الاضطراب، و الخوف من المستقبل، و القلق النفسى التى تسبب له أمراضا عضوية نتيجة وجودها فحثه على النشاط و العمل، و رفع الكسل و التوانى. و دعاه إلى تنظيم حياته الاقتصادية بتوفير وسائل العيش.

و الجوانب الصحية ليجنبه الأمراض النفسية و البدنية. كما و دعاه إلى منهج الحياة الاجتماعية وفق النظم الإسلامية، حينما يبعده عن حالة الفراغ، فلا يدعه يعيش حالة التوتر فى حاضره حتى ينعم بمستقبله.

كما و وضع له برامج صحية، بينها لنا أئمة أهل البيت من خلال فهمهم لآيات كتاب اللّه فى طريقة المأكل و المشرب و الملبس و أعداد الطعام و تجنب الأكل المضر. كل ذلك قد ذكر مفصلا فى كتب المستحبات. فإذا فهمنا أن القرآن شفاء للبدن بهذه الكيفية، يمكن أن نقول بعد ذلك. عند ما يصاب أحدنا بأى مرض من الأمراض فيقرأ على المرض آية من سور الذكر الحكيم فيشفى، أو يتداوى بالقرآن، فإننا حينها قد فهمنا حيوية القرآن، فبمجرد النية الصادقة المخلصة فى قراءة آية على المرض يشفى الإنسان من مرضه، و يمن اللّه عليه بالعافية.

قال أبو عبد اللّه (ع): «ما اشتكى أحد من المؤمنين شكاية قط و قال بإخلاص نية و مسح موضع العلة و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلا خسارا إلا عوفى من تلك العلة أية علة كان». «۱»

و عن زرارة بن أعين قال: «سألت أبى جعفر عن المريض هل يعلق عليه تعويذ أو شىء من القرآن. قال: نعم لا بأس به، أن قوارع القرآن تنفع فاستعملوها». «۲»

و عن الإمام على بن محمد عن آبائه (ع) قال الصادق (ع): «من نالته علة

---

(۱) طب الأئمة ص ۲۸

(۲) نفس المصدر ص ۶۲ القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۶

فليقرأ فى جيبه الحمد سبع مرات فأن ذهبت العلة و إلا فليقرأها سبعين مرة و أنا الضامن له العافية» «۱»

إذا القرآن شفاء للقلب و الروح و العقل و البدن، ففيه علاج المشاكل التى يواجهها الإنسان فردا أو مجتمعا قبل أن تقع و بعد وقوعها، لأن اللّه أعرف بطبائع الناس و أمزجتهم، فهو أعرف أيضا بما يحتاجونه فى حياتهم فهو ليس نظرية مؤقتة استنفذت أغراضها، كما يدّعى من ليس له علم بكتاب اللّه عز و جل.

---

(۱) ثواب الأعمال ص ۵۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۷

۶ للقرآن أهداف

اشارة

* أهداف سامية* أولا: التغيير الاجتماعى* الوصول إلى الرحمة

القرآن نهج و حضارة، ص: ۷۹

أهداف سامية:

لمعرفة أهداف القرآن الكريم أهمية قصوى، تساهم فى فهم هذا المنهج الربانى الفريد، و تقودنا إلى معرفة الظروف التى نزل فيها، فأن هذه المعرفة تحوطها مجموعة قضايا، يتأثر بها هذا الفهم، لمعرفة الهدف من نزوله إلى البشرية.

و لكى يبقى القرآن حيا فى النفوس، و يتفاعل معه المسلم دائما، فعليه تشخيص هذه الأهداف حتى يبقى الاهتمام به من خلالها، و من خلال ما احتواه من حقائق علمية و تاريخية و اجتماعية تدعم هذه الأهداف.

عن ابن عباس عن النبى (ص) أنه قال: «أعربوا القرآن و التمسوا غرائبه و عن أبى عبد الرحمن السلمى قال حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول اللّه (ص) عشر آيات، فلا يأخذون فى العشر الأخرى حتى يعلموا ما فى هذه من العلم و العمل». «۱»

و لن نتعرف على أهداف كتاب اللّه عز و جل ما لم نقرأه قراءة عميقة حتى نستكشف مواقع إشاراته و إرشاداته، و نعرف الحق من الباطل، فنقيم على هذه المعرفة فرائض اللّه و أحكامه.

فلو تساءلنا مع أنفسنا لنحدد أهداف القرآن ما هى؟ فنقول: لما ذا أنزل اللّه عز و جل هذا الكتاب؟ كما أنه لما ذا بعث اللّه الأنبياء قبل نبينا؟ و ما الغرض من بعثتهم و من نبينا محمد (ص)؟

و لعل أوضح جواب هو جواب القرآن على هذه الأسئلة حين يقول ربنا

(۱) تفسير القرطبى (ج ۱) ص ۲۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۰

سبحانه و تعالى فى محكم كتابه وَ ما نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ «۱» و يقول أيضا: فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ. «۲» و يقول سبحانه أيضا: رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَ مُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ. «۳» القرآن نهج و حضارة ۸۰ أهداف سامية: ..... ص : ۷۹

ذه الآيات و أمثالها كثير فى القرآن بصيغ مختلفة تحدد الهدف الرئيسى من بعثة الأنبياء الذى لا تنفك عنه رسالات السماء، كما هو القرآن الكريم، يقول ربنا سبحانه و تعالى: إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً. «۴»

و بما أن الإنسان خلق ضعيفا وَ خُلِقَ الْإِنْسانُ ضَعِيفاً «۵» و جاهلا- لا يعلم شيئا من الحياة وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً. «۶»

فبسبب ضعفه و جهله قد تتجاذبه تيارات الحياة المتضاربة، فيصطدم بها، فيقع فى الضلالة و الهوى، فيأتيه نداء السماء عبر القرآن، لينقذه من الجهل و الخرافة، و يهدى من أراد الهداية من البشر، و سعى لها بإرادته، و هذا ما يتميز به كتاب اللّه عز و جل.

فما هى أهداف القرآن؟

أولا: التغيير الاجتماعى:

اشارة

(۱) سورة الأنعام آية ۴۸

(۲) سورة البقرة آية ۲۱۳

(۳) سورة النساء آية ۱۶۵

(۴) سورة الإسراء آية ۹

(۵) سورة النساء آية ۲۸

(۶) سورة النحل آية ۷۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۱

و لعل ما يقابل هذه الكلمة فى كتاب اللّه عز و جل كلمة الهداية التى تحمل فى محتواها التغير الأشمل، الذى يحمل أبعادا كبيرة ساهمت بشكل أو بآخر فى تحقيق هذا الهدف القرآنى. و قد أشار القرآن إلى عملية التغيير الشاملة فى قوله سبحانه و تعالى: الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ «۱» و فى آية أخرى يقول عز و جل:

قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ. «۲»

و عن أمير المؤمنين (ع): «اعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذى لا يغش. و الهادى الذى لا يضل. و المحدث الذى لا يكذب و ما جالس هذا القرآن أحد إلا قام عنه بزيادة أو نقصان زيادة فى الهدى و نقصان فى عمى، و أعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من

فاقة». «۳»

و التغيير الشامل نعنى به المعالجة الجذرية التى تتحدث عنها هذه الآيات لا المعالجة السطحية. و لذا نلاحظ أن القرآن قد جعل التنافر بين الظلمة و النور حيث لا يلتقيان، و جعل النور يتميز بالشمولية التى تتمثل فى البرنامج المتكامل، و حينها يتميز الهدف القرآنى بهذه الميزة الأساسية التى تتناول كل أبعاد الحياة ضمن العملية التغيرية، و لعل ما كان يميز رسالات الأنبياء أيضا هو هذا البعد الشمولى ضمن هذا الهدف.

و رسالة السماء الخاتمة- القرآن الكريم- جسّدت المنهج الصحيح للتغيير برسم الطريق السليم الذى يهتدى الإنسان من خلاله، و إقامة الحجة عليه، بما طرحته من قضايا تحمّله المسئولية تجاه نفسه و تجاه مجتمعه

---

(۱) سورة إبراهيم آية ۱

(۲) سورة المائدة آية (۱۵- ۱۶)

(۳) نهج البلاغة شرح محمد عبده (ج ۲) ص ۹۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۲

مَنِ اهْتَدى فَإِنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَ مَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْها «۱» إِنَّا هَدَيْناهُ السَّبِيلَ إِمَّا شاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً. «۲»

و أراد منه القرآن أن يسعى لتحقيق كل طموحاته و آماله ضمن عملية التغيير و لكن فى مرحلتين:

الأولى: أزمة المعرفة:

كلما توصل الإنسان إلى علم فى هذه الحياة اكتشف أنه لم يصل بعد إلى حقائق هذا الكون المترامى الأطراف، و أنه لا يزال فى علمه يجهل كثيرا من الأمور، فيبقى ذلك أى ما يجهله بالنسبة إليه مشكلة كبيرة فى هذا الكون.

و ليست حيرة العلماء اليوم فى محاولة معرفة أسرار الكون إلا شاهد واضح على ما نقول.

فالإنسان فى الحياة تدور فى ذهنه مجموعة من التساؤلات الحائرة التى تثار بين الحين و الآخر، فلا يجد جوابا شافيا لهذه التساؤلات حول الكون و الحياة و المبدأ و المصدر، و الى أين ينتهى الإنسان و هل هناك بعث بعد الموت أم لا، و حتى لا يتيه الإنسان يحتاج إلى إجابة على هذه الأسئلة.

أ ليست البشرية لا- تزال تشغلها فكرة العدم، و كانت تتصور أن الموت هو النهاية الحتمية للإنسان. فكانت الحيرة تأخذ بها، لكى تتخلص من هذه الفكرة، فأخذت تحتال بوسيلة أو أخرى، لتبقى على حياة الميت بتحنيط الجثث أو بتزويد قبورهم بكل ما تعلقوا به فى الحياة من متاع.

---

(۱) سورة الإسراء آية ۱۵

(۲) سورة الإنسان آية ۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۳

فمن الذى أزال هذه الحيرة و الشك، و أراح الضمير و العقل و منح النفس الطمأنينة بأن هناك أملا بعد هذه الحياة الدنيا، و أن الإنسان يبعث من جديد.

لذلك تتابعت رسالات السماء لتؤكد وجود حياة أخرى، حتى جاء القرآن الكريم ليكمل الإجابة على هذه الأسئلة الحائرة.

و من ثم حرص القرآن لكى يضل حيا فى النفوس إلى يوم يبعثون، ما دامت البشرية تلتمس منه الجواب، و ليرفع الحيرة، و ما يشغل

بال الإنسان فى أمر الحياة و ما يحوطها، فقد رسم لها قواعد عامة يفهم من خلالها الإجابة على كل أسئلته. و مثال على ذلك ما يورده القرآن فى قاعدة التحدى المبرهن عليه فى سؤال أثاره الملحدون حول خلق اللّه. فلم يسكت القرآن فى الجواب فجاء بصيغة الإنكار حيث قال ربنا سبحانه أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ. «۱» فكان الجواب من اللّه عز و جل ببرهانه المفحم فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ «۲» وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ. «۳»

و لقد مضى على البشرية منذ أن ضرب لهم اللّه هذا المثل فى كتابه أكثر من أربعة عشر قرنا، ارتاد فيها الإنسان من مجهول الآفاق إلى ما وصل إليه، و تابع نضاله من أجل كشف أسرار الوجود و أسرار الكون و اقتحم الفضاء.

و لا تزال البشرية و منذ آلاف السنين تواصل سيرها لحل أزمة المعرفة عندها، و ستبقى كذلك ما لم تتخذ القرآن منهجا لها. فهى و ما تملك من علم و معرفة محدودة بالنسبة إلى علم اللّه المطلق و معرفته المطلقة التى جاء بها البيان

---

(۱) سورة الطور آية ۳۵

(۲) سورة الحج آية ۷۳

(۳) سورة الحج آية ۷۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۴

الربانى. حيث قال سبحانه و تعالى: أَ لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ أَعْلَمُ ما تُبْدُونَ وَ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ. «۱»

و لو لم تكن هذه أزمة بالنسبة إلى الإنسان لاستطاع أن يرفع عنه كل بلاء و مكروه، و يجلب لنفسه كل خير و حسن، و أن يرفع عنها الضر، و يحصل على النفع، لكنه تبين أنه لا يملك لنفسه نفعا و لا ضرا إلا فى حدود الإمكانيات التى وفرها له اللّه. فهو لا يعلم الغيب بدليل أنه يجهل المستقبل، و ما يحصل إليه فى الغد مما يغيب عن نظره لذا قال ربنا سبحانه و تعالى: قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَ لا ضَرًّا إِلَّا ما شاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ ما مَسَّنِيَ السُّوءُ. «۲» و مشيئة اللّه هنا هى تلك الإمكانيات التى امتلكها الإنسان حسب علمه المحدود، و قدرته التى لا تتجاوز حدود طاقاته.

الثانية: مناهج الهداية لبلوغ التكامل.

من أين يتعلم الإنسان مناهج الهداية و الإرشاد و التربية؟! أ ليست من القرآن؟

إن القرآن يريد من البشر أن يصل إلى مرحلة التكامل عبر النمو و التطور و التحديث، لكى يكون متقدما دائما فى المجالات كافة، علمية كانت أو تقنية، اجتماعية أو اقتصادية. لأن القرآن إذا دخل فى حياة المسلم غيّرها و جعلها تعيش فى عالم آخر، لأنه اشتمل على مختلف المناهج و الأنظمة و القضايا التى تملك القدرة على التأثير الميدانى، فيتكامل هذا الإنسان عبر الهداية القرآنية و السير وفقها. يقول ربنا سبحانه و تعالى: الرَّحْمنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ،

---

(۱) سورة البقرة آية ۳۳

(۲) سورة الأعراف آية ۱۸۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۵

عَلَّمَهُ الْبَيانَ. «۱»

الهداية تمثلت كما أسلفنا فى إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور، و إيصاله إلى شاطئ الأمان عبر هذا البيان القرآنى.

و البيان الذى على الإنسان أن يتعلمه هو مناهج الهداية و الإرشاد التى يتميز بتعلمها عن سائر المخلوقات بموهبة العقل و الإرادة، التى

منحها اللّه له عبر نفحة من روحه، فميزه على الملائكة و الجن و المخلوقات الأخرى، التى ليست من جنس الإنسان و لذا تميز هذا المخلوق دون الكائنات الأخرى بالقدرة على تحصيل العلم و كسب المعارف.

و العلم ما هو إلا وسيلة من وسائل الهداية التى تأتى بالإرادة و العقل، فإذا أراد الإنسان على ضوء الحرية التى منحها إياه رب العباد، أن يتخذ هذا المنحى فى حياته طريقا فانه سيوصله إلى المناهج الحقة.

إن القرآن هو المصدر الوحيد الذى يحتوى على كل الأمور التى يحتاجها البشر، فما علينا إلا أن نبحث عن تلك المناهج التى توصلنا إلى التكامل.

و التغيير الجذرى الشامل المتمثل فى الهداية يحتاج إلى منهج مرشد، ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ. «۲» كتاب يرسم الطريق المستقيم الواضح، الذى يتناول كل مناحى الحياة و تفاصيلها ما كانَ حَدِيثاً يُفْتَرى وَ لكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَ تَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ «۳» و التكامل يبلغه الإنسان بالتغيير الجذرى الشامل عبر المنهج المتكامل الذى رسمه القرآن بصورة متقنة فى تحرير الإنسان لنفسه، أولا بإصلاحها، و البدء بمعالجة كل العقبات التى

---

(۱) سورة الرحمن آية (۱- ۴)

(۲) سورة البقرة آية ۲

(۳) سورة يوسف آية ۱۱۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۶

تقف أمام انطلاقتها فى الحياة، لتغيير الوضع المقابل لها فى المجتمع يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ ناراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ. «۱»

إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ. «۲»

ثانيا: الوصول إلى الرحمة:

اشارة

اقترنت كلمة الرحمة دائما بالهدى فى القرآن الكريم. فإذا كان الهدف الأول هو التغيير الاجتماعى الذى عبّرت عنه آيات القرآن بالهداية الإلهية، فإن الهدف الثانى تمثل فى الرحمة الإلهية، التى تعنى أن يعيش الإنسان مطمئنا و مرحوما فى الدنيا و الآخرة لا محروما، و قد وفّر اللّه سبحانه له فرصا رحمة منه به. و إن شاء استفاد منها و أن شاء ترك و ذلك هو الخسران المبين.

أما الآيات التى عبّرت عن الرحمة إلى جانب الهدى فكثير، كقوله تعالى:

هذا بَصائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. «۳»

فَقَدْ جاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ. «۴»

وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ. «۵»

وَ ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ. «۶»

يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ شِفاءٌ لِما فِى الصُّدُورِ وَ هُدىً

---

(۱) سورة التحريم آية ۶

(۲) سورة الأنعام آية ۱۵۷

(۳) سورة الأعراف آية ۲۰۳

(۴) سورة الأنعام آية ۱۵۷

(۵) سورة النحل آية ۸۹

(۶) سورة النحل آية ۶۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۷

وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ. «۱»

و قد تكررت هاتان العبارتان (هدى و رحمة) ثلاث عشر مرة فى كتاب اللّه غير الآيات الأخرى التى ذكرت الرحمة كثيرة جدا. و الهداية إذا كانت فى معرفة مناهج اللّه، فالرحمة هى فى تلك الفرصة التى يعيشها الإنسان حرا فى تفكيره، و فى رأيه، كى يهتدى إلى تلك المناهج. فإذا كانت الهداية هى فى المعرفة، فالرحمة هى فرصة المعرفة للإنسان، كى يؤمن بقناعة خاضعة لإرادته لا لضغوط المجتمع و بدون إكراه من أحد حيث لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِ. «۲»

و لذا وصفت الرحمة دائما بالنعمة، «۳» فإذا كان الهدى هدى اللّه من الضلالة و الضياع و الانحراف هدى إلى الشرائع، التى هى سبيل اللّه، و بيان الحق الدال إلى المعرفة و الرشد، و دلالة إلى ما يحتاج إليه البشر من أمور الدين و الدنيا، فالرحمة هى النعمة على سائر المكلفين، لما فى القرآن من الأمر و النهى و الوعد و الوعيد و الأحكام.

و حيث نعم اللّه لا تنتهى عند حد معين، فالرحمة التى يمن اللّه بها على الإنسان، كذلك فهى شاملة و دائمة، هكذا هى تتكرر عليه فى كل لحظة من حياته، كما تتكرر فى أول كل سورة من سور القرآن.

حيث نبدأ «ببسم اللّه الرحمن الرحيم» التى وسعت رحمته كل شىء.

«أن اللّه تعالى خلق مائة رحمة، فرحمة بين خلقه يتراحمون بها، و ادخر لأوليائه تسعة

---

(۱) سورة يونس آية ۵۷

(۲) سورة البقرة آية ۲۵۶

(۳) راجع تفسير مجمع البيان و تفسير الميزان فى تفسير آيات الرحمة القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۸

و تسعين. «۱»

و فى حديث آخر «قيل للإمام على بن الحسين عليهما السلام: أن الحسن البصرى قال: ليس العجب ممن هلك كيف هلك و إنما العجب ممن نجى كيف نجى! فقال (ع): أنا أقول: ليس العجب ممن نجى كيف نجى، و أما العجب ممن هلك كيف هلك مع سعة رحمة اللّه!». «۲»

و من النعم التى لا تنتهى هى تلك البرامج السماوية التى جاءت لهذا الإنسان رحمة به، فيكون القرآن نعمة بشرط أن يفهمه المسلم على أنه برنامج عمل، و منهاج حياة، كى يحصل من خلال تطبيقه له على السعادة و الرحمة الإلهية.

فالحياة المطمئنة الهادئة المتوفرة فيها حاجات الجسد و الروح و الفرد و المجتمع هى الرحمة بعينها هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ. «۳»

القرآن رحمة كما تبين من خلال آياته، و الرسول المبعوث به رحمة أيضا، كما نص القرآن فى قوله تعالى: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ «۴» و أهل البيت رحمة لنا بنص الرسول (ص) عليهم، فالقرآن و الرسول و أهل بيته يشتركون فى الدلالة على النعم، و هم الوسيلة، و الطريق للهداية إلى اللّه. قال سبحانه و تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ. «۵» فهم وسائل للإنسان

للوصول إلى تلك الغايات النبيلة، و الأهداف السامية فى الحياة و الى نعمها المادية و المعنوية، و لأن اللّه أنعم علينا بفرصة للهداية إلى سبله، فنطلب

---

(۱) كنز العمال (۶۸- ۶۹)

(۲) بحار الأنوار (ج ۷۸) ص ۱۵۳

(۳) سورة الجاثية آية ۲۰

(۴) سورة الأنبياء آية ۱۰۷

(۵) سورة المائدة آية ۳۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۸۹

منه بعد هذه الهداية أن يتممها و يبقيها برحمة منه رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَ هَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ. «۱» فالرحمة هبة من اللّه إلى البشر، و هى إحدى أهداف القرآن التى يجب على الإنسان أن يتعرف عليها.

فعند ما يكون المرء محتاجا إلى هذه المعرفة، فهو يستحق أن تصل له الرحمة الإلهية حينما يطلبها من اللّه عز و جل، و ذلك يدل على مدى حاجة البشر إلى هذه الرحمة الإلهية، فيبعث إليه عبر الأنبياء و الرسل بالكتب إلى ما يتمم نقصه، و يرفع هذه الحاجة.

آثار الرحمة:

قد لا يتوصل الإنسان إلى هذا الهدف مباشرة، أى الرحمة الإلهية التى هو بحاجة إليها، كى يزداد معرفة بربه، و يأمل برحمته، و يسعى نحو تحقيق طموحاته فى الحياة من خلالها. فقد ينظر إلى آثارها فهى تدله، أ ليس الأثر يدل على المؤثر كما يقولون- كما قال سبحانه و تعالى: فَانْظُرْ إِلى آثارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها. «۲» إن لم تتوصل إلى حقيقة الرحمة التى تتجسد فى نعمة توفير الفرصة فى الحياة الدنيا للهداية بالموعظة القرآنية، و الحكمة الربانية، فأنظر إلى آثار تلك النعمة فى الحياة، و منها تتوصل إلى الحقيقة.

فالقرآن يضرب لنا مثلا- فى هذه الآية للتعرف على الرحمة من خلال آثارها فيقول: قد لا تنظر إلى الرحمة و هو المطر النازل من السحاب، الذى جاءت به الرياح، و كيفية نزول ذلك، و ما يترتب عليه، و لكن لتنظر إلى تلك الأرض الميتة التى دبّت فيها الحياة، بظهور النبات و الأشجار و الثمار، و هى

---

(۱) سورة آل عمران آية ۸

(۲) سورة الروم آية ۵۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۰

بعينها آثار حياة الأرض بعد موتها، فجعل سبحانه آثار الرحمة فى كيفية إحياء الأرض. فالإنسان قد لا ينظر إلى ذلك التدبير الإلهى فى هذا الكون، و إلى النظام المتناسق فيه و السنن، فلا يهتدى إليها مباشرة، و لكنه يلتمس الأثر فيمن اهتدى إلى الرحمة، و طبق برامج السماء و اهتدى إلى حقائق اليوم الآخر، فانه يرى ذلك الأثر فى الاطمئنان و السعادة و الرضى فى شخصيته، فيراها شخصية متميزة بما يتركه التزامها بالقرآن من لمسات خاصة، تجعل قلب هذا الإنسان منفتحا لأنوار معرفة اللّه.

إن القرآن له آثار يتركها على شخصية الفرد، فمن خلال تلك الممارسات الحميدة، و الأخلاقيات الرفيعة، و النفسية الطيبة، التى انعكست عليه، و تركت أثرا ملموسا و حسنا، تلك هى آثار الرحمة التى حصل عليها هذا الإنسان. و لا ننسى أن للجانب الغيبى اثر

يتركه حينما تتوطد العلاقة مع اللّه عز و جل، و يكون القلب قد تشبع بنور القرآن و استمد روح الأيمان من رحمة اللّه له، فإن ذلك يضفى السكينة عليه فنرى روحه متعلقة باللّه عز و جل.

يقول أمير المؤمنين (ع): «عظم الخالق فى أنفسهم فصغر ما سواه فى أعينهم» «۱»

و هذه هى اللمسات الروحية التى تتركها قراءة القرآن، و النظر فيه، أو الاقتراب منه.

---

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱۹۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۱

۷ القرآن له أبعاد

اشارة

* الاعجاز .. وجه آخر* البعد الثبوتى* البعد الزمنى* البعد الكمالى* البعد العالمى* البعد المنهجى

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۳

الإعجاز .. وجه آخر:

لعل فصاحة القرآن و بلاغته ليست الدلالة الوحيدة على عظمته و إعجازه، بل للقرآن عظمة أخرى، تجلت فى تحديه بما جاء به من قيم خالدة، لم يستطع العرب أن يقفوا أمامها، كما وقفوا أمام فصاحة القرآن و بلاغته، لأن هذه القيم كانت ثورة على الأفكار الجاهلية، و تصحيحا لمسار البشرية جمعاء. فلم يكن هذا الكتاب مقتصرا على نوع واحد من التحدى، كما يصوره أكثر من يكتب عن القرآن، و هو التحدى فى جانب البلاغة و الفصاحة، و كأنه لا يحتوى غير ذلك من الأعجاز، صحيح أن ذلك هو أحد أنواع التحدى و الأعجاز فى كتاب اللّه عز و جل. و لكن هناك جوانب أخرى، و مؤشرات كثيرة تدلل على عظمة و إعجاز القرآن فى مواضيع مختلفة، علينا أن لا نهمل تلك الجوانب و هى التى تتمثل فى أبعاد هذا الكتاب، فما هى أبعاده؟

أولا: البعد الثبوتى

اشارة

ليس المقصود بهذا البعد إثبات القرآن من الناحية السندية أو الانتسابية، و الى أى مدى يصح نسبة هذا الكتاب إلى اللّه عز و جل، إن القرآن غنى عن ذلك لأنه كتاب فريد فلم ترد عليه شبهة، و لم تناله يد التحريف من بين الكتب السماوية إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ «۱» و نحن لسنا بصدد إثبات صدوره، فهو ثابت بالتواتر من جيل إلى جيل عند المسلمين، و لعل بيان معالمه التى أحدها هو هذا البعد يكفى لإثبات صدوره من اللّه عز و جل خالق الكون.

---

(۱) سورة الحجر آية ۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۴

فهذا البعد فى ثبوت القرآن يكمن فى عدم تناقض القرآن فى ثلاثة أوجه و هى:

۱) لا تناقض مع نفسه.

۲) لا تناقض مع العقل.

۳) لا تناقض مع الإنسان.

الوجه الأول

قد تعرض القرآن الكريم لمختلف الشئون فتوسع فيها بشكل كامل، و قد أعطى كل شأن حقه، فبحث فى الإلهيات، و فى نبوة الأنبياء، و بحث فى العقائد السابقة، و وضع الأصول لكل التعاليم و الأحكام التى يحتاجها البشر من نظم اجتماعية، و قواعد أخلاقية، كما أنه تعرض للفلك و التاريخ و قوانين السلم و الحرب، فلم يترك مجالا من المجالات إلا و تطرق إليه على أحسن ما يكون.

يقول الإمام الصادق (ع): «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا و له اصل فى كتاب اللّه عز و جل و لكن لا تبلغه عقول الرجال». «۱»

مع هذه الموضوعات المختلفة فى القرآن لم نجد فيه تناقض مع بعضه البعض و لا أدنى اختلاف، و ربما قد يستعرض القرآن الحادثة مرة و مرتين، و القصة تتكرر مرات عديدة، و فى كل مرة تجد لها مزية خاصة دون أن تجد أى تهافت أو تدافع.

أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ، وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً «۲».

---

(۱) الكافى (ج ۱) ص ۶۰

(۲) سورة النساء آية ۸۲

فعدم الاختلاف و الثبات هو الطابع الذى يتصف به القرآن، و هو ظاهرة من الظواهر القرآنية فى إثبات القيمومة للقرآن حينما لا يكون فيه عوجا، فيكون هذا الكتاب كاملا فى نفسه مكمّلا لغيره و قيّما عليه. قال سبحانه و تعالى: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً، قَيِّماً «۱».

فحتى يكون القرآن إماما و قائدا على الناس فلم يجعل له عوجا.

عن الإمام على (ع): «عليكم بالقرآن فاتخذوه إماما و قائدا» «۲».

فهو مستقيم فى كل جهاته، فى ألفاظه و معانيه، فصيح فى تعبيره، بليغ فى إيصال فكره، و مصيب فى هدايته، فى حججه و براهينه. فيقول سبحانه و تعالى: ذلِكَ الْكِتابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ «۳».

«يقول المسيحى الفاضل يا ركزان فى الكتب المقدسة ثلاثون ألف غلط و القسيس ميل و كريستياج ينهيانه إلى نيف و مائة ألف غلط و شولزان أغلاطها لا تحصى و فى دائرة المعارف البريطانية و الفرنسية أنها مليون غلط و كما يعترف بهذه الأغلاط و الاختلافات فى الكتب المقدسة كثيرون مثل اكهارن- كيسر- هيس- ديوت- و بزفوش» «۴».

كل ذلك بفعل ما عرض عليها من تحريف و تزييف على طول التاريخ فحاشا للّه أن تكون كتبه فيها تناقض، و ما ذكرناه لدلالة على عدم وجود التناقض فى القرآن بالمقارنة بينه و بين الكتب المقدسة الأخرى التى حرفت بفعل العابثين و أصحاب المصالح، فمن المستحيل عقلا و واقعا كون النقص

---

(۱) سورة الكهف آية (۱- ۲)

(۲) كنز العمال (ج ۹) ص ۴۰۲

(۳) سورة البقرة آية ۲

(۴) الفرقان فى تفسير القرآن (ج ۱) ص ۲۳۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۶

و التناقض منسوبا إلى اللّه عز و جل، فكما أن القرآن مطبوع بطابع الربانية، كذلك الكتب المقدسة الأخرى التى جاءت من اللّه عبر أنبيائه إلى البشر فهى نقية من كل رواسب و مخلفات التحريف.

أما غير الكتب المقدسة كالنظم البشرية فهى واضحة فى قصورها الذاتى لأنها متأثرة بالظروف و بمتغيرات الحياة، و قاصرة عن الإحاطة بجميع الأمور و الملابسات، فقد تعالج مشكلة فردية و تخلق مشكلة اجتماعية لا علاج لها، بينما نجد فى القرآن مع ما يحمل فى طياته من مناهج و رؤى و بصائر للإنسان فى الحياة فردا أو مجتمعا التنسيق و التلاؤم و الوئام التام دون أى اختلاف أو تناقض بين آياته، فإنها منسقة على نسق واحد لا اختلال فيه، و لا فيما يحمله من معانى فى مختلف الحقول.

الوجه الثانى:

العقل له أحكامه الخاصة و قواعده الأساسية التى تدله فى أكثر الأحيان على الصواب، و نقصد بالعقل هنا المدرك البعيد عن الهوى و الضلالة و الانحراف. و بما أن القرآن يعتبره سندا و حجة فينبغى على الإنسان أن يعمل بموجبه.

فإذا كان العقل نور يهدى الإنسان إلى الصواب، و آيات القرآن توجيهات اللّه إليه، و هو خالق العقل و واهبه. فهل يمكن أن يكون تناقضا بينهما؟! العقل نور يميز به الإنسان بين الرشد من الغى، و الخير من الشر، و الحق من الباطل و الممكن من المستحيل، جاء فى الحديث عن النبى (ص): «العقل عقال

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۷

من الجهل و النفس مثل أخبث الدواب فإن لم تعقل حارت» «۱».

و كتاب اللّه ليس مجرد توجيهات غير مترابطة أو غير متكاملة. فجميع الآيات مكية أو مدنية، محكمة أو متشابهة، ناسخة أو منسوخة، مجملة أو مبينة، لا اختلاف و لا تناقض بينها و بين العقل، لأنه يستحيل أن يكون اختلاف بين خالق العقل فى أحسن صوره و كماله و بين العقل.

و هل يعقل أن يدعو اللّه الإنسان للتعرف على وحدانيته، و على إثبات النبوة و إرسال الرسل عن طريق العقل ثم يكون مناقضا لها؟

و كيف ترد مجموعة من الآيات فى القرآن تشير إلى العقل ثم يكون متناقضا معها. أ ليس هذا هو عين التناقض؟ مع أن هذه الآيات أشارت إلى عدم وجود ذلك التناقض فى القرآن بينه و بين العقل، و قد أشار ربنا إلى ذلك فى عدة آيات، بقوله تعالى:

كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ «۲» وَ ما يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبابِ. «۳»

قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآياتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ «۴».

فَاتَّقُوا اللَّهَ يا أُولِي الْأَلْبابِ «۵».

لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ «۶».

وَ لِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ «۷».

---

(۱) البحار (ج ۱) ص ۱۱۷

(۲) سورة البقرة آية ۲۴۲

(۳) سورة البقرة آية ۲۶۹

(۴) سورة آل عمران ۱۱۸

(۵) سورة المائدة آية ۱۰۰

(۶) سورة البقرة آیة ۱۶۴

(۷) سورة إبراهیم آیة ۵۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۸

إِنَّما یَتَذَکَّرُ أُولُوا الْأَلْبابِ «۱».

کَذلِکَ یُبَیِّنُ اللَّهُ لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ «۲».

قَدْ بَیَّنَّا لَکُمُ الْآیاتِ لَعَلَّکُمْ تَعْقِلُونَ «۳».

و کثیر من الآیات التی وردت بهذه الصیغة، کما وردت الکثیر من الأحادیث عن النبی (ص) و أهل بیته (ع) تشیر إلی العقل و أهمیته، و أنه الحجة الباطنة التی یحتج بها اللّه علی عباده یوم القیامة، و به یثاب المرء و یعاقب، و لا یتحقق ذلک الثواب و لا العقاب إلا لمن امتلک العقل.

ورد عن الإمام الباقر (ع): «لما خلق اللّه العقل استنطقه ثم قال له أقبل فاقبل ثم قال له أدبر فأدبر ثم قال و عزتی و جلالی ما خلقت خلقا أحسن منک و لا أطوع منک و لا أرفع منک و لا أشرف منک و لا أعز منک، إیاک آمر و إیاک أنهی و إیاک أثیب و إیاک أعاقب» «۴».

و الأحادیث کثیرة و حسبنا کتاب اللّه فی ذلک، فآیاته ناطقة علی أهمیة العقل و دوره فی بیان وحدانیته سبحانه و تعالی و اثبات نبوة نبیه. فهل یتناقض ذلک و أصول شرائعه و نظمه و قوانینه التی أرسلها للإنسان مع العقل! حاشا للّه ذلک.

الوجه الثالث:

یقدم القرآن الکریم صورة متکاملة للطبیعة البشریة و ما یلائمها، و ما لا یتفق معها، و لا یفصل بین أجزائها فیتحدث عنها باعتبارها أجزاء مترابطة.

---

(۱) سورة الرعد آیة ۱۹

(۲) سورة النور آیة ۶۱

(۳) سورة الحدید آیة ۱۷

(۴) أصول الکافی (ج ۱) ص ۲۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۹۹

فالإنسان کل متکامل، و ما هذه المکونات من الروح و العقل و النفس و الجسم تشکل طبیعته، و هی فطرته التی فطر علیها فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِی فَطَرَ النَّاسَ عَلَیْها لا تَبْدِیلَ لِخَلْقِ اللَّهِ «۱».

هذه الفطرة متی ما نمت نموا سلیما، و فی أجواء خالیه من الأمراض الاجتماعیة، و بعیدة عن الأهواء یصبح الإنسان بها سلیما. و علی ضوء هذه الفطرة السلیمة تصبح متطلبات هذا الإنسان وفق المکونات الأربعة (الروح- العقل- النفس- الجسم) متطابقة مع برامج القرآن الکریم.

و کما أن القرآن کتاب هدایة و إرشاد، یقتضی توجیه الإنسان إلی حقیقة یحتاج إلی معرفتها، و هی تذکیره بهوانه و ضعفه، فیلفته إلی خلقه من تراب، أو من طین، أو من نطفة ثم علقة، أو من ماء دافق یخرج من بین الصلب و الترائب کما فی قوله سبحانه و تعالی: فَلْیَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ، یَخْرُجُ مِنْ بَیْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ «۲» أَ لَمْ یَکُ نُطْفَةً مِنْ مَنِیٍّ یُمْنی، ثُمَّ کانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّی «۳».

أ كَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا «۴».

أ لیست هـذه هی حقیقهٔ الإنسان! أو هل زاد القرآن شیئا علی هذه الحقیقهٔ أو نقص! و هل هذه الحقیقهٔ تصب فی الجانب السلبی، أم معرفتها تشکل نقطهٔ قوهٔ فی شخصیهٔ الإنسان. نعم إنها تشکل نقطهٔ قوهٔ فی شخصیته.

فحینما یحرص النص القرآنی علی بیان هذه الحقیقهٔ، فانه یکبح جماح

---

(۱) سورهٔ الروم آیهٔ ۳۰

(۲) سورهٔ الطارق آیهٔ (۵- ۷)

(۳) سورهٔ القیامهٔ آیهٔ (۳۷- ۳۸)

(۴) سورهٔ الکهف آیهٔ ۳۷

القرآن نهج و حضارهٔ، ص: ۱۰۰

غروره، فلا یتجاوز قدره حتی لا یطغی و لا یستکبر، و یکون التعقل و التبصر هما المیزان بین الخیر و الشر، لکی یحافظ علی إنسانیته کإنسان دون أن یتناقض معها فجاءت أحکامه و قوانینه متفقهٔ و منسجمهٔ معه، تستوعب کل أبعاده الجسدیهٔ و العقلیهٔ و العاطفیهٔ و الروحیهٔ سواء الفردیهٔ منها أو الاجتماعیهٔ فی مختلف المجالات و الحقول.

یقول الإمام الشیرازی «یلزم أن یکون القانون- و یقصد به الإسلامی- مستوعبا بأن یعطی حوائج الإنسان الجسدیهٔ و العقلیهٔ و العاطفیهٔ سواء منها الحوائج الفردیهٔ أو الحوائج الاجتماعیهٔ فی مختلف أبعاد الإنسان. فلو لم یکن القانون کذلک حصل الاصطدام و التبعثر و الانفصام من ناحیهٔ و النقص و الفراغ من ناحیهٔ ثانیهٔ. فإن الإنسان مرکب له جسد، له حوائجه، و عقل له موازینه و خصوصیاته و مزایاه و عاطفهٔ لها شروطها و ملائماتها و منافرتها، فإذا لم یکن القانون بهذا النمو من الاستیعاب و الشمول یکون قانونا ناقصا و قانونا مصطدما من غیر فرق بین أن یکون القانون فی جهةٔ الوضع أو فی جهةٔ التطبیق، لأن القانون یلزم أن یراعی فیه أمران:

الأول: القانونیهٔ الثانی: التطبیق» «۱» هکذا هو حال القرآن الکریم بالنسبهٔ إلی توافقه مع الإنسان. فقوانین القرآن و أنظمته و الشرائع التی جاء بها ملبیهٔ لحاجات الجسد و الروح، و مستوعبهٔ لکل أبعاد حیاته.

---

(۱) الصیاغهٔ الجدیدهٔ ص ۳۴

القرآن نهج و حضارهٔ، ص: ۱۰۱

ثانیا: البعد الزمنی:

المعارف الحقهٔ و الحقائق الثابتهٔ و الأصول الأخلاقیهٔ و القوانین العملیهٔ المتفقهٔ مع فطرهٔ الإنسان، هی حقائق ثابتهٔ لا تتغیر مع مرور الزمن، و لا تتحدد بوقت معین. فالمنهج القرآنی الذی یمتاز بالوضوح، أحکامه ثابتهٔ لا تؤثر علیها الحرکهٔ التطوریهٔ بل هو یؤثر فیها، و یصحح مسارها.

«فی القرآن الکریم إشارات و لمحات معجزهٔ عن البعد الزمنی فی الکون تثیر الدهشهٔ و التساؤل، و لو تیسر جمعها و تنسیقها و تحلیلها عالم طبیعی أو ریاضی (مؤمن) و قارنها بنسبیهٔ (اینشتاین) التی أدخلت البعد الزمنی کبعد جدید ثالث فی دراسهٔ الکتلهٔ الکونیهٔ لرأی بأم عینه العجب العجاب، و لأدرک یقینا أن هذه الإحاطهٔ الریاضیهٔ الشاملهٔ بأبعاد الکون و عدم التقید بمقاییس الأرض و نسبیاتها المحدودهٔ سیما فی زمن نزول القرآن حیث علوم الطبیعهٔ و الریاضهٔ لا زالت تحبو بعد لم تتجاوز مرحلهٔ طفولتها، و هذه النظرهٔ الکلیهٔ التی تطل علی الکون و لا تندمج إنما هی جمیعا من لدن العلیم الخبیر الذی أحاط بکل شیء علما» «۱».

القرآن كتاب ابدى دائم مع مر العصور و الأزمان، لا- تطرأ عليه التغيرات، و لا- يتطرق إليه البطلان. يقول سبحانه و تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ، وَ ما هُوَ بِالْهَزْلِ «۲». و يتميز بالحق و الحق ثابت لا يتغير و لا يختص بزمن دون زمن يقول ربنا فى محكم كتابه الكريم وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ. «۳»

---

(۱) مع القرآن فى عالمه الرحب ص ۳۷

(۲) سورة الطارق آية (۱۳- ۱۴)

(۳) سورة الإسراء آية ۱۰۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۲

فهو مشروع دائم لهذا الإنسان ما دام موجودا على الأرض فالقرآن رسالة حق تعكس حقائق الحياة المشهودة و المغيبة المادية و المعنوية، و خط يمتد من الدنيا إلى الآخرة. و يتجاوز المصالح العاجلة إلى المنافع الآجلة.

فهذا البعد الزمنى يلعب دورا رئيسيا ليس فى خلود و بقاء الرسالة، و إنما فى صلاحية أحكامها و قوانينها لكل عصر، فكلما تقدم الزمن اكتشفنا إننا بحاجة إليها.

كلما تقدم الزمن و تقدم العلم و تقدم الإنسان ازدادت حاجته إلى القرآن أكثر فاكثر. فتعقد الحياة، و زيادة العلاقات الإنسانية نتيجة التقدم العلمى، لم يغير من القرآن شيئا، فهو مهيمن من غير فرق بين عصر العلم و التقدم أو عصر البداوة.

و كلما تباعد الزمن لا يشعر الجيل الحاضر بأن هناك انفصال أو انقطاع عن الجيل الماضى، إذا اعتمد القرآن همزة الوصل، لأن وجود القرآن بينهم يعنى أن هناك تواصلا زمنيا، فالجيل القادم يواصل نفس المسيرة التى بدأها الجيل الماضى بإبداع و تطوير، تاركا آثار و بصمات القرآن على ذلك الإبداع و التطوير كما أن ذلك يعنى أن هذا الجيل يختزل التجارب و يختصر المسافة، و يطوى الزمن بما حققه الجيل الماضى، حيث يستفيد منه دون أن يبقى عليه متحجرا دون تطويره.

و التواصل الزمنى بين الأجيال أى أن يكون القرآن كحلقة الوصل بين جيل و جيل آخر، و الامتداد للحضارة الإسلامية عبر الزمن، فلا يكون هناك مجالا للانقطاع بين الأجيال فتحدث الفجوة و الفراغ بينها، فيكون الضياع و الانحراف و التيه.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۳

قال ربنا سبحانه و تعالى: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً. «۱»

و الانقطاع و الفجوة التى خلفتها الأمة بابتعادها عن القرآن فترة زمنية أى عن مصدر ثقافتها فى الحياة فى هذا الكون لكفيلة بتشويش الرؤية، و عدم وضوحها حول المستقبل.

و هنا سؤل يراود الذهن لما ذا تأخر و تخلف المسلمون عن ركب الحضارة العالمى مع ما وصلوا إليه؟ فالحركة التى قادها النبى (ص) و دوره القيادى فى إعلاء شأن الأمة من حالة التردى إلى حالة السمو و الرفعة، جعلت منهم سادة العالم حينما ساروا على نهج تلك الحركة، و اتبعوا قيادة النبى، و التزموا بتعاليم القرآن. و لكن عند ما تخلت هذه الأمة عن أصالتها، تاركة مبادئها و قيمها وراء ظهرها بعد رحيل قائد الحركة، حدثت الانعطافة التاريخية التى أدت بالرجوع إلى مسافات زمنية إلى الوراء بدلا من اختصار الزمن إلى الأمام. فأدّت بها إلى النزول عن قمة الهرم التى وصل إليها النبى (ص)، و هكذا كانت انتكاسات و انتصارات تأرجح المسلمون عبر الزمن فيها. أما الانتصارات فهى عامل إيجابى للأجيال القادمة تؤدى به إلى الإبداع و التطوير، و أما الانتكاسات فهى عامل سلبى، و لكن يمكن للجيل القادم أن يقوم بدراسة خلفية تلك الانتكاسات، و عوامل الخطأ، و الدروس و العبر، و لم تكن تلك القصص التاريخية التى وردت فى القرآن، و التى تشكل ثلثه إلا- لاختصار المسافة الزمنية، و لتمكن الأجيال المتعاقبة من تفادى الأخطاء التى وقع فيها السابقون.

ثالثا: البعد الكمالى:

الإنسان و الأمة، الفرد و الدولة، الشريعة و المكلف، المنهج الأخلاقى

---

(۱) سورة طه آية ۱۲۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۴

و المجتمع، مفردات تناولها القرآن بدقة تامة و شمولية واسعة. و لأن القرآن يهدى إلى الحق و الى الصراط المستقيم فلا بد أن يكون قد احتوى كل شىء حتى لا- تلتبس الأمور على الإنسان فى الحياة، و يبقى فى حيرة من أمره، كى يسترشد و يهتدى إليه عبر طريق القرآن، فكانت تلك النظرة الواقعية و الشمولية للكون و الإنسان، قد بينها ربنا سبحانه و تعالى بقوله: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىْءٍ. «۱»

لأن نظرة المبادئ و القوانين الأرضية الموضوعة من قبل الإنسان نظرة أحادية. فهى تنظر من بعد واحد و زاوية واحدة، فهى لا تستطيع أن تحقق طموح الإنسان، لأنها لا تستطيع أن تستوعب حقائق الكون لضيق أفقها، و محدودية تفكيرها، فان العقل مهما كان فإنه متأثر بخصوصيات الزمان و المكان و التقليد، و مثل هذا العقل لا يستطيع أن يستوعب الحقائق.

كما أن هذه المبادئ تعطى رؤية غير مسئولة و غير متكاملة، بينما القرآن يعطى الرؤية المسئولة يحمّل الناس المسئولية عن واقعهم و مجتمعهم بعد أن أرشدهم، و هداهم إلى دينه، ففيه تفصيل لمناهج الحياة و البرامج التى توصل الإنسان إلى الحقائق. لان القرآن يفصل تلك الحقائق التى لا يراها الفرد واضحة.

عن أبى عبد اللّه (ع) «قال: أن اللّه تبارك و تعالى أنزل فى القرآن تبيان كل شىء حتى و اللّه ما ترك شيئا يحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبد يقول لو كان هذا أنزل فى القرآن إلا و قد أنزله اللّه فيه» «۲».

عن عمر بن قيس عن أبى جعفر (ع): «قال: سمعته يقول أن اللّه تبارك

---

(۱) سورة النحل آية ۸۹

(۲) الكافى (ج ۱) ص ۵۹ القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۵

و تعالى لم يدع شيئا تحتاج إليه الأمة إلا أنزله فى كتابه و بينه لرسوله (ص) و جعل لكل شىء حدا و جعل عليه دليلا يدل عليه و جعل على من تعدى ذلك الحد حدا» «۱».

فما جاء فى القرآن ليس ذا بعد واحد يتصل بالفرد دون المجتمع، أو الاقتصاد دون السياسة، أو الماديات دون المعنويات، أو الآن دون المستقبل، أو هذه الطبقة دون تلك، أو يهتم بالعواطف دون العقول، بل هو كتاب تحدث عن كل شىء، و فى كل الأبعاد بتكامل و تناسب و عدالة بين مختلف أبعاد الحياة البشرية، و هذا التفصيل و البيان الذى حمل كل أبعاد الحياة البشرية ربطه القرآن بالعقل و الفكر و العلم. فالعاقل و المفكر و العالم هو الذى يستطيع أن يقارن بين القرآن و أفكاره، أو أفكار البشر، فيرى الحقيقة الواضحة قد تجلت فى كتاب اللّه فيقول سبحانه:

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ. «۲»

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. «۳»

كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. «۴»

فالقرآن الحكيم اتصف بهذا البعد لأنه فلسفة كاملة للحياة، فلا بد أن يسيطر عليها بجميع أبعاده، لأن البشر بحاجة إلى تحقيق السعادة،

و هى الغاية التى يطمح إليها كل إنسان.

و السعادة التى يحققها القرآن ذات البعدين الروح و الجسد، فإنها تستند إلى الثبات لا إلى التغيير، لأن القرآن ثابت لا يتغير، و نابع من قوة أزلية لا تتغير،

---

(۱) الكافى (ج ۱) ص ۵۹

(۲) سورة الروم آية ۲۸

(۳) سورة الأعراف آية ۳۲

(۴) سورة يونس آية ۲۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۶

فهو القادر على إعطاء هذا الإنسان الحياة الكاملة فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا. «۱»

و قد ثبت فشل كل الفلسفات فى الحياة التى أرادت أن تحقق السعادة للإنسان لأنها لم تتميز بالثبات، و لم تكن تستند إلى قوة أزلية فانتهت، و بقى الإسلام متمثل فى القرآن لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. «۲»

رابعا: البعد العالمى:

لا ـ زال العالم يبحث عن خلاص مع ما توصل إليه من رقى، و تقدم فى جميع المجالات، و على كل الأصعدة فى ابتكار النظريات، و وضع القوانين، و التحليق فى فضاء هذا الكون، و كأنه يبعث ببالونات الهواء فى الجو.

لما ذا يبحث عن الخلاص؟

حضارة اليوم لم تستطع أن تخفف من آلام الإنسان، و لم تتمكن أن ترفع عنه الويلات التى تحل به، و تضع العلاج لمشاكله.

لم يعد بإمكان العقول الإلكترونية التى تعالج ملايين المعادلات الرياضية أن تحل مشاكل البشر التى هجمت عليه، و هى آخذة فى التفاقم، كالأزمات الاقتصادية و الأزمات السياسية.

لذا يكتب جاك أتالى مستشار الرئيس الفرنسى السابق فرنسوا ميتران كتابا تحت عنوان آفاق المستقبل، يتحدث فيه عما وصل إليه العالم، و الأزمات التى يمر بها، و تحول الصراع من صراع عسكرى إلى صراع اقتصادى، تتبادل

---

(۱) سورة فاطر آية ۴۳

(۲) سورة التوبة آية ۳۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۷

فيه القوى و المراكز الدول الكبرى، و الضحية هى الشعوب. و بعد بحث طويل يتطرق الكاتب فيه إلى مشاكل العالم، و يحددها بمشكلة البيئة و التلوث و السكان و المخلفات الضارة و تقلص الغابات، و بعد ذلك يطرح حلا لهذه المشاكل بعد أن يحدد دور الأمم المتحدة، و بأنه دور قد تقلص نتيجة الظروف السياسية المحيطة بها، و إنها لم تعد مستقلة. فيبين أن الحل هو وجود سلطة عالمية تجمع هذه الدول تكون ديمقراطية، و قادرة على إيجاد الحلول المناسبة. «۱»

إن العلم الحديث استطاع أن يحقق للإنسان ما لم يحلم به، لكنه لم يستطع أن يوصل الإنسان إلى حقيقته، و أن يعرفه بنفسه و بخالقه.

غاص فى أعماق الطبيعة درس كل التطورات الحاصلة فيها، سخرها لخدمته، لكنه لم يستطع أن يغوص فى أعماق الإنسان ليدرسه حتى يرفع عنه تلك الغشاوة التى تحجبه عن حل مشاكله.

يا ترى أين الخلاص؟ و ما هو المخرج؟

يتصور البعض أن الجاهلية الأولى لم تكن صاحبة علم، و لم تكن متقدمة فى الجوانب العلمية، كانت العرب مشهورة فى الفصاحة و البلاغة و علوم العربية، و ما يوازيها فى ذلك أحد، و فى الأشعار و وقائع العرب و تاريخهم، و مع ما يملك العربى من قيم العروبة كالوفاء بالعهد و الصدق و كرم الضيافة ... الخ.

إلا أن العرب لم يستطيعوا وضع الحلول المناسبة للحروب، التى كانت تدور بينهم مع بعضهم البعض، و معالجة مشكلة التمايز الطبقى و العنصرى.

لم تستطع أن توقف الانحلال الخلقى المنتشر بصورة تدعو إلى الرثاء ...

هكذا كان حال مجتمع الجاهلية الأولى، و كذلك الحال بالنسبة إلى عالم اليوم

---

(۱) يراجع كتاب آفاق المستقبل- دار العلم للملايين

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۸

المتحضر الذى يمثل الجاهلية الثانية، فهو لا زال يعانى من مشاكل عالمية متوارثة، مشكلة العنصرية، مشكلة القومية، المشكلة الإقليمية، مشكلة الطبقية، التمايز العرقى. أ ليست هذه المشاكل لم تجد لها حلول فى حضارة التقدم اليوم! فى مثل هذا الوضع المتأزم و النفق المظلم و الطريق الشائك، العالم بحاجة إلى رسالة عالمية منقذة تتحول إلى برامج عمل لتنقذ العالم كله، و يكون فيها نجاته من الدمار و الانحراف و السقوط، و ليس هناك إلا رسالة القرآن العالمية التى جاءت تحمل البشرى لكل البشرية، جيلا بعد جيل إلى يوم يبعثون. أ لم يقل ربنا سبحانه و تعالى: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَ رَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «۱».

و قال أيضا: وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً وَ كُنْتُمْ عَلى شَفا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ «۲».

و يقول أيضا: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّباتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ «۳».

نعم إنها رسالة العالمين، فهى لا تختص بقوم و لا بأرض و لا بمذهب و لا بزمن، فهى من رب العالمين، دعت الأديان التى سبقتها، أن تنضوى تحت راية واحدة، بعقيدة واحدة، و أنظمة و تشريعات صادرة من كتاب واحد و هو

---

(۱) سورة الأنفال آية ۲۶

(۲) سورة آل عمران آية ۱۰۳

(۳) سورة الأعراف آية ۱۵۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۰۹

القرآن، بفكرة التوحيد الأصيلة.

فالقرآن كتاب الناس، كل الناس، و هو لجميع الناس، لأنه جاء من رب الناس، و هذا دليل على أنه لم يخضع لحدود الزمان و المكان.

فحينما يكون الكتاب صادر من رب العالمين فهى نقطة قوة و عظمة فيه.

يقول ربنا سبحانه: لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. «۱»

و يقول أيضا: وَ لا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلًا ما تَذَكَّرُونَ، تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ. «۲»

و أيضا يقول ربنا أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ تَبارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ «۳».

و كما انه من رب العالمين خالقهم و موجدهم، فهو أيضا للعالمين أى لكل الناس لذا يقول سبحانه و تعالى: وَ ما هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ «۴».

و يقول أيضا سبحانه: فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ، إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ «۵».

وَ ما تَسْئَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ. «۶»

لذا نلاحظ أن هناك تكرار لكلمة الناس، البشر، بنى آدم، الإنسان. فقد تكررت كلمة البشر فى (۳۵) موضعا منها (۲۵) موضعا فى بشرية الرسل، و قد تكرر لفظ الناس (۲۴۰) مرة بدلالة واضحة على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية، و قد ورد لفظ الإنسان فى القرآن أيضا فى (۶۵) موضعا.

و كل ذلك يضعنا أمام حل مشكلة كبيرة، و هى التمايز على أساس

---

(۱) سورة الواقعة آية (۷۹- ۸۰)

(۲) سورة الحاقة آية (۴۲- ۴۳)

(۳) سورة الأعراف آية ۵۴

(۴) سورة القلم آية ۵۲

(۵) سورة التكوير آية (۲۶- ۲۷)

(۶) سورة يوسف آية ۱۰۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۰

العنصر أو القوم أو الإقليم أو الطبقية.

فالقرآن يضع مقياسا فى ذلك و هو العمل الصالح و التقوى، لأن مقياس الأفضلية قائم على هذا الأساس، و على التزام الفرد بالأحكام و التعاليم إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ «۱».

فهو رسالة مترامية الأبعاد تسع البشرية كلها، يقول ربنا سبحانه و تعالى:

تَبارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقانَ عَلى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعالَمِينَ نَذِيراً «۲».

و يمضى القرآن، فى سياقه للآيات و الحديث عن وضع الحلول لكل مشاكل العالم، لا للبيئة العربية و لا للمشاكل العربية فقط، و إنما يتجاوز ذلك، فهو يضع حلولا للبيئة الجاهلية الضيقة، و الموبوءة بتلك الدعايات التافهة، و يتسامى فوق تلك الحواجز التى وضعها أنصاف المثقفين، دعاة التحرر المنسلخين من أصالتهم، المنتمين إلى العروبة المزيفة، أو القومية السقيمة، أو المبادئ المنحرفة التى التفوا حولها. و هذا التجاوز يدل على أن القرآن ليس وليد تلك البيئة، و أن النبى ليس مجرد داعية و مصلح أفرزه ذلك المحيط، بل هو رسول رب العالمين بعثه اللّه إلى الناس جميعا.

يقول سبحانه و تعالى: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً. «۳»

فعالمية القرآن قائمة على أساس القيادة الموحدة المتمثلة فى النبى (ص)، و الكتاب الذى يحوى أنظمة و تشريعات، يشترك فيها البشر تحت سلطة عالمية قائمة، تجمع الناس تحت راية التوحيد و العدالة الاجتماعية القائمة على مبادئ الدين الحنيف.

---

(۱) سورة الحجرات آية ۱۳

(۲) سورة الفرقان آية ۱

(۳) سورة الأعراف آية ۱۵۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۱

خامسا: البعد المنهجي:

يتميز القرآن الكريم بمنهج خاص فريد فى العرض و المضمون و النزول و الأسلوب، فهو ليس كتابا عاديا، و لا بحثا كتبته يد باحث أراد أن يتوصل إلى حقيقة ما، و إنما هو كتاب يتمتع بمنهجية خاصة نابعة من تلك الأهداف السامية التى تجلت فيه، و المعالم الواضحة التى ارتفعت به إلى مستوى الكمال، فأصبح فى ذلك السمو و العظمة، بما يحوى من بصائر و حقائق و رؤى.

و الأمة اليوم هى أحوج من الأمس إلى رؤية واضحة، و منهج قويم يضىء لها معالم الطريق، و يوسع آفاق الطموح.

و فى هذه المرحلة الدقيقة الحرجة التى تمر فيها الأمة، بحاجة إلى نظره ثاقبة و شاملة فى كتابها القرآن الكريم، لتأخذ منه المنهج المتكامل، و الأمثل لتحقيق أهدافها و طموحاتها، بعد أن جربت كل المناهج، فتأخذ بالمنهج القرآنى الذى يعتمد الطريق المستقيم و القويم فى تحكيم الأهداف على أرض الواقع، لذا نلاحظ أن ربنا يبين فى كتابه، أن مواصفات هذا المنهج الربانى إنه قويم و مستقيم. فيقول سبحانه و تعالى: قُلْ إِنَّنِى هَدانِى رَبِّى إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً «۱» و قال أيضا وَ أَنِ اعْبُدُونِى هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ «۲» و يقول أيضا يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ وَ إِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ. «۳»

و قد تكررت لفظة مستقيم فى القرآن واصفة المنهج الربانى بهذه الصفة

---

(۱) سورة الأنعام آية ۱۶۱

(۲) سورة يس آية ۶۱

(۳) سورة الأحقاف آية ۳۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۲

واحد و ثلاثين مرة، و تكررت بلفظ (مستقيما) ست مرات، و من هنا جاء القرآن ليرسم المنهج المتكامل الشامل للإنسان، لأنه يمثل الجزء الأكبر فى هذا الكون، فهو يحرك فيه أسباب التقدم، و ينظف الفطرة التى تلوثت، و يعيدنا إلى رشدنا، و يثير فينا دفائن عقولنا.

المنهج يعنى الخطة المرسومة فى الحياة، القائمة على أسس علمية متينة، تنسجم مع نظام الكون، و تتفق مع فطرة الإنسان، و مع تطورات هذه الحياة، فهو الكفيل بتحديد علاقاته العامة فى هذا الكون ضمن دائرة هذا المنهج.

فعلاقة الإنسان مع ربه، و علاقته مع أخيه الإنسان فردا و مجتمعا، و علاقته مع الطبيعة و ما فيها من مخلوقات أخرى من شجر و جماد و أرض و سماء، كيف تكون هذه العلاقة، و ما هى نوعها، و كيف يحافظ بها على هذا الكون من التلوث و الانحراف و الدمار!؟

كل ذلك يحتاج إلى منهج ثابت شامل دائم عالمى حتى يحدد هذه العلاقة و يبينها لهذا الإنسان.

فالقرآن كتاب الحق الخالد، و كل ما فيه من ضوابط و أنظمة و قوانين تعبر عن هذا المنهج، و ما هى إلا سنن ثابتة لا تتغير، فحينما يحدثنا عنها هذا المنهج، لا يعنى أنها قواعد للظروف التى مرت بها البشرية فترة زمنية، و انتهى دور هذا المنهج بانتهاء تلك الظروف، فحينها نحتاج إلى منهج آخر.

القرآن حينما رسم هذا المنهج لم يكن إلا وفق القيم التى تحدث عنها، فأراد من خلاله (أى الخطة المرسومة) أن يلتزم الإنسان بتلك القيم، و أن تتجسد فى شخصه و مجتمعه و أمته.

و هذا المنهج القرآنى له معالم يأخذ الإنسان دوره منها.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۳

فما هی معالم المنهج القرآنی یا تری!؟

هذا ما سنتحدث عنه فی الفصل القادم

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۵

۸ معالم المنهجیة القرآنیة

اشارة

* تخطیط* مميزات المنهج

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۷

تخطیط:

اشارة

کانت تلک أهداف القرآن و أبعاده التی تدل علی أن هذا الکتاب رسالة متکاملة جاءت لإنقاذ الإنسان، وفق خطة معینة رسمتها ید السماء، رب العالمین، خالق البشریة.

فیا تری هل لهذه الخطة التی تشکل المنهج القرآنی مميزات یتمیز بها حتی تجعله فوق المناهج البشریة، و ما فیها من علم؟

أو لیست الخطة أو المنهج ولید الساعة أو الظروف لمواجهة ما یحتمل علی ضوء المستجدات فی الحیاة. أو لیس هو رسم لما یحتاجه الإنسان من خطط و برامج عمل فی حیاته! کل ذلک صحیح فی غیر القرآن لسببین:

أولا:

إنّ هذا الکتاب- القرآن الکریم- وسیلة و أداة لنقل التجربة البشریة، التی مرّت فیها طوال الفترة الزمنیة، التی مضت قبیل رسالة النبی (ص).

البشریة التی یعبّر عنها القرآن فی بعض الأحیان بالأمة لها حیاة و حرکة و اجل و موت، أی أنها تکون حیة ثم تموت، فکما أن الحیاة تخضع لقانون و منهج و تشریع، کذلک الموت فإنه یخضع لأجل و قانون و تشریع.

هکذا هی الأمم فلهذا التاریخ سنن لا یمکن تجاوزها، و ضوابط تتحکم فیه تکون خلف السنن الشخصیة یقول ربّنا سبحانه و تعالی: لِکُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذا

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۸

جاءَ أَجَلُهُمْ فَلا یَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَ لا یَسْتَقْدِمُونَ. «۱»

ثم إن هذا الکتاب الربانی الذی جاء لهدایة الإنسان، و صقل شخصیته، و إعطائها الهویة السلیمة، فهو کتاب ینسّق بین سعی الإنسان و نشاطه و جده من جهة، و بین فطرته و ما حوله من الطبیعة و التاریخ و سننه من جهة أخری، ثم یربط هذا الإنسان بعمله إن خیرا فخیر و إن شرا فشر. یقول ربّنا سبحانه و تعالی: فَمَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَیْراً یَرَهُ، وَ مَنْ یَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا یَرَهُ. «۲»

و هذه التجربة التی ینقلها لنا القرآن عبر تلک الأحداث التی مرّت فیها الأمم، یبین من خلال تلک المشاهد و المواقف إن کل هذه التجربة الغرض منها صلاح الإنسان، باعتباره هو الأساس لحرکة التاریخ و المجتمع، فصلاحه یعنی أنه یستطیع أن یغیر مجری التاریخ

فى المنحى الإيجابى إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ «۳» فتغير التاريخ إلى الأحسن، و المجتمع إلى الأمثل بتغير المحتوى الداخلى، فهو الأساس الذى تقوم عليه كل عملية بناء اجتماعية و تاريخية.

و بناء المحتوى الداخلى يشكل القاعدة الأولى فى صحة التفكير و التخطيط للحياة و لهذا الكون، و لا يكون ذلك البناء إلا على أساس من القرآن و تعاليمه الرشيدة، و هديه الناصع، فحينها ينظر الإنسان فى كل خطة، و برنامج عمل، و منهج حياة من خلال ما يمتلك من رؤى و بصائر قرآنية. فهذا الكتاب دائما و أبدا يهدى من اتخذه طريقا و منهجا لسلوك الحق و بيان الغايات و معرفة للأهداف النبيلة، يقول سبحانه و تعالى:

---

(۱) سورة يونس آية ۴۹

(۲) سورة الزلزلة آية (۷- ۸)

(۳) سورة الرعد آية ۱۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۱۹

إِنَّ هذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَ يُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً. «۱»

ثانيا:

القرآن الكريم يشكل منهجا متكاملا لحياة الإنسان، عليه أن يعتمده و يدرسه بعمق لكى يتوصل إلى تلك الحقائق الهادية، و الخطط الرشيدة، و يفهم ما فيه، و يستطيع أن يبرمج حياته وفق ذلك المنهج الربانى، يقول ربّنا سبحانه و تعالى أَمْ لَكُمْ كِتابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ، إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَما تَخَيَّرُونَ. «۲» و لعل دلالة الآية واضحة حيث يبين ربّنا أن كل ما تختارونه فى الحياة، و تحتاجون إليه، فهو فى القرآن فلا غنى لكم عنه.

و لكى لا يكون هذا المنهج الذى يعتمده الإنسان وليد لحظة، أو ظرف، بل يتماشى معه، و يكون مرافقا له حاضرا و مستقبلا فى الحياة، و بعد الممات.

فلا بد أن يفرض نفسه على شيئين: و هما الإنسان و الكون.

نقصد بالإنسان طبيعته، و مكنوناته النابعة من فطرته التى فطره اللّه عليها.

أما الكون نقصد به الهيمنة عليه، و وضع الأنظمة و القوانين و السنن، و لا يتسنى ذلك لغير اللّه عز و جل الذى أنزل القرآن على قلب النبى (ص).

فإذا أدركنا هذه الحقيقة، فإنها تساهم بشكل كبير، و بوضوح تام عن بيان دور القرآن فى إقامة البناء التشريعى، و تشييد الصرح القانونى، و الهيكل التنظيمى للمجتمع، فيكون مصدرا للتشريع و التقنين، و يكون المنبع و المصدر الذى تنبع منه المناهج و الأفكار و المفاهيم التى يحتاجها الإنسان. يقول سبحانه

---

(۱) سورة الإسراء آية ۹

(۲) سورة القلم آية (۳۷- ۳۸)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲۰

و تعالى: وَ نَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَىْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً «۱» فإنه سبحانه كما خلق الإنسان من ناحية الأعضاء و الجوارح و الأجزاء، و النفس و صفاتها و مزاياها و خصوصياتها، و أوجد أعقد الأجهزة فى جسمه. كذلك أوجد النظام الإنسانى الذى يكفل له

السعادة، و هو من أعقد الأنظمة الذى يحوى على ألوف التشريعات، و القوانين لتجعل للإنسان أنظمة و دساتير و مناهج فى غاية الدقة، لئلا يتيه فى دروب الحياة الحالكة، و لئلا يرد إلى أسفل سافلين بعد أن خلق فى أحسن تقويم.

«و حيث جاء القرآن ليسير مع البشر إلى الأبد آخذا زمامه فى كل دروب الحياة، كان لا بد له أن يضع الأنظمة، ليناسب حالاته المختلفة حتى فى أعقد أدوار ارتفاعه، آخذا من سكناه الكهوف و الخيام، و اقتياته على الصيد و الفواكه و امتطائه الخيل و البغال و الحمير، و استعماله الأحجار و الأخشاب فى حاجاته، و انتهاء إلى سكناه المدن الفضائية، و اقتياته الأغذية، و امتطائه الأقمار السابحة فى الأجواء و استعماله العقول الآلية، و إلى غير ذلك من أعقد الحياة التى يضعها العلم بيد الإنسان يوما بعد يوم.

و من هنا يتجلى بعض عظمة القرآن حيث جعل مثل هذه الأنظمة للإنسان و هى صالحة لأعضاء الإنسان اسعد الحياة، بينما كل المذاهب و الأديان و الأنظمة القديمة قد هربت من الميدان، كما إن كل نظام يتجدد يجد عدم ملاءمته للحياة بعد برهة قصيرة من التطبيق، مما يكون لا بد له من تسليم مكانه لنظام احسن ليأخذه مكانه ليجد عدم صلاحيته أيضا». «۲» علينا إذا أن نأخذ بهذا القرآن، منهجا فى الحياة، و فى كل ما يرتبط بها مكانا و زمانا، فإننا

---

(۱) سورة النحل آية ۸۹

(۲) الفقه القرآن ص ۵۶

أحوج ما نكون إليه، و لا نستغنى عنه.

مميزات المنهج

وحدة المصدر و جهته:

ظاهرة الوحى لم تكن ظاهرة جديدة، بل هى ظاهرة تكررت حينما أيّد اللّه أنبياءه، الذين اختارهم قبل النبى (ص)، فهى متماثلة عند الجميع، لأن مصدرها واحد و غايتها واحدة، كما ذكر ذلك ربّنا سبحانه و تعالى فى كتابه قائلا إِنَّا أَوْحَيْنا إِلَيْكَ كَما أَوْحَيْنا إِلى نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَيْنا إِلى إِبْراهِيمَ وَ إِسْماعِيلَ وَ إِسْحاقَ وَ يَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ وَ عِيسى وَ أَيُّوبَ وَ يُونُسَ وَ هارُونَ وَ سُلَيْمانَ وَ آتَيْنا داوُدَ زَبُوراً، وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَ كَلَّمَ اللَّهُ مُوسى تَكْلِيماً. «۱»

فهذه الظاهرة متكررة على كل الأنبياء، التى حرص القرآن على ذكرها، إنما يريد أن يبين أن مصدرها واحد، و أن القرآن ما هو إلا كتاب نزل به الوحى على قلب النبى محمد (ص) من عند اللّه عز و جل. فقال ربّنا سبحانه و تعالى: إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى. «۲»

و قال أيضا قُلْ إِنَّما أَتَّبِعُ ما يُوحى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي. «۳»

و ظاهرة الوحى تدلل على أصالة هذا المنهج الربانى، و انه لا خلاف فى صدوره من جهة واحدة و هو اللّه سبحانه و تعالى، فما علينا إلا أن نتعرف على القرآن من خلال ما مضى من حديث، و ما سيأتى، حتى نستطيع أن ندرك

---

(۱) سورة النساء آية (۱۶۳- ۱۶۴)

(۲) سورة النجم آية ۴

(۳) سورة الأعراف آية ۲۰۳

حقيقة القرآن عن طريق هذه المعرفة الشاملة.

يقول آية اللّه مرتضى المطهرى:- «عند ما نقرأ عن القرآن تتضح لنا أصالات القرآن الثلاث:

الأصالة الأولى: أصالة الانتساب أى أننا بغير أن يخامرنا أدنى شك، أو أن نحتاج إلى دراسة النسخ القديمة، نكون واثقين بأن ما يقرأ اليوم باسم القرآن المجيد، هو الكتاب عينه الذى نزل على محمد بن عبد اللّه (ص).

الأصالة الثانية: هى أصالة المحتوى أى أن المعارف القرآنية ليست ملتقطة و لا مقتبسة بل هى مبتكرة، و التحقيق فى هذا الجانب تتكفل به المعرفة التحليلية.

الأصالة الثالثة: هى الأصالة الإلهية أى أن هذه المعارف قد فاضت مما وراء أفق الرسول (ص) الذهنى و الفكرى، و انه لم يكن سوى ناقل هذا الوحى، و مبلّغ هذه الرسالة، و هذا ما تتكفل به معرفة أصل القرآن». «۱»

و قد اعتمدت ظاهرة الوحى على فكرة التوحيد للّه عز و جل، فهو المصدر الأول لهذا الكون، و الجهة الأولى فى إفاضته لهذا الوجود، فكانت الدعوة إليه و التوجيه و العبادة إليه وحده، و استلهام مناهج الحياة منه فكانت تلك نقطة قوة فى المنهج الربانى فيكون الثبات و عدم الاختلاف، و حينها لا نرى إلا الانسجام التام بين آيات القرآن و عدم التناقض فى أحكامه، و توافقه مع فطرة الإنسان و طبيعته.

«ثمة نقطة مهمة يجب ملاحظتها عند دراسة القرآن، و البحث فيه، و هى أن مجموع آيات القرآن تؤلف بنيانا متماسك الأجزاء، أى إننا لو أخذنا آية

---

(۱) معرفة القرآن ص ۳۰

واحدة، و أردنا أن نفهم هذه الآية لوحدها فلن نكون قد اتخذنا سبيلا سويا، لا شك إن فهمنا لتلك الآية قد يكون صحيحا، و لكنه عمل غير سليم، فالقرآن يفسر بعضه بعضا، و هذا ما أيده الأئمة الأطهار، حسبما ورد على لسان كبار المفسرين، إن للقرآن طريقة خاصة فى بيان المسائل، ففى كثير من الأحيان يكون للآية إذا أخذت منفردة مفهوما يختلف كل الاختلاف عن مفهومها إذا ما وضعت إلى جنب الآيات المشابهة لها فى المضمون». «۱»

و لعل توحيد اللّه عز و جل هو فى عدم قبول أى شىء من غيره سبحانه و تعالى و انه المعبود الذى تتوجه إليه الخلائق فى كل شىء.

هذه الفكرة هى الأصل الأول للإنسان فى وجوده فى الحياة.

و التوحيد فى الثقافة الإسلامية فكرة لها معنى واسع، و معالم واضحة، و أبعاد شاملة، و هى بمثابة القاعدة الأولى للمنهج الإسلامى حيث تعنى الاعتقاد ببطلان كل الأنظمة، و المناهج الغربية، و الشرقية الملفقة، و عدم الإيمان بالأساليب التى يصنعها عقل الإنسان القاصر.

التوحيد يعنى التسليم الكامل و المطلق لكل التعاليم الإلهية التى جاءت فى كتاب اللّه و الإذعان لها و اعتبارها منهجا للمسيرة و الحركة فى الحياة.

التوحيد يعنى التطبيق العملى فى السياسة و الاقتصاد و المجتمع.

فالسياسة التوحيدية هى فى رفض كل الأصنام البشرية، و قطع الروابط و العلاقات التى تؤدى إلى تسلط الأجنبى على المسلمين، و عدم الارتباط بأى قوة تحرف مسيرتنا عن جادة الحق.

---

(۱) معرفة القرآن ص ۳۳

و الاقتصاد التوحيدى يتمثل فى تطبيق الأحكام فى الثروة و الإنتاج و التوزيع و الاستهلاك و الإدارة، و عدم الإجحاف بحق الإنسان، و جعله يعيش حرا كريما وفق قيم العدالة فى توزيع الثروة.

و المجتمع التوحيدى المتمثل فى القيادة المنتخبة على أساس القيم القرآنية و الموازين الدينية كالعلم و التقوى و الجهاد و الأمانة و الشجاعة لا على أسس غير إلهية بعيدة عن الدين مرتبطة بالهوى أو القوم أو العنصر أو العشيرة أو الدم، و هذا المجتمع القائم على التوحيد يمثل النظام الإلهى النابع من الرسالة الذى يسود بين الناس على أساس الصفاء، و قلع جذور الفساد، و تساوى الناس أمام القانون.

قال تعالى: فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقى، لَا انْفِصامَ لَها. «۱»

إذا كان كل ذلك يجمعه التوحيد، و يكون منطلقا لها، فهو يتجلى إذا فى وحدة المصدر، و هذا ما يمتاز به المنهج القرآنى، فهو منهج صدر من جهة واحدة، فهو اعرف بطبيعة الإنسان، و فطرته، و ما يحتاج إليه فى الحياة الدنيا.

---

(۱) سورة البقرة آية ۲۵۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲۵

اعتماد الحق:

اشارة

من المميزات المهمة التى تميز المنهج القرآنى هو اعتماده الحق كقاعدة و ركيزة أساسية فى توجيه خطابه إلى الإنسان المفطور على قبول الحق و الخضوع له فى الباطن، و إن أظهر خلافه فى الظاهر.

«و الحق هو الثبات الذى لا يسوغ إنكاره» «۱» و نعنى به الخط الثابت فى الحياة و الواضح الذى لا تشوبه شائبة، و هو لا يحتاج إلى بيان فيكون اتباعه من الأمور المرتكزة فى الفطرة الإنسانية، و باتباعه يحكم العقل أيضا، فالواجب على الإنسان أن يتبع الحق، و يتبع الهادى إليه و هو العقل، لأن اتباعه إتباع لنفس الحق، و حيث أن الإنسان فى الحياة يريد علما ثابتا و خطا واضحا يرسم له معالم حياته و يعتمده منهجا لها، و تكون ركيزته التى يعتمد عليها، و ليس هناك غير الحق.

و قد اعتمد القرآن الكريم فى منهجه على هذه القاعدة و اعتبرها ركيزة أساسية، فنجد اللّه سبحانه و تعالى يصف القرآن بالحق دائما، و أنها هى الحقيقة، التى قام عليها المنهج القرآنى. فيقول سبحانه و تعالى فى كتابه الكريم:

وَ بِالْحَقِّ أَنْزَلْناهُ وَ بِالْحَقِّ نَزَلَ وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا مُبَشِّراً وَ نَذِيراً. «۲»

وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ. «۳»

---

(۱) التعريفات ص ۴۰

(۲) سورة الإسراء آية ۱۰۵

(۳) سورة فاطر آية ۳۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲۶

وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَ آمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ. «۱»

إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ. «۲»

وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ. «۳»

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِ. «۴»

اللَّهُ الَّذِی أَنْزَلَ الْكِتابَ بِالْحَقِ. «۵»

هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِ. «۶»

و لعل أكثر من مائة آية وردت فی القرآن الكريم تصفه بهذه الصفة، بل آيات القرآن هكذا وصفت رسالات اللّه، حيث اعتبرها القرآن أنها ارتكزت عليه، و جعلته مقياسا فی فهم المنهج القرآنی، و لعل الحق هو القاعدة المنهجية التی يجب أن يتبعها الإنسان لفهم الحقيقة و الوصول إليها، فحينما تقرأ كتاب اللّه و تتلو هذه الآيات ترى أنها تتحدث عن حقائق كبيرة، و من ضمنها الحقيقة القرآنية الكبرى التی تفصل لنا ذلك المنهج الأسمی الذی يرسم للإنسان من خلال تلك القيم البرامج، و الخطط الحكيمة، و يحمله مسئولية الإيمان باللّه و الالتزام به، فيشرح صدره لفهم الواقع المعاش و وضوح الرؤية للمستقبل البعيد.

«القرآن هو كتاب الحق، فهو لا يحدّثنا عن المظاهر الخارجية للحقائق إلا بشكل مقتضب بل يحدثنا عن القيم و السنن و عن الخلفيات و القواعد الحقة،

---

(۱) سورة محمد آية ۲

(۲) سورة النساء آية ۱۰۵

(۳) سورة المائدة آية ۴۸

(۴) سورة النحل آية ۱۰۲

(۵) سورة الشورى آية ۱۷

(۶) سورة الجاثية آية ۲۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲۷

فإذا حدثنا (سبحانه و تعالی) عن مواجهة الإيمان و المؤمنين للكفر و الكافرين فإنه لا يحدثنا عن طبقة معينة فی مكان محدد بل يفصل لنا القول عن الإيمان كإيمان و الكفر ككفر، و يحدثنا عن واقع الإيمان و الكفر و حقيقتهما لا عن مظاهرهما و مصاديقهما». «۱»

القرآن اعتمد فی مفاهيمه و رؤاه الحق، و الإنسان الذی يريد أن يتّبع منهجا ثابتا و منهجا قويما لا اعوجاج فيه و لا انحراف، فانه لن يجد ذلك إلا فی كتاب اللّه. قال سبحانه و تعالی: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِی أَنْزَلَ عَلی عَبْدِهِ الْكِتابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً «۲» فالحق لا عوج فيه، و القرآن هو الحق، كما يقول سبحانه:

الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ. «۳»

و قد خاطب القرآن، أولئك الذين كانوا فی عهد رسول اللّه (ص)، و لم يؤمنوا به، أن يجعلوا الحق الذی جبلت عليه فطرة الإنسان مقياسا لهم فی معرفة الخير من الشر، للابتعاد عن الكفر إلی الإيمان. فقال سبحانه و تعالی: ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَ أَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَ. «۴» و قال أيضا وَ كَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُ. «۵» أی كذبوا بالقرآن مع أنه الحق. و قال أيضا يُجادِلُونَكَ فِی الْحَقِّ بَعْدَ ما تَبَيَّنَ كَأَنَّما يُساقُونَ إِلَی الْمَوْتِ وَ هُمْ يَنْظُرُونَ. «۶»

المنهج القرآنی القائم علی الحق يتجسد فی أمرين:

اشارة

(۱) القرآن حكمة الحياة ص ۹۶

(۲) سورة الكهف آية ۱

(۳) سورة البقرة آية ۱۴۷

(۴) سورة محمد آية ۳

(۵) سورة الأنعام آية ۶۶

(۶) سورة الأنفال آية ۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲۸

أولا: القانونية المتناسقة:

نجد أن القرآن، يتفق فى أصوله مع سائر الرسالات التى جاءت من عند اللّه، كما أنه يتفق مع بعضه البعض فى أصوله و قوانينه، فهو حينما يتحدث عن القانون فإنه يتحدث عن التناسق بين أصوله و فروعه، فكما أن القانون له أصول تكون بمثابة الخطوط العامة، كذلك له تفريعات منبثقة من تلك الأصول، و هى الالتزامات و الأحكام، فلا نجد أى تناقض فى هذه البرامج المعدة سلفا و المستلهمة و المنطلقة من هذا المنهج الربانى، فلا تناقض مثلا بين القوانين التى ترتبط بالاقتصاد و القوانين العبادية، و كذلك لا تجد هذا التناقض بين القوانين السياسية و العبادية، و لا بين العبادية و الاجتماعية، و لا بين بعضها مع البعض عموما.

لأن التناقض و عدم الانسجام لا يتفق مع الحق بل هو للباطل أقرب، و القرآن يقول لا يَأْتِيهِ الْباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ لا مِنْ خَلْفِهِ «۱» فلم و لن يستطع أحد أن يوجد ثغرة واحدة فى كتاب اللّه فلم نجد ذلك فى زمن النبى (ص) و لم يحصل حاضرا، و لن يكون مستقبلا إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ. «۲»

و على الباحث الإسلامى و المفكر الحر أن يتجرد للحق حتى يستطيع أن يستوعب القرآن و يتعامل معه، وفق الأسس و القواعد المنهجية التى تيسّر له المهمة العلمية التى جاء بها القرآن، و يحيط بكل أدوات و وسائل الفهم التى تمكنه من فهم القرآن، و كشف محتواه.

(۱) سورة فصلت آية ۴۲

(۲) سورة الحجر آية ۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۲۹

ثانيا: الوحدة الموضوعية:

لا يقوم المنهج القرآنى على إقحام النزعة الذاتية، أو الأفكار الموروثة، و المخلفات السلبية عند الباحث الإسلامى، أو المفسر للقرآن فى محاولة فهمه له، بل يجب أن يتعامل مع النص القرآنى، و مفهوم الآية بأمانة و دقة و موضوعية، فلا يجوز تحميل النص ما لا يحتمل من معانى، و تأويلات بعيدة عن روح القرآن و أصوله، فحينها إن لم يلتفت الباحث المسلم و المفسر إلى هذه المسألة سيعمد

إلى عملية تشويه، و تحريف لروح القرآن إن لم يفهم النص فى دائرته الخاصة، بما ينطوى عليه من مفاهيم و رؤى و بصائر. و بذلك سيؤدى إلى الوقوع فى متاهات فكرية، و انحراف بعيد عن الثقافة الإسلامية، و بالتالى إلى ممارسة غير ممنهجة، و لا علمية، و ليست وفق أصول القرآن، و لا منبثقة منه.

مهمة النظر إلى القرآن، هى الربط بين مفاهيمه، و أنها تشكل وحدة موضوعية واحدة قائمة على أساس الحق لأنه كما

جاء عن أمير المؤمنين (ع) «و ينطق بعضه ببعض و يشهد بعضه على بعض» «۱»

أى يكمّل بعضه بعضا كما انك حينما تنظر إلى الحق لا يمكنك تجزيئه، فكذلك فهمك للقرآن مجزأ يعنى تقطيع للمفاهيم القرآنية، و تمزيق للمحتوى الربانى، يؤدى ذلك إلى غموض فى الرؤية الواضحة إلى كتاب اللّه.

أن تدخل الرغبات و الأهواء و النزعات الذاتية إلى جانب التجزئة الموضوعية فى فهم النصوص القرآنية، ذلك مما يؤدى إلى الاستنتاج الخاطئ و الغير سليم.

«و الباحث فى حقول المعرفة و الثقافة القرآنية الذى يمارس الدراسة على

---

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱۳۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۰

أسس سليمة، و وفق منهجية قرآنية تتفق و منطق التنظيم الفكرى و العلمى للقرآن، يستطيع الحصول على فكر إنسانى سليم، و اكتشاف الكم الهائل من المفاهيم و التشريعات، و الأفكار التى لا يجف ينبوعها، و لا ينقطع رفدها، كما يستطيع حماية القرآن من اندساس الأهواء و الرغبات، و من تلاعب العابثين، و الجهال الذين ابتليت بهم الأمة الإسلامية عبر القرون فى حياتها الطويلة، و ما زالت تعانى أشد المعاناة من استمرار هذا الشذوذ العابث الذى لم يكن ليحدث إلا بسبب انعدام المنهج السليم، و القصور العلمى، و غياب الموضوعية لدى كثير ممن تصدوا لهذه المسئولية الخطيرة، فأساءوا فهم القرآن، و شوهوا مفاهيمه، و أحكامه». (۱)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۱

الحكمة الربانية:

جاءت لفظة الحكمة فى القرآن الكريم إلى جانب لفظة الكتاب فى بعض الآيات القرآنية، و كأنما تدلل على أن الكتاب لا يكون بدون الحكمة، و كأنها صفة للكتاب فى بعض الأحيان، و فى البعض الآخر صفة للنبى (ص) يتحلى بها، و تكون ملازمة له.

فأما بالنسبة للكتاب فيقول سبحانه و تعالى: وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ. «۱»

و يقول أيضا: وَ إِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ. «۲»

وَ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ما أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتابِ وَ الْحِكْمَةِ. «۳»

و يقول أيضا على لسان النبى عيسى (ع): قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ. «۴»

و يقول ربّنا أيضا: فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ. «۵»

كما إنها تكررت كصفة أو عطاء للرسول أو النبى (ص) أو للمؤمنين.

فيقول سبحانه و تعالى: وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ آتاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشاءُ. «۶»

يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْراً كَثِيراً. «۷»

---

(۱) سورة النساء آية ۱۱۳

(۲) سورة المائدة آية ۱۱۰

(۳) سورة البقرة آية ۲۳۱

(۴) سورة الزخرف آية ۶۳

(۵) سورة النساء آية ۵۴

(۶) سورة البقرة آية ۲۵۱

(۷) سورة البقرة آية ۲۶۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۲

ذلِكَ مِمَّا أَوْحى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ. «۱»

وَ لَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ. «۲»

وَ شَدَدْنا مُلْكَهُ وَ آتَيْناهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطابِ. «۳»

بل و من المهام الرئيسية التى أنيطت بالنبى أو الرسول هى دعوة الناس و تعليمهم الحكمة.

يقول سبحانه و تعالى: رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ. «۴»

يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ. «۵»

ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ. «۶»

فما هى الحكمة؟ و ما ذا تعنى؟ و ما هى بالنسبة إلى القرآن؟ أى ما ذا تعنى بالنسبة إلى المنهج القرآنى؟ و ما هى فلسفة ورودها إلى جنب الكتاب؟

دعونا أولا نفهم ما ذا تعنى هذه الكلمة فى اللغة؟ و ما هى ظلالها اللغوية على الجانب الفكرى؟

قيل إن الحكمة فى اللغة العلم مع الجهل، أو هى كلام وافق الحق، أو الكلام المعقول المصون عن الحشو. «۷»

---

(۱) سورة الإسراء آية ۳۹

(۲) سورة لقمان آية ۱۲

(۳) سورة ص آية ۲۰

(۴) سورة البقرة آية ۱۲۹

(۵) سورة الجمعة آية ۲

(۶) سورة النحل آية ۱۲۵

(۷) كتاب التعريفات ص ۴۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۳

و الحكمة هى من حكمت الدابة التى تربطها مشيتها العشواء إلى صراط المستقيم، و كذلك الإنسان المبتلى بالنفس الأمّارة بالسوء المتخلفة عن الصراط، و بالعقل الذى يخطئ الصراط، فلا بدّ من حكمة ربانية لضبط النفس الأمارة فترشد العقل و الفطرة عن اخطارهما إلى سوى الصراط كسائر الحكمة. «۱»

إذا هى ما يدعو الإنسان إلى تجنب الأخطاء، و التحصن عن المكر و الخداع، و تمنع عن التعثر و الانزلاق، و حضور الإنسان الدائم عقلا و عملا و شعورا فى كل فكرة تطرح و قضية تنشر، أو رأى يقال، فلا يخدع الإنسان بمجرد المظاهر البراقة، و الإعلانات الرنانة، و الدعايات المضللة.

عن الإمام الصادق الحكمة هى النجاة، و صفة الحكمة الثبات عند أوائل الأمور، و الوقوف عند عواقبها، و هو هادى خلق الله إلى الله. «۲»

و عن هشام بن الحكم قال أبو الحسن موسى بن جعفر (ع): يا هشام إن اللّه قال: «و لقد آتينا لقمان الحكمة، قال يعنى الفهم و العقل». «۳»

و الحكمة هى ليست العقل الذى هو موجود لدى كل إنسان، و إنما الحكمة هى أمر آخر تكمل به النفس بعد الإيمان الكامل، و التسليم المطلق للّه، و التوكل عليه، و الثقة به، و إيجاد التقوى، فحينها يحصل هذا الإنسان على درجة من درجاتها، فلا ينزلق، و لا يتعثر، و تكون نظرته للأمور نظرة حكيمة منبثقة من الإيمان بالله

عن أبى جعفر (ع) قال: «بينما رسول اللّه (ص) ذات يوم فى بعض أسفاره إذ لقيه ركب فقالوا: السلام عليك يا رسول اللّه فالتفت إليهم و قال: ما أنتم فقالوا: مؤمنون».

---

(۱) الفرقان (ج ۴) ص ۲۸۸

(۲) مصباح الشريعة للإمام الصادق

(۳) أصول الكافى (ج ۱) ص ۱۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۴

قال فما حقيقة إيمانكم. قالوا: الرضا بقضاء اللّه، و التسليم لأمر اللّه، و التفويض إلى اللّه. فقال رسول اللّه: علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء فأن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون و لا تجمعوا ما لا تأكلون، و اتقوا اللّه الذى إليه ترجعون» «۱» حيث أنها أى الحكمة عطاء من اللّه فى مقابل ما قدمه العبد من خضوع و تسليم و تعلم لأحكام اللّه و التزام لمبادئه ف يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ. «۲»

الحكمة القرآنية:

أما الحكمة فى القرآن و ما تلقيه من ظلال على المنهج الربانى فقد فسّرها ابن عباس (رضى) بتعليم الحلال و الحرام. «۳»

و يمكن أن نفهم من هذا الكلام و من خلال آيات القرآن الكريم و كلام المفسرين أنها تعنى كل ما يتصل بالحياة العملية من برامج، و آداب خلقية و اجتماعية.

عن أبى بصير قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه تبارك و تعالى: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً. «۴»

قال: هى طاعة اللّه و معرفة الإسلام. «۵»

و فى تفسير العياشى عن سليمان بن خالد قال: سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه تعالى: وَ مَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً فقال: «إن الحكمة

---

(۱) أصول الكافى (ج ۱) ص ۱۶

(۲) سورة الجمعة آية ۲

(۳) كنز الدقائق (ج ۲) ص ۴۴۴

(۴) سورة البقرة آية ۲۶۹

(۵) المحاسن ص ۱۴۸ القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۵

الحكمة المعرفة و التفقه فى الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم، و ما من أحد يموت من المؤمنين احب إلى إبليس من فقيه». «۱»

فإن الحياة الاجتماعية تحتاج إلى برامج عملية تتوافق مع طبيعة الحالة التى يعيشها الإنسان، فليس أحكام القرآن و تشريعاته هى مجرد أحكام و آراء لا واقع لها، أولا يمكن للإنسان أن يتكيف معها باعتبار الزمان أو اعتبار المكان.

فالتشريعات الإلهية من المعارف و الأحكام تحمل فى داخلها صيغة تكيفية، فهى ذات ميزة عملية لا تختص بزمن دون زمن، و لا مكان دون مكان، و إنما يحتاج الإنسان فى حالة تطبيقها على الواقع إلى المعرفة بالحياة و العلم.

يروى عن النبى (ص) انه قال: «إن اللّه تبارك و تعالى آتانى القرآن، و آتانى من الحكمة مثل القرآن، و ما من بيت ليس فيه شىء من الحكمة إلا كان خرابا ألا فتفقهوا، و تعلموا، و لا تموتوا جهالا». «۲»

و الحكمة القرآنية التى اتصف بها كتاب اللّه لا يعتريها أى نقص فى كل حقول الحياة، و قد أوصلها اللّه إلى نبيه محمد (ص) فهى حكمة القرآن، و ما يحويه من تعاليم ترتبط بكل الجوانب الخيرة فى الإنسان العقلية و الفطرية و العلمية و العملية و الأخلاقية، فردية كانت أم اجتماعية.

يقول صاحب تفسير الفرقان الدكتور الصادقى: و افضل الحكم الربانية على طول خط الرسالات هو القرآن العظيم، فالعلم به حكمة عملية. «۳»

و بالحكمة التى تنطلق من القرآن، و يمتاز بها هذا المنهج الربانى، و نحصل عليها من خلاله، كما

يقول النبى (ص): «من قرأ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه

---

(۱) تفسير العياشى (ج ۱) ص ۱۵۱

(۲) مجمع البيان ص ۳۸۲

(۳) الفرقان (ج ۴) ص ۲۹۰ القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۳۶

غير أنه لا يوحى إليه، و من قرأ القرآن فرأى أن أحدا أعطى أفضل مما أعطى، فقد عظم ما صغر اللّه و صغر ما عظم اللّه، و ليس ينبغى لصاحب القرآن أن يجدّ مع من جدّ، و لا يجهل مع من جهل و فى جوفه كلام اللّه». «۱»

بهذه الحكمة نستنبط الحلول لمشاكل الحياة، و نستوضح البرامج من القرآن، و نرسم الخطط للمستقبل مع التطور الحاصل الذى يفاجئ الإنسان، فيكون هو بدوره قد استعد له على ضوء و هدى القرآن الكريم.

أ ليس تعليم الحكمة إلى المسلمين من المهام التى كلّف اللّه بها النبى (ص)؟

فلم يكن النبى (ص) يعلمهم الكتاب فقط، بل كان يعلمهم كيفية تطبيق الكتاب يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ فلم يقتصر النبى (ص) على تعليمهم القرآن، و إنما أرشدهم إلى الأصول و المناهج التى ينطلقون منها حين مواجهة أى مشكلة تقع عليهم فيستطيعون حلها.

فالحكمة هى ضالة المؤمن، فيبحث عنها أنّى وجدها، و أين وجدها، فهو يتحرى دائما عن ضالته، كى لا يقع فى ضلالته، فيخرج من العمى إلى الهدى، و من الغى إلى الرشد.

و حين يكون القرآن منار الحكمة، فيسعى إليه ليأخذ منه المعرفة، و التفقه فى الدين و أمور حياته، كما جاء

فى الحديث السابق حيث «الحكمة المعرفة و التفقه فى الدين، فمن فقه منكم فهو حكيم»

و هل يصدر الفقه و أصول الدين إلا من القرآن؟.

---

(۱) الدر المنثور (ج ۱) ص ۳۴۱

التوافق العقلى:

الخطاب فى القرآن موجه إلى البشر من حيث هم بشر، بعيدا عن امتلاك صفة يختص بها البعض، و تميزهم عن البعض الآخر.

فهو موجه إلى أسمى شىء وجد عند هذا الإنسان، و به كرّمه اللّه عند ما خلقه و هو العقل.

فالقرآن إذا آياته و أحكامه و تشريعاته موجهة إلى الإنسان بعقله و روحه لا بجسده فقط.

و من هنا كانت دعوة القرآن إلى التعقل، و الرجوع إلى العقل، و جعله حجة و مقياسا للأمور، يقول ربّنا سبحانه و تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ. «۱»

الإنسان هو أحد الدواب التى تدبّ على الأرض، فاللّه عز و جل لم يخلق الإنسان شريرا، و لكن نوازع الشر عنده لعدم استخدام كوامن الخير، و تسخيرها فى الطريق السليم التى منها العقل.

و القرآن يستثير هذا العقل من خلال دعوة الإنسان إلى التفكير، التفكير فى كل شىء، فى مخلوقات اللّه فى السماوات و الأراضين، و كيف قامتا فى هذا الكون الواسع و ما فيه، فهو يقوم بعملية إثارته، و إيقاظه من سباته، كى يكتشف الحقائق بنفسه دون واسطة. و من هنا فالمنهج القرآنى قائم على أساس البرهان، و قد اعتمد الاستدلال المنطقى القائم على مخاطبة العقل، و اعتبره سندا، يقول سبحانه و تعالى: قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ «۲»، و

---

(۱) سورة الأنفال آية ۲۲

(۲) سورة البقرة آية ۱۱۱

البرهان و الحجة و الدليل و البيان كلها بمعنى واحد، تساق حين مطالبة الإنسان أن يبرهن على صدق عمله عن طريق الاستدلال العقلى أو المنطقى على ما يقوله.

و هذا يعنى نفى التقليد، و الحث على استخدام العقل، و جعله قاعدة أساسية فى التفريق بين الحق و الباطل، و بين الإيمان و الكفر، و بين الإسلام و الجاهلية، يقول سبحانه و تعالى: وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَ لَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَ لا يَهْتَدُونَ. «۱»

قد يقول البعض إن القرآن أكّد على العقل فى نواحى دون أخرى، فهو يريد منّا أن نبرهن، و نستدل عن طريقه فى المنحى العقائدى، الذى يرتبط بالوجود و فلسفة الكون دون أن يكون للعقل مدخلية فى الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية أو ما شابه ذلك.

و لامتياز القرآن ككتاب سماوى على غيره بشموليته و ديمومته إلى يوم يبعثون، فقد أكّد على أصالة العقل، عن طريق قاعدة عقلية من قواعد الفكر، فاحترمها القرآن، و هى قاعدة العلية و المعلولية، التى نحصل من خلالها على قاعدة اجتماعية قد تطرق إليها القرآن، و هى متفقة مع تلك القاعدة العقلية، فيقول ربّنا سبحانه و تعالى: إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ. «۲»

فلن يغير اللّه مصير شعب أو أمة إلّا إذا غيّر ذلك الشعب، أو تلك الأمة ما به من فساد أو انحراف بإزالة كل الأمراض النفسية و الاجتماعية، و تبديلها بنظام أخلاقى اجتماعى صالح حينها يغير اللّه ما بهم، و بهذا يحمّل القرآن

---

(۱) سورة البقرة آية ۱۷۰

(۲) سورة الرعد آية ۱۱

البشر مصيرهم بسبب اختيارهم، فإن كان خيرا فخير و إن كان شرا فشر فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ. «۱»

و من الأمور الأخرى التى تدلل على التوافق العقلى للقرآن، هى مسألة القبول بوجود المصلحة التى يقرّها العقل من وراء وجود الأحكام الشرعية و الالتزام بها، كما أن هناك مفاسد فى الأمور التى ينهى عنها العقل، أى أن الحكم الذى يصدره المشرع عبر كتابه المجيد و رسوله المصطفى له علة معينة تابعة للمصلحة، و قد نعرف العلة بعينها، و قد لا نعرفها، و حيث أن اللّه حكيم و عادل و عالم فلا يصدر منه حكم يأمر به عبده إلا و فيه مصلحة له قد يجهلها، و لا ينهاه عن عمل إلا و فيه مفسدة قد لا يصل إليها.

يقول السيد الخوئى: «إن الأحكام إنما جعلت لمصلحة اقتضت التشريع، و حفظ لتلك المصلحة، لا بد من إيجاد أمور، و تحريم أمور، و حيث أن الأفعال بعضها مشتملة على المصلحة، و بعضها الآخر على المفسدة، فهما صارتا مرجحتين فى إيجاب ما فيه المصلحة و تحريم ما فيه المفسدة.

و يقول أيضا: و التحقيق أن يقال أن العقل و إن لم يكن له إدراك جميع المصالح و المفاسد إلا أن إنكار إدراكه لهما فى الجملة، و بنحو الموجبة الجزئية مناف للضرورة، و لو لا ذلك لما ثبت اصل الديانة، و لزم إقحام الأنبياء، إذ إثبات النبوة العامة فرع إدراك العقل لقاعدة وجوب اللطف. «۲»

و قد تبيّن مما ذكر أن العقل لا يخالف الشرع الذى يتمثل فى القرآن، كما أن الشرع لا يخالف العقل.

---

(۱) سورة الزلزلة آية (۷- ۸)

(۲) أجود التقريرات (ج ۲) ص ۳۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۰

و هذا ما ذهب إليه الفقهاء فى مسألة الملازمة العقلية بين حكم العقل و حكم الشرع، و باختصار نوضح ذلك و هى انه إذا حكم العقل بحسن شىء أو قبحه هل يلزم عقلا أن يحكم الشرع على طبقه.

يقول الشيخ محمد رضا المظفر: «و الحق أن الملازمة ثابتة عقلا، فإن العقل إذا حكم بحسن شىء أو قبحه، أى انه إذا تطابقت آراء العقلاء جميعا بما هم عقلاء على حسن شىء لما فيه من حفظ النظام و بقاء النوع، أو على قبحه لما فيه من الإخلال بذلك، فان الحكم هذا يكون بادى رأى الجميع، فلا بد أن تحكيم الشارع بحكمهم، لأنه منهم بل رئيسهم فهو بما هو عاقل، بل خالق العقل كسائر العقلاء لا بد أن يحكم بما يحكمون». «۱»

و حينما نقول أحكام اللّه لا نقصد الأحكام التى تختص بالجانب العبادى فقط، فإن هناك جوانب أخرى فى الحياة كالجوانب السلوكية فى شخصية الإنسان أو الاجتماعية أو التربوية، أ ليست هذه الجوانب لها أحكام؟ أ ليس الصدق و الأمانة و الإحسان و الوفاء و العدل و الإيثار و التعاون و النشاط صفات حميدة؟ و الكذب و التكبر و الحسد و الحقد و النفاق و كل خلق سيئ هى صفات الرذيلة. أ ليست هذه أمور يحكم بها العقل و يقرها الحكماء و العقلاء فى المجتمع.

هذه الأحكام يقرها القرآن و تتطابق مع الشرع، و لكن اكثر ما هنالك أن الإنسان قد يصاب بالغفلة و النسيان فهو يحتاج إلى تذكير، لذا كان الهدف من بعثة الأنبياء هو تذكير الناس لإبعادهم عن الغفلة، كما جاء

فى الحديث عن الإمام على (ع): «و يذكروهم منسى نعمته و يحتجوا عليهم بالتبليغ و يثيروا لهم

---

(۱) أصول الفقه (ج ۱) ص ۲۳۶ القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۱

دفائن العقول». «۱»

فهناك توافق و تطابق بين العقل و الشرع، و هذا ما جعل الرسول و العقل كل منهما حجة، كما جاء القرآن نهج و حضارة ۱۴۱ التوافق العقلى: ..... ص : ۱۳۷

فى الحديث الشريف عن الإمام الكاظم (ع): «إن لله حجتين حجة ظاهرة و حجة باطنة، فأمّا الظاهرة فالرسل و الأنبياء و الأئمة عليهم السلام، و أما الباطنة فالعقول» «۲»

فمنهج القرآن هو منهج لا يختلف مع العقل، بل هو يزيد العقل معرفة و علما، و يضع للإنسان منهجا فكريا قائما على أساس العلم، كى لا يقع فى الخطأ و المزالق الفكرية، فينهاه عن إتباع الظن، و أن يترك الشك و يأخذ باليقين، فيقول سبحانه و تعالى:

وَ إِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِى الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ. «۳»

كما انه يؤكد مسألة أن يكون المنهج منهجا علميا، فيقول سبحانه و تعالى: وَ لا تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ. «۴»

و جاء

فى الحديث الشريف العلم محى النفس و منير العقل و مميت الجهل «۵»

«لا ريب أن القرآن هو الذى مهّد لصياغة المنهج العلمى، و النظرة العلمية القائمة على تقدير سنن اللّه فى الكون و المجتمعات، فقد دعا القرآن إلى النظر العقلى، و المحاجّة بالدليل و إلى حرية الفكر و احترام العقل، و تكوين شخصية الفرد عن طريق البحث و العلم، و دعا إلى استخدام الإنسان للتفكير و التدبير و الذكر، و دعا إلى اعتناق الرأى نتيجة الاقتناع و التأمل دون إكراه، و فتح

---

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱

(۲) بحار الأنوار (ج ۱) ص ۱۳۷

(۳) سورة الأنعام آية ۱۱۶

(۴) سورة الإسراء آية ۳۶

(۵) غرر الحكم

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۲

باب الاجتهاد تقديرا لتطور الحياة و ما يجدّ فيها من الأحداث و المعاملات». «۱»

---

(۱) القرآن لأنور الجندى ص ۲۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۳

مبارك:

تميّز القرآن كذلك بميزة وصف بها نفسه بقوله سبحانه و تعالى: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ. «۱» و تكررت هذه اللفظة فى وصف القرآن أربع مرات مع هذه الآية بقوله سبحانه و تعالى:

وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. «۲»

وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ. «۳»

كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ. «۴»

ذكر الراغب فى المفردات أن البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء. قال تعالى: لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ «۵»، و سمّى بذلك لثبوت الخير فيه، ثبوت الماء فى البركة، و المبارك ما فيه ذلك الخير على ذلك وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ. «۶»

و ذهب المفسرون إلى معنى البركة حيث وردت فى القرآن عبر هذه الآيات و بالتحديد مبارك، فقالوا: إنها تعنى كثير الفائدة و النفع، أو أن القرآن خيره كثير.

و الحق يقال إن هذا المنهج السماوى الذى يحتوى على مجموعة من القواعد و النظم، فهى بركات ترقى بالإنسان إلى أعلى الدرجات، فهو يشكل

---

(۱) سورة الأنعام آية ۹۲

(۲) سورة الأنعام آية ۱۵۵

(۳) سورة الأنبياء آية ۵۰

(۴) سورة ص أية ۲۹

(۵) سورة الأعراف آية ۹۶

(۶) نقلا عن تفسير الميزان (ج ۷) ص ۲۸۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۴

مصدر الكون و الحياة و ما ورائهما، بشرط اتباعه، و لذا قال سبحانه: وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ. «۱» فبالإتباع و الالتزام تكون تلك التشريعات و النظم و القواعد، تحفز الإنسان نحو الرقى و التقدم و النمو و الخير، و حينها تعم هذه البركة البشرية جمعاء، فى كل حقول العلم و المعرفة و العمل الصالح إلى يوم الدين، فيقول سبحانه و تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنا عَلَيْهِمْ بَرَكاتٍ مِنَ السَّماءِ وَ الْأَرْضِ. «۲»

فهو منهج مبارك إذا بشرط أن يتحول التشريع و تلك النظم و القواعد إلى ما ينتفع الناس به، فتزيد البركة و يعم الخير، و ذلك لا يكون إلا باجتماع شملهم، و قوة جمعهم، و وحدة كلمتهم، و كذلك تكريس قيم الدين و الأخلاق فى نفوسهم، و ترجمة ذلك إلى عمل بإزالة الضغائن و الأحقاد من القلوب، و إنشاء الأمن و السلام، فكل ذلك مدعاة لرغد العيش، و طيب الحياة، و الاستظلال بمظلة السعادة.

و لا شك أن المنهج المبارك بهذا الشرط ينعكس على شخصية الإنسان، و يكون هو مبارك بذلك المنهج المبارك، لأن هذا الإنسان هو الذى يجعل ذلك النفع الذى شمله و انعكس على شخصيته يعم غيره، فيكون معطاء أو نفاعا للآخرين دون حدود لنفعه، فلا يحد نفعه بالحدود الزمنية أو المكانية أو الجنسية، فكما أن الكتاب منهج و رسالة نفعها للجميع، بلا فرق بين مكان و زمان و جنس أو عنصر، كذلك من يتبع الكتاب يكون مباركا فى عطائه للآخرين، دون النظر إلى جنسهم أو مكانهم أو بلدهم أو زمنهم، و لذا قال

---

(۱) سورة الأنعام آية ۱۵۵

(۲) سورة الأعراف آية ۹۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۵

سبحانه و تعالى: وَ جَعَلَنِي مُبارَكاً أَيْنَ ما كُنْتُ «۱»، و الخطاب فى هذه الآية يختص بالنبى عيسى (ع) حيث تكون بركته شاملة، فى كل مجال، و على كل صعيد، و فى كل وقت.

قال النبى (ص) قول عيسى (ع) و جعلنى مباركا أين ما كنت. قال:

جعلنى نفاعا للناس أين اتجهت. «۲»

و كما أن الإنسان يطمع أن يكون هو مبارك يعم خيره الجميع، يطمح أيضا فى أن ينال هو أيضا من ذلك الخير و النفع، و ليس من

العيب أو الخطأ أن يتمنى الإنسان الحصول على جزء من تلك البركة التى جعلته نفّاعا أن ينتفع منها هو ما دام على منهج القرآن، و متبعا و مطبقا لبرامجه، فيقول ربّنا سبحانه و تعالى فى قصة نوح وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِى مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ «۳»، كما قال النبى (ص) لعلى (ع): «يا على إذا نزلت منزلا فقل اللهم أنزلنا منزلا مباركا و أنت خير المنزلين». «۴»

فالقرآن كمنهج سماوى و رسالة ربانية، فإنه أيضا دعوة إلى الانطلاق لإقامة العدل فى الأرض، و إشاعة السلام، و نشر الخصال الإنسانية لأنه نور يهدى به اللّه من اتبع رضوانه، فيخرج الإنسان من الموت إلى الحياة، و من اليأس إلى الرجاء، و من الكسل إلى النشاط، و من السكون إلى الحركة، و من الذل إلى العز، و تلك هى السعادة الكبرى، و البركة المرجوة من هذا المنهج،

يقول النبى محمد (ص): «فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم

---

(۱) سورة مريم آية ۳۱

(۲) الدر المنثور (ج ۴) ص ۲۷۰

(۳) سورة المؤمنون آية ۲۹

(۴) نور الثقلين (ج ۲) ص ۵۴۴ القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۶

بالقرآن». «۱»

فإذا رجعنا إلى القرآن، و تداوينا به، و صححنا أخطاء المجتمع فإننا سنحصل من خلال ذلك على النفع الكثير، و الفائدة الكبيرة، و البركة الكثيرة.

---

(۱) أصول الكافى (ج ۲) ص ۵۹۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۷

۹ قرآننا و الدعوة

اشارة

* اسس الدعوة القرآنية* كونوا موحدين* لعلهم يتفكرون* اعملوا ...

* إلى السلام .. إلى الرفاه* مع الأمة الواحدة

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۴۹

أسس الدعوة القرآنية:

القرآن نور و برهان و تبصرة و ذكرى و فرقان و هدى و بشرى، أ لم يقل ربّنا سبحانه و تعالى: قَدْ جاءَكُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً، فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ اعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِنْهُ وَ فَضْلٍ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِراطاً مُسْتَقِيماً. «۱»

إنه ذلك النور المشع، الذى جاء ليكتسح الظلام، فيضىء للإنسان جوانب حياته، إنه البرهان القاطع على تلك القيم الربانية الصادقة، و البرامج السليمة التى هى خير لمن اتبعها، و اعتصم بها.

فالنور إذا اقتحم قلب الإنسان، و ثبت البرهان فى عقله، فإنه يطمئن قلبه بما جاء به هذا الكتاب، فيؤمن به بما رأى من تلك التشريعات التى تتوافق و فطرته، كعبد اللّه بن سلام و أصحابه من النصارى فيقول ربّنا سبحانه و تعالى عنهم: وَ الَّذِينَ آتَيْناهُمُ الْكِتابَ يَفْرَحُونَ بِما

أَنْزِلَ إِلَيْكَ. «۲»

إلى جانب أنه نور فإنه يصدق بالدليل و البرهان لما عندهم من كتاب (التوراة و الإنجيل)، و يتجاوب القرآن مع كتابهم فى الأصول العقائدية و الحكمية، و قد بشّرت به كتبهم جميعها، فمن يتحرى كهؤلاء عن الحقيقة، فإنه يجد النور و يفرح قلبه، و من ينكر فإنه يعيش الظلام و الحيرة، و هناك فعلا- قسم أنكر، كما يقول القرآن وَ مِنَ الْأَحْزابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ «۳»، فهو لم يتحرى عن الحقيقة أو تحرى و لكنه رفض استقبال ذلك النور المنبعث و المنقذ له؛ خسر دنياه و آخرته.

---

(۱) سورة النساء آية (۱۷۴- ۱۷۵)

(۲) سورة الرعد آية ۳۶

(۳) سورة الرعد آية ۳۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۰

فيا ترى عما يتحرى الإنسان فى هذا الكتاب، و ما هى تلك الأسس و الركائز و الأصول التى يبحث عنها فى كتاب اللّه، و إلى ما ذا يدعو هذا الكتاب، و ما هى أسسه التى ارتكز عليها فى دعوته؟.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۱

كونوا موحّدين:

للتوحيد معنى متميز فى القرآن الكريم، لا يدركه إلا أهل البصيرة و الفهم العميق، لأنه من المسائل التى يتوقف على معرفته، و يكون شرطا أساسيا لاتباع و التزام ما جاء به هذا الكتاب،

يقول الإمام على (ع) فى نهج البلاغة: «أول الدين معرفته و كمال التصديق به توحيده و كمال توحيده الإخلاص له». «۱»

و مما لا شك فيه أن معرفة اللّه الواحد الأحد معرفة فطرية، و حينما نقول أن المعرفة فطرية يعنى أن عقل الإنسان ليس بحاجة إلى بذل جهد، و إقامة البراهين الفلسفية المنطلقة من قواعد معقدة حتى نثبت له ذلك، بل هو يدرك الأمر بسهولة، بالنظر إلى ما حوله من الوجود، و الظواهر التى تحيط به كإنسان، فيشعر أنها بحاجة إلى مدبر، و يتولد عنده من ذلك الشعور بأنها محتاجة إلى صانع يوجدها، و خالق لا- يحتاج فى إيجادها إليها، يقول سبحانه و تعالى: فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ «۲»، و

عن الإمام الصادق (ع) انه قال: فى تفسير هذه الآية الشريفة فطرهم على المعرفة. «۳»

فبالمعرفة الفطرية تنشأ العلاقة القلبية، التى تربط الإنسان بقوة تعيش فى أعماق قلبه، و تشعره بضعفه أمام هذه القوة الإلهية، و انه مجرد مخلوق من قبل خالق لهذا الكون، و قد يغفل بعض البشر عن هذه القوة الإلهية، لهذا فهم بحاجة إلى تذكير، و تنبيه عن غفلتهم، فكان الأنبياء حيث بعثهم اللّه للناس، كى

---

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱

(۲) سورة الروم آية ۳۰

(۳) المحاسن (ج ۲۲۴) ص ۲۴۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۲

يذكروهم بهذه العلاقة القلبية، فيقول ربّنا سبحانه و تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ، وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ،

أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ. «۱»

و كما أن المعرفة للوجود الإلهى فطرية، كذلك التوحيد فطرى، و معنى هذا القول أن لا شريك للّه عز و جل، كما يقول ربّنا سبحانه و تعالى: لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ «۲»، و تشير هذه الآية إلى تلك المعرفة الفطرية التى يقرّ بها العقل، بغرض الفساد بوجود الهين فى الكون، لأن ذلك يخالف وحدة التنظيم، و الإتقان فى النظام، التى تدل على أن الخالق فى غاية الإبداع و الحكمة و الكمال، و هو فى غنى عن الشريك.

و القرآن الكريم قد أشار إلى التوحيد و الدعوة إليه، و اعتبره أساسا لبناء المجتمع، و إقامة صرحه، برفض كل بديل، و فكرة غريبة، لا تنطلق من هذا الأساس و من هذا المبدأ. كما و اعتبره المحرك الأول للفكر و الثقافة الإسلامية، التى تبنى حاضر و مستقبل الأمة الإسلامية كما شيدته فى الزمن الماضى، فهو يمثل المنطلق الحقيقى للنهوض و البناء و التقدم فى عصرنا هذا و فى كل عصر.

و لم يكن التوحيد سمة القرآن و الإسلام فقط، بل هو سمة اتصفت بها كل الأديان السماوية جميعا، و قد دعت إلى وحدانية اللّه فى هذا الكون، و ما نهضت الأمة الإسلامية، و ما استطاعت أن تكوّن حضارتها، و تقيم مجدها إلا

---

(۱) سورة الأعراف آية ۱۷۲

(۲) سورة الأنبياء آية ۲۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۳

بمفهوم التوحيد، حيث أحدث نقلة حضارية من حالة الحضيض إلى حالة العلو و السمو، و من هذا المبدأ لترسيخه فى حياة المسلمين كقوله تعالى:

وَ إِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ. «۱»

هُوَ الْحَيُّ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ، فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ. «۲»

وَ إِلهُنا وَ إِلهُكُمْ واحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. «۳»

فَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ، فَلَهُ أَسْلِمُوا. «۴»

هذا بَلاغٌ لِلنَّاسِ وَ لِيُنْذَرُوا بِهِ وَ لِيَعْلَمُوا أَنَّما هُوَ إِلهٌ واحِدٌ. «۵»

و أعلن القرآن صراحة أن التوحيد هو توحيد الألوهية الخالصة، و من لا يقرّ بهذا مشركا باللّه، و أن الشرك حالة عارضة على فطرة الإنسان، باعتبارها تشكل انحرافا فطريا، و الشرك لا يعنى عبادة الأصنام فقط أو قوى الطبيعة كالأجرام السماوية و ما شابه ذلك، قد يكون الشرك أبعد من ذلك، حينما يتحول خضوع الإنسان للمتغيرات و ما يقبل الفناء، و هذا ما حاولت الفلسفات الحديثة بدعوتها إلى ألوهية الإنسان، أو ألوهية المادة، أو اتخاذ الغريزة، أو لقمة العيش تفسيرا للوجود، و قد تكون هذه الدعوات الجديدة هى نفس الدعوات القديمة بلباس منمّق جذّاب المظهر و الشكل و فاسد المحتوى، و هذا هو أسلوب الحياة المعاصرة إذا فهى دعوة إلى عبادة

---

(۱) سورة البقرة آية ۱۶۳

(۲) سورة فاطر آية ۶۵

(۳) سورة العنكبوت آية ۴۶

(۴) سورة الحج آية ۲۲

(۵) سورة إبراهيم آية ۵۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۴

الأوثان بشكل جديد.

و تأكيد القرآن على مسألة التوحيد لأنه يشكل المرحلة الأولى للهداية القرآنية، و الإيمان باللّه لا يتم إلا عبر وحدانيته، بل يتوقف كل عمل عبادى اجتهادى تربوى أو أخلاقى سياسى أو اقتصادى على معرفة هذا المبدأ، لأنه المنطلق الأول فى الحياة.

روى عن المقدام بن شريح بن هانى عن أبيه قال: أن أعرابيا قام يوم الجمل إلى أمير المؤمنين (ع) فقال: يا أمير المؤمنين أ تقول بأن اللّه واحدا. قال:

فحمل الناس عليه. و قالوا: يا أعرابى أما ترى ما فيه أمير المؤمنين من تقسم القلب؟ فقال أمير المؤمنين (ع): «دعوه فإن الذى يريده الأعرابى هو الذى نريده من القوم». «۱»

بل و توحيد اللّه ينعكس على سلوك الإنسان، حينما يسلم وجهه للّه الواحد الأحد فى كل شىء، فإنه يشعر فى قرارة نفسه بأن اللّه رقيب عليه فى كل حين يَعْلَمُ خائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ ما تُخْفِي الصُّدُورُ «۲»، و حينها تكون مواقف الإنسان و أعماله منسجمة مع هذا المبدأ، فهو يبتعد عن كل ما يغضب اللّه، و يتقرب إلى كل أمر يرضيه خشية منه سبحانه و تعالى لا خوفا من المجتمع، لأن اللّه تعالى يراه أينما كان و أنى يكون، فمن يؤمن بأن اللّه خالق الكون و الحياة و الإنسان. هو الواحد لا شريك له بيده الأمر و الحكم بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعاً «۳»

---

(۱) نقلا عن تفسير الميزان (ج ۶) ص ۹۱

(۲) سورة غافر آية ۱۹

(۳) سورة الرعد آية ۳۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۵

لِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. «۱»

فمن يؤمن به وحده لا شريك له، لا يستعين إلا به، و لا يطلب حاجته إلا منه، و لا يتوجه إلا إليه، و لا يدعو غيره إذا أصابته مصيبة، و لا يشكر غيره إذا حصل على نعمة، و إذا كان فى بلاء و شدة فلا يلجأ إلا إليه، و إذا فعل خيرا فلا يرجو الثواب إلا منه، و إذا أراد النجاة فرّ إلى اللّه عز و جل.

---

(۱) سورة المائدة آية ۱۲۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۶

لعلهم يتفكرون:

اشارة

مواقف الإنسان فى الحياة إما أن تكون ارتجالية اعتباطية و هى التى لا تكون نتيجة التفكير بل نتيجة الطيش و الغضب و الغفلة، و إما أن تكون مواقف عملية و هى تأتى بعد التأمل و النظر و استخدام العقل و التروى قبل إطلاق الأحكام و وضع القرار.

هذا ما دعا إليه القرآن حيث أراد من الإنسان أن ينظر إلى عواقب الأمور، فاستعمال عملية التفكير فى الأمور التى تصادف الإنسان فى حياته تؤمن له الطريق السليم و توصله إلى شاطئ الأمن و السلامة.

فبالتفكير تنجلى غياهب الأمور «۱» و تتضح معالم الطريق، و تكون العاقبة حسنة، و لا يقع الإنسان فى الخطأ و الزلل، و تكون نظرته

إلى المستقبل سليمة، و قد جاءت مجموعة روايات عن أمير المؤمنين تؤكد ذلك

فعنه (ع): «الفكر يوجب الاعتبار و يؤمن العثار و يثمر الاستظهار»، «ما زال من أحسن الفكر»، «من طالت فكرته حسنت بصيرته»، «كل يوم يفيدك عبرا أن أصبته فكرا»، «أصل السلامة من الزلل الفكر قبل الفعل و الروية قبل الكلام»،

---

(۱) غرر الحكم (عن أمير المؤمنين (ع)) القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۷

«الفكر فى الخير يدعو إلى العمل به». «۱»

و القرآن الكريم قد بيّن من خلال آياته، و دعا إليه، و جعله مسئولية يتحملها الإنسان فى الحياة حتى يتعرف على أموره من خلالها.

فقد جاء فى القرآن الكريم كَذلِكَ نُفَصِّلُ الْآياتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. «۲»

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. «۳»

إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. «۴»

فالإنسان المكلف مسئول عن نفسه، و عن مجتمعه مسئولية تجعله يفكر فى مصيره فى هذه الحياة، و يجعل منها حياة مليئة بالخير و السعادة.

و قد تكررت كلمة يتفكرون فى القرآن الكريم عشرة مرات و هى دلالة واضحة على دعوة الإنسان لإثارة عقله، و تحريك تلك الأفكار للوصول إلى الحقيقة، و معرفة الأشياء و ذلك كان هو الهدف من دعوة القرآن إلى التفكير.

اعتمد القرآن الكريم فى دعوته هذه على العقل ليتحرك ضمن ساحته فتثار لديه المعلومات و يقوم بعملية الربط بينها و بين خالق هذا الكون.

فإذا كانت عملية التفكير مسئولية حمّلنا القرآن إياها لمقاومة الغفلة فى

---

(۱) غرر الحكم

(۲) سورة يونس آية ۲۴

(۳) سورة النحل آية ۱۱

(۴) سورة الزمر آية ۴۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۸

الحياة و لمعرفة الحقيقة، فإنها لم تقتصر على التفكير فى الدنيا للآخرة فقط بل تجاوزت هذا الحد، فربما قد تكون عملية التفكير فى الدنيا أيضا، كى ينشأ الإنسان فيها صحيحا قويما قادرا على مواجهة الظروف و المستجدات فى الحياة. فلم يكن التفكير حكرا على جانب دون جانب، بل على الإنسان أن يطلق عنان تفكيره فى كل شىء حتى يتوصل إلى الحقيقة المرجوة من خلاله، فيقول سبحانه و تعالى: كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فِي، الدُّنْيا وَ الْآخِرَةِ. «۱»

أ و لسنا اليوم نواجه خطرا يتهدد حياتنا من الكوارث الطبيعية و غيرها بحاجة إلى ما نتصدى به للوقوف أمامها؟.

هل فكرنا مليا فى السبل و الطرق التى بها نستطيع أن نتجاوز كل هذه المشاكل؟

فعن طريق التفكير تقدمنا فى علم النبات حتى وصلنا إلى درجة كبيرة.

و فى علم الطب أصبحت تستبدل أعضاء الإنسان، و كأنها قطع غيار لسيارة قديمة فيحاول الطب أن يقضى على جميع الأمراض. و فى الصناعة و الاختراعات و تأمين وسائل الحياة و الراحة استطاع أن يكتشف أمورا تصله عبر الأزرار دون أن يتحرك بل تجاوز بتفكيره حدود الأرض، و انطلق فى الفضاء يجوبه، و كأنه يمشى فى الأرض ليكتشف أسراره.

هل انتهى تفكير الإنسان إلى هذا الحد؟ و هل وصل تفكيره و بما ارتقى إليه من تقدم و تطور إلى درجة الاكتفاء. و هل استطاع القضاء على ما يتهدده

---

(۱) سورة البقرة آية (۲۱۹- ۲۲۰)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۵۹

و يوصله إلى النهاية؟ بالطبع كلا.

فالقرآن إذا يكرّس عملية التفكير هذه و يشدّد عليها، و يطلق العنان للإنسان كى يستخدم تفكيره فى كل شىء فى هذا الوجود حتى تتكامل لديه الرؤية، و تتضح له معالم هذه الحياة الدنيا، و يرى من خلال ذلك الآخرة عند ما يصل من خلال تفكيره فى هذا الكون إلى معرفة و قدرة اللّه عز و جل، و إلى حكمته، و تدبيره لهذا العالم.

فالقرآن دعانا إلى التفكير فى كل شىء. فيا ترى هل ذكر ذلك فى القرآن؟

و ما هى تلك الأمور التى دعانا إلى التفكير فيها؟

أولا: التفكير فى الخلق:

عالم الخلق هذا العالم الواسع اللامتناهى بحاجة إلى أن ينظر الإنسان إليه نظرة تفكّر فى نظامه، و فى خلق السماوات و الأرض و ما عليها، حتى يعلم أن اللّه لم يكن يخلق جزءا صغيرا من هذا الكون إلا- و له حكمة و غرض، فعليه أن يرفع الغشاوة من على عينيه، و يجول ببصره و يشغل فكره، يقول سبحانه و تعالى: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ «۱»، قُلِ انْظُرُوا ما ذا فِي السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ. «۲»

و قد ركّز القرآن على استعمال الحس بتحكيم العقل عن طريق النظر حتى يعتقد الإنسان و يؤمن، فكانت الادراكات العقلية مدعمة بالشواهد الحسّية،

---

(۱) سورة العنكبوت آية ۲۰

(۲) سورة يونس آية ۱۰۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۰

فخاطبه القرآن حتى يستكشف أسرار هذا الخلق، و يعترف على نظامه و سنّته، فجعل الحواس أصل علمى و قرآنى، حتّى ينظر الإنسان من خلال بصيرته، و يقف على خفايا و أسرار هذه الطبيعة، و يتعرف على قوانين هذا الكون، و يسخرها فى خدمة الإنسانية، يقول سبحانه و تعالى: وَ يَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ رَبَّنا ما خَلَقْتَ هذا باطِلًا سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ. «۱»

و يقول أيضا: أَ فَلا- يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَ إِلَى السَّماءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَ إِلَى الْجِبالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَ إِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ، فَذَكِّرْ إِنَّما أَنْتَ مُذَكِّرٌ. «۲»

و لعل الهدف من النظر فى الكون و التفكير فى الخلق هو تكامل المعرفة عند الإنسان، و التعرف على الذات الأزلية، و القدرة المطلقة التى تجلّت حكمته فى هذا الخلق، و بتكامل المعرفة عنده يتجه الإنسان نحو الكمال حينما تتكامل رؤيته لهذا الكون.

ثانيا: البداية و المصير:

لعل تميّز الإنسان عن غيره من المخلوقات هو محل ملاحظة و تأمل للإنسان نفسه، فيجعله دائم التفكير فيما يتميز به جنسه عن

الأجناس الأخرى.

و المشاهد الحية التى يستعرضها القرآن الكريم فى كيفية خلق الإنسان لا نجدها تستعرض بالنسبة لبقية المخلوقات، و ما ذلك إلا لبيان هذه المراحل التى يمرّ فيها الإنسان المخلوق حتى يرى نور الوجود، و تكمن فى هذه المراحل

---

(۱) سورة آل عمران آية ۱۹۱

(۲) سورة الغاشية آية (۱۷- ۲۱)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۱

مجموعة أسرار و خفايا لا- يستكشفها الإنسان نفسه، و ان استكشفها العلم الحديث فهو يبقى عاجزا عن معرفة كل الأسرار و جل الخفايا، فيقول سبحانه و تعالى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْناهُ نُطْفَةً فِى قَرارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخالِقِينَ. «۱»

و ينصبّ التفكير فى مبدأ خلق تلك النطفة النتنة التى تكون منها هذا الإنسان، من قطرة ماء تصرّفت يد القدرة فيها، فخلقت منه رجلا سويّا، يبصر و يمشى و يأكل و يتكلم و يسمع و يعقل و يفكّر فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ «۲»، إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْناهُ سَمِيعاً بَصِيراً. «۳»

فالقرآن يحرص على تذكير الإنسان بكيفية خلقه و تقلبه و ضعفه، فيلفته إلى تكونه من تراب أو طين أو من نطفه، و كل ذلك كى لا يتجاوز الإنسان حدوده التى تكوّن منها، و يعرف أن مصيره مرهون بهذه الخلقة.

فحينما يفكر فى بدايته كيف كانت؟ فيعرف من هو و كيف يجب أن يكون مصيره.

فكما يجب عليه أن ينظر إلى تلك البداية و مراحلها، عليه أن يتمعن جيدا لكى يكون مصيره حسنا عند اللّه، فقد وهبه اللّه تعالى وسائل التعقل و التبصر، و التمييز بين الخير و الشر، و ذلك جوهر إنسانيته، و حمّله الأمانة،

---

(۱) سورة المؤمنون آية (۱۲- ۱۴)

(۲) سورة الطارق آية (۵- ۷)

(۳) سورة الإنسان آية ۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۲

فعليه أن يتحمل التبعات، و يكون مسئولا عن تصرفاته و سلوكه، يقول سبحانه:

وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى، وَ أَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى، ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى «۱» وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِى عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً، اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً. «۲»

فلهذا الإنسان قصة عجيبة فى رحلته العابرة بين الحياة و الموت فكما دعاه القرآن إلى التفكير ليرفع عن نفسه الحيرة و الشك، و التفكير ليس فى بدايته و حياته التى يعيشها فى الدنيا، بل النظر و التأمل إلى ما بعد هذه الحياة المادية حيث الحياة الأخروية دفعا لحيرة الإنسان، و ما يشغل باله، فجاء من أمر تلك الحياة التى أكدتها رسالات الدين، و ما يجهده من التفكير الدءوب فى تصوره، فيقول سبحانه: وَ يَقُولُ الْإِنْسانُ أَ إِذا ما مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا، أَ وَ لا يَذْكُرُ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئاً. «۳»

و يقول أيضا: أَ يَحْسَبُ الْإِنْسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظامَهُ بَلى قادِرِينَ عَلى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ «۴» و يقول أيضا: أَ وَ لَمْ يَرَ الْإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ، فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ، وَ ضَرَبَ لَنا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ،

---

(۱) سورة النجم آية (۳۹- ۴۱)

(۲) سورة الإسراء آية (۱۳- ۱۴)

(۳) سورة مريم آية (۶۶- ۶۷)

(۴) سورة المدثر آية (۳- ۴)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۳

قل يحيها الذى أنشأها أول مرة و هو بكل خلق عليم. «۱»

ليس هذا فحسب ما يقدمه القرآن إلى الإنسان فى إمكان البعث، بل انه يضع أمام بصره و بصيرته و حسه و وجدانه آية القدرة الإلهية فى إرجاع الخلق الأول، فيقول سبحانه و تعالى: أَ فَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ «۲» و يقول أيضا: وَ قالُوا أَ إِذا كُنَّا عِظاماً وَ رُفاتاً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً، قُلْ كُونُوا حِجارَةً أَوْ حَدِيداً، أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ «۳» ما زال و لا يزال القرآن يثير عقل الإنسان حول الكثير من القضايا و يحرك تفكيره، مستعرضا له مجموعة من الشواهد، التى تبين بدايته، و مراحلها، و مصيره، و ما يلاقيه فى الحياتين الدنيا و الآخرة.

ثالثا: التفكير فى الظواهر الكونية و العلوم الإنسانية:

دعا القرآن بإلحاح إلى التأمل فى الكون، و مراقبة الأحداث التى تجرى فيه، و استنطاق الظواهر الطبيعية للوقوف على عظمة الخالق، بل أبعد من ذلك حيث دعاه إلى التفكير فى استخدام و تسخير ما فى الكون من قوى و موجودات لخيره و سعادته، يقول سبحانه و تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً لَكُمْ مِنْهُ شَرابٌ وَ مِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ، يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَ الزَّيْتُونَ وَ النَّخِيلَ وَ الْأَعْنابَ وَ مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَ سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَ النَّهارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ وَ النُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ،

---

(۱) سورة يس آية (۷۷- ۷۹)

(۲) سورة ق آية ۱۵

(۳) سورة الإسراء آية (۴۹- ۵۱)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۴

وَ ما ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوانُهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ، وَ هُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَها وَ تَرَى الْفُلْكَ مَواخِرَ فِيهِ وَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ «۱» و قد تعرّض القرآن إلى كثير من الظواهر التى تحيّر فكر الإنسان، حيث لا زال يتأمل و يفكر فيها مع ما وصل إليه، فلو أردنا أن نستعرض تلك الآيات لطال البحث.

و كذلك تعرّض القرآن و دعا إلى التفكير فى العلوم المرتبطة بالبيولوجيا كعلم الأجنة و ما يتصل بها، قال تعالى: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ ماءٍ دافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَ التَّرائِبِ. «۲»

و الدعوة قد اتسعت إلى التفكر فى علم الفلك، و ما يرتبط به من علم الجيولوجيا و الجغرافية، و كذلك إلى التفكر فى علم النبات، و النظام الذى يسير عليه، و فى خلق الحيوانات، و آثارها، و ما يظهر منها فى الحياة.

«بهذا الشكل يدعو إلى تعلم العلوم الطبيعية و الرياضية و الفلسفية و الأدبية و سائر العلوم التى يمكن أن يصل إليها الفكر الإنسانى، و يحث على تعلمها لنفع الإنسانية، و إسعاد القوافل البشرية». «۳»

انه يدعو إلى هذه العلوم بشرط أن توصل الإنسان إلى معرفة الحقيقة التى توصله إلى عظمة الخالق.

(۱) سورة النحل آية (۱۰- ۱۴)

(۲) سورة الطارق آية ۵

(۳) القرآن فى الإسلام ص ۱۳۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۵

رابعا: التفكير فى السنن التاريخية:

يعتمد القرآن فى عرضه للوقائع التاريخية و الأحداث التى جرت على الأمم الماضية بأسلوب متميز، حيث يدعو الإنسان من خلاله إلى الاعتبار، و اخذ العظة و النظر و التدبر فى الحوادث التاريخية التى مرّت بها البشرية، و يستخدم القرآن أحيانا أسلوب القصة كى يطرح بعدا تاريخيا، و يقدم نماذج عديدة للمعطيات التاريخية فى إطار المنهج الإلهى، لبيان الحكمة من وراء هذه الحركة التاريخية التى مر فيها البشر، يقول سبحانه و تعالى: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ. «۱»

و يقول أيضا: قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ. «۲»

و يقول أيضا: وَ انْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ. «۳»

و تقدم القرآن ببيان نماذج تاريخية على ذلك، لكى تكون شاهدا موثقا لهذه الحقيقة، و تكون أبلغ فى الأثر على نفوسنا، و نعتمد مدلولاتها فى أفعالنا الراهنة، و نستفيد منها فى جميع المراحل الزمنية التى تمر فيها الحركة الإنسانية، فمن تلك النماذج يقول القرآن الكريم: وَ فِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتادِ، الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذابٍ «۴» و يقول أيضا:

(۱) سورة آل عمران آية ۱۳۷

(۲) سورة النمل آية ۶۹

(۳) سورة الأعراف آية ۸۶

(۴) سورة الفجر آية (۱۰- ۱۳)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۶

إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسى فَبَغى عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ. «۱»

و يقول أيضا: وَ قَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْناهُمْ وَ جَعَلْناهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَ أَعْتَدْنا لِلظَّالِمِينَ عَذاباً أَلِيماً، وَ عاداً وَ ثَمُودَ وَ أَصْحابَ الرَّسِّ وَ قُرُوناً بَيْنَ ذلِكَ كَثِيراً، وَ كُلًّا ضَرَبْنا لَهُ الْأَمْثالَ وَ كُلًّا تَبَّرْنا تَتْبِيراً. «۲»

و فى بعض الأحيان يقدم لنا القرآن الكريم أسلوب الصيغة العامة لسنن التاريخ و القوانين و الضوابط التى تحكمه تكون منظارا للأمم و مسارها الاجتماعى الصحيح، كما فى قوله تعالى: وَ لَوْ يُؤاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِما كَسَبُوا ما تَرَكَ عَلى ظَهْرِها مِنْ دَابَّةٍ وَ لكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كانَ بِعِبادِهِ بَصِيراً. «۳»

فى المجتمع الواحد يتفاوت الناس فى مستوياتهم الإيمانية، و درجات التقوى لديهم، فليس كلهم ظلمة و لكن مع ذلك فإن عذاب رب العالمين يشمل الجميع فى المجتمع حينما يتخلى عن مسئوليته و يداهن الواقع السيئ دون أن يحرك ساكنا فحينها يكون شريكا فى تكريسه فيشمله العذاب أيضا، و هذه هى إحدى السنن التاريخية فى القرآن.

اعملوا ...

بنى الكون على الحركة و النشاط و الحيوية، فكان من جماله أن لا تبقى الموجودات فيه على سكون، بل بتحركها تزيده جمالا و دقة و تنظيما، فتراه

---

(۱) سورة القصص آية ۷۶

(۲) سورة الفرقان آية (۳۷- ۳۹)

(۳) سورة فاطر آية ۴۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۷

دائما فى حركة منظمة متناسبة و منسجمة مع بعضها البعض، فليست هى حركة عشوائية أو مجرد حركات شكلية كالصور التى يرسمها الفنان، و يضع أشكالها حسبما يريده.

الشمس تتحرك فى فلكها و لو قدّر لها أن انحرفت قليلا لاختل ميزان الكون، و القمر يستمد ضوءه من الشمس ليلا.

و كما أن الإنسان يموت و يولد فالكواكب و المجرات تموت و تولد، أ ليس العلم قد سجّل حالة من ذلك و هى ولادة مجرّة جديدة فى النظام الشمسى. «۱»

إِنَّا زَيَّنَّا السَّماءَ الدُّنْيا بِزِينَةٍ الْكَواكِبِ. «۲»

وَ لَقَدْ جَعَلْنا فِي السَّماءِ بُرُوجاً وَ زَيَّنَّاها لِلنَّاظِرِينَ. «۳»

و ليس الكواكب و المجرات وحدها فى هذا الكون، بل هناك مخلوقات متحركة، بل حتى الحيوان و النبات و الإنسان فهو يمر فى مراحل متحركة عمودية و أفقية، فهو يتحرك فى مكانه حيث ينمو و يكبر و يتغير و يتلون و يتلاشى و يتحرك من مكان إلى أى مكان حسب قدراته و طاقاته و إمكانيته المحدودة، فهو فى حركة دائمة، و ذلك ما أعطى لهذا الوجود جمالا و رونقا و زينة، قال سبحانه و تعالى: إِنَّا جَعَلْنا ما عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَها. «۴»

---

(۱) ذكرت ذلك جريدة الحياة ببيروت العدد الصادر بتاريخ ۵/ ۴/ ۹۶ م

(۲) سورة الصافات آية ۶

(۳) سورة الحجر آية ۱۶

(۴) سورة الكهف آية ۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۸

و يقول أيضا: الْمالُ وَ الْبَنُونَ زِينَةُ الْحَياةِ الدُّنْيا. «۱»

و يقول أيضا: وَ الْخَيْلَ وَ الْبِغالَ وَ الْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوها وَ زِينَةً وَ يَخْلُقُ ما لا تَعْلَمُونَ. «۲»

و لعل أكثر المخلوقات حركة هو الإنسان فيستفيد من تسخير الحركة و ذلك النشاط فى خدمته و خدمة الإنسانية، باستغلال تلك الطاقات المودعة فى هذا الكون و القوى و الإمكانيات الموجودة على هذه الأرض باستخدام عقله، و بما يمتلك من حرية و إرادة واعية لما تفعل، حيث لا نجد ذلك فى بقية مخلوقات اللّه فى هذا الكون فهى إما مسيّرة فلا حرية لها، أو مطلقة الحرية فلا عقل لها.

و لعل الحركة و النشاط هى التى تميز بها الإنسان فى هذا الوجود، و عقله متفوقا فى الحياة، و القرآن الكريم قد دعا الإنسان إلى رفض الجمود، و الابتعاد عن الكسل و الخمول فى الحياة لأنه يفقدها العطاء، و بالتالى تموت، و يموت معها كل شىء، فتصبح جحيما لا يطاق.

و قد جاء القرآن و دعا إلى ما يتوافق مع فطرة الإنسان و طبيعته، ليجعل محل الكسل و التوانى و الجمود مكانه العمل الدءوب، و قد

ركّز عليه من خلال آياته التى وردت فى الكتاب العزيز فى أكثر من (۳۰۰) آية «۳» حيث أن الإنسان رهين بعمله و بدون العمل، لا يتقدم و لا تتقدم، معه الحياة، و لا خطوة واحدة.

---

(۱) سورة الكهف آية ۴۶

(۲) سورة النحل آية ۸

(۳) يراجع المعجم المفهرس (مادة عمل)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۶۹

و قد جعل القرآن محور الأعمال العمل الصالح الذى به تتقدم الحياة، و يتقدم الإنسان، و لذا نجد أن القرآن قد شبّه العمل بالطائر فى قوله سبحانه و تعالى: وَ كُلَّ إِنسانٍ أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ. «۱»

فالطائر الذى ألزمه اللّه الإنسان فى عنقه هو عمله، و معنى إلزامه إياه أن اللّه قضى أن يقوم كل عمل بعامله، و يعود إليه خيره و شره و نفعه و ضره، و قد استفيد من قوله تعالى: وَ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ... إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ «۲» فمن القضاء المحتوم أن حسن العاقبة للإيمان و التقوى، و سوء العاقبة للكفر و المعصية.

«و لازم ذلك أن يكون مع كل إنسان من عمله ما يعين له حاله فى عاقبة أمره معية لازمه لا يتركه، و تعيينا قطعيا لا يخطئ و لا يغلط، و أن مصير الطاعة إلى الجنة، و مصير المعصية إلى النار». «۳»

و التقدم السليم لا يقوم إلا إذا روعيت فيه شروط الإنسانية، حتى لا يخرج عن إطارها إلى الهمجية و البربرية فيستغل ذلك التقدم فى دمار الإنسان، و ضياعه بين الآلة الحديثة التى أصبح جزءا منها.

قال تعالى: إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها. «۴»

و قال أيضا:

---

(۱) سورة الإسراء آية ۱۳

(۲) سورة الحجر آية (۴۳- ۴۵)

(۳) الميزان (ج ۱۳) ص ۵۵

(۴) سورة الإسراء آية ۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۰

مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً. «۱»

فيطرح القرآن معادلة العمل الصالح كى يؤدى إلى التقدم السليم، فيقول ربّنا سبحانه و تعالى: وَ أَمَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً فَلَهُ جَزاءً الْحُسْنى. «۲»

فالإنسان المؤمن زائد العمل الصالح يساوى التقدم السليم فيقول ربّنا عز و جل: وَ أَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى. «۳»

كُلًّا نُمِدُّ هؤُلاءِ وَ هَؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وَ ما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً «۴» و الفرق فى ذلك أيضا أن المؤمن من ينظر بعين البصيرة، لامتلاكه الرؤية البعيدة للمستقبل، دون النظر إلى الشهرة أو اللحظة الراهنة أو المصلحة السياسية، أو ما شابه، بعكس من لا يمتلك الإيمان أو روحه، فهو لا ينظر بهذه النظرة الإيمانية الثاقبة.

و عمل المؤمن قد يبقى، و يثاب عليه فى الدنيا و الآخرة لأنه انطلق من النية النابعة من إيمانه الراسخ.

و يبقى أن ننبه إلى أن العمل مطلق لا ينحصر بالمؤمن فقط، فالكل يعمل، و لكن الفرق فى نوعية العمل و وجهته، أ هى إلى الخير أم

إلى الشر، إلى السعادة أم إلى الشقاء.

ما أن منطلق العمل أ هو النية الخالصة نتيجة العقيدة السليمة أم الهوى و

---

(۱) سورة النحل آية ۹۷

(۲) سورة الكهف آية ۸۸

(۳) سورة النجم آية ۳۹

(۴) سورة الإسراء آية ۲۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۱

المصلحة و الأغراض الشخصية!.

النية الصالحة لا تنبع إلا من الإيمان و هى التى تنتج العمل الصالح،

عن الإمام الصادق (ع): «لا قول إلا بعمل و لا قول و لا عمل إلا بالنية و لا قول و لا عمل و لا نية إلا بإصابة السنة». «۱»

---

(۱) أصول الكافى (ج ۱) ص ۷۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۲

إلى السلام .. إلى الرفاه:

كل آيات القرآن دعوة إلى السلام، فلم يقتصر القرآن على آيات عدة دعت المسلمين إلى أن يدخلوا فى السلم كافة، بل لم يكن الهدف من الدعوة الإسلامية إلا لينعم الناس، و يسعدوا فى الحياة الدنيا، و يستظلوا تحت ظل العدالة الإسلامية القائمة على مبدأ الحق و المساواة، و بذلك يرتفع الظلم بين البشر فلا ظالم إلا و قد اقتص منه، و لا مظلوم إلا و قد أخذ له حقه فيأمن المجتمع و يعيش فى سلام دائم، يقول سبحانه و تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ. «۱»

و هكذا كانت رسالات ربّنا فقد جاءت إلى الناس بما فيه خيرهم و شرهم، و بشّرتهم بالحياة السعيدة بدعوتهم إلى عبادة اللّه القائمة على توحيده، و نفى الشرك و نبذ عبادة الأصنام، فيقول سبحانه و تعالى: وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ. «۲»

و القرآن بذلك أراد أن يبنى مجتمعا بل أمة تسودها قيم صادقة كقيمة العدالة يشترك فيها المجتمع، و ينعم تحت ظلها كل البشر.

و ليست العدالة إلا قيمة من القيم التى ركّز عليها القرآن من مجموعة قيم أخرى لها مدخلية فى أمن و استقرار المجتمع، كالقيم الأخلاقية مثل الصدق و الوفاء و الحلم و العطف و الإيثار و الرحمة، كل هذه بجعل من الإنسان محترما لمشاعر الناس و لا يتعدى على حقوقهم الشخصية أو الحقوق العامة،

---

(۱) سورة الحديد آية ۲۵

(۲) سورة هود آية ۶۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۳

حينما تنعكس هذه القيم على شخصيته فيكون ملتزما بها.

و القيم الاجتماعية و الآداب الإسلامية جاءت لترسيخ جذور المحبة و السلام كى ينعم هذا الإنسان بالخير و الرفاه.

و قد اعتبر القرآن السلام أصلا من أصول الحياة و أعطاه أهمية كبرى، بل و قد أصّله عن طريق كل السبل المؤدية إلى السلام، فقد قال سبحانه و تعالى:

قَدْ جاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَهُ سُبُلَ السَّلامِ. «۱»

و قد جاءت لفظة السلام مطلقة في القرآن الكريم بحيث تشمل كل طريق و سبيل يؤمن السلامة، و يبعد كل شقاء من شأنه أن يخل سعادة الحياة الهانئة في الدنيا و الآخرة.

و لذا جاءت فكرة الصلح بين الناس، و إقامة علاقات اجتماعية حسنه دون أن يشوبها شيء، و قد أفرد كل العلماء الأفاضل في رسائلهم العملية بابا خاصا باسم باب الصلح، و وضعوا شروطا خاصة بالمتصالحين من حيث البلوغ و العقل و الاختيار و القصد و عدم الحجر بسفه أو غيره ... الخ. و ما أهمية ذلك إلا لاهتمام القرآن بتحسين العلاقات الأخوية بين الناس كافة.

قال تعالى: ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَ بَيْنَهُ عَداوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ «۲» و بناء على ذلك قد وجّه القرآن دعوته إلى الناس للدخول في هذا الأصل و الاستجابة لنداء السماء في ترك اتباع خطوات الشيطان، قال تعالى:

---

(۱) سورة المائدة آية (۱۵- ۱۶)

(۲) سورة فصلت آية ۳۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۴

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. «۱»

و لعل السبيل إلى الأمن و الاستقرار و سيادة الحرية التامة في المجتمع، هو بسد كل الثغرات التي ينفث منها الفكر المسموم و الثقافة المنحرفة التي تؤدي إلى المشاحنات و البغضاء و العداوة، فلم ينظر القرآن إلى السلام إلا من خلال تلك الأهداف التي أراد تحقيقها كي تصل هذه الرسالة إلى العالم، و يقيموا حضارة قوية متماسكة. فكان السلام مبدأ و شعارا و لغة للتخاطب بين الناس، فقد أصّله القرآن على هذا الأساس عند لقائه لأخيه فيكون البدء في الحوار و الحديث، و يكون لغة مشتركة بين الألسنة المختلفة.

و لا يتحول ذلك المجتمع إلى حالة تأصيل هذا المبدأ إلا بالقضاء على عوامل الدمار و الهدم بقطع جذور الفساد و أسباب الحرمان و الاستغلال، فلا حرب حياها و لا استعمار و لا استبداد في الحكم، و ذلك لا يكون إلا ببث الوعي و الثقافة على جميع الأصعدة سواء سياسية كانت أو اجتماعية أو اقتصادية أو تربوية.

و حينها يسود السلام و إلّا فليس هو مجرد شعار أو إعلام تتبجح به المنظمات الحقوقية أو السياسية أو الدول الكبرى.

كل ذلك لأن دعوة القرآن للسلام دعوة مكملة للحياة، فالإنسان يطمح إلى حياة هادئة سليمة يسودها الأمن و الاستقرار، و لا يتم له ذلك إلا باتباع منهج ربّاني تستجيب له فطرته، و لا ينمو المجتمع نموا حضاريا و في كل

---

(۱) سورة البقرة آية ۲۰۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۵

الجوانب إلّا في ظل الاستقرار و الأمن، لأن بذلك يتوفر للإنسان المناخ الصالح، و الجو الملائم للتفكير و الإبداع، فلا مصادرة للحريات، و لا ضياع للحقوق، و لا نظام مستبد، يجر البلاد إلى حروب مدمرة.

و سيادة السلام دلالة على الوعي و الثقافة المتقدمة و الفهم الكامل للشريعة الغرّاء، و تطبيق واعي لمفاهيم القرآن، فالشعوب المتخلفة و البعيدة عن روح القرآن و الثقافة الإسلامية تعشعش فيها رواسب الجاهلية و التخلف، و تتحكم فيها النعرات و الأحقاد و الضغائن، و تنمو فيها أسباب العداء، فتتحول إلى مجتمعات متصارعة مع بعضها البعض، فتنشأ فيها الجريمة، و تكثر بينها الحروب.

و أول ما عالج القرآن لكى يسود السلام هو شخصية المسلم، فبادر إلى وضع مجموعة قواعد و أسس لبناء هذه الشخصية وفق هدى الشريعة و الأخلاق الإسلامية، فهذّب هذه النفس حينما دعاها إلى الدخول فى السلم، و ذلك بعدم إتباع خطوات الشيطان، كما فى الآية التى سبق الحديث عنها قوله تعالى:

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَ لا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطانِ. «۱»

يقول العلامة السيد محمد تقى المدرسى فى تفسير هذه الآية: أن رحاب السلام يتلوث بالحساسيات الصغيرة التى تتراكم على بعضها البعض حتى تصبح كسحابة، و على أى فرد مسلم داخل المجتمع أن يقاوم نمو هذه الحساسيات، و لا يتّبع خطوات الشيطان منذ البداية لأن الشيطان يستدرج

---

(۱) سورة البقرة آية ۲۰۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۶

الإنسان خطوة خطوة إلى الجحيم.

و لعل الاتصاف بصفة الإيمان تعتبر ركيزة أساسية فى ترسيخ حالة السلام، فهى دعوة موجهة إلى هؤلاء المؤمنين باللّه ممن طهرت نفوسهم، و خلصت للّه، و اتبعوا منهج الرحمن الداعى إلى التمسك بالحق، و ابتعدوا عن منهج الشيطان الداعى إلى الباطل.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۷

مع الأمة الواحدة:

أزمة الثقة اليوم أصبحت خطيرة فى النفوس الضعيفة و المشككة بكل شىء من حولها، خصوصا بعد توالى أزمات عديدة من التمزق الاجتماعى، و التخلف الحضارى الذى كان من نتاجه تقسيم الأمة الإسلامية الواحدة إلى عدة مجتمعات مقسمة تتفاوت صعودا و هبوطا فى مستواها الحضارى.

و أصبحت الوحدة حلم يراود جميع أبناء الأمة الإسلامية بل و فى بعض الأحيان أنها كالسراب اللامع من بعيد، صعب المنال، و مستحيل التحقيق.

هذا هو ما يتفق عليه أغلبية أبناء الأمة الإسلامية. فالكل يدّعى بأن شيئا أسمه الوحدة كان و لن يكون، و كلمة المستحيل هى التى طبعت فى أذهاننا لسنوات طوال، بعد ما عانينا من الضعف و التحلل بين أبناء الشعوب الإسلامية، و خصوصا تخلفنا على الصعيد التكنولوجى و الصناعى و التقنى أضاف إلى بلوانا و إحباطنا ويلات كثيرة.

و لكن كيف يمكن أن نمحو هذا الإحباط و نردّ هذا اليأس من جديد. فما هو السبيل لذلك؟! لعل هذا التصور ناشئ من عدم وضوح الرؤية المتكاملة لبرامج الشريعة الإسلامية فى نظرتها إلى الحياة العميلة، و كيف يتأقلم الإنسان فيها مع بنى البشر، و بعبارة أخرى عدم امتلاك معالم واضحة لبرنامج الإسلام فى كيفية الحكم و إدارة شئون الناس، و معرفة هذه المعالم تجعل من هذا الإنسان يمتلك رؤية واضحة حول برنامج الإسلام.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۸

على المسلم أن يبحث فى كتاب ربه عن نقاط القوة و نقاط الالتقاء بين أبناء المجتمع الواحد، و يبحث عن نقاط الضعف و الخلل الذى يمزق وحدة الأمة فيقاومه و يتصدى له، فالشعور بالإحباط و الحواجز النفسية و مشاكل الحياة المادية المتوارثة و المصطنعة- كالحدود و الإقليم و الوطن و القبيلة و الدم و العشيرة و العصبية و القوم- كل هذه حواجز دعا القرآن إلى عدم الاهتمام بها، و عدم جعلها عقبة أمام الالتقاء مع بعضنا البعض.

لم يلغها الدين من الأساس حيث لا يمكن ذلك، و لكن لم يجعلها أيضا مقياسا للتعامل بين الناس، بل جعل الإيمان هو المقياس لترفع تلك الحواجز، أو التخفيف من حدتها حتى لا يتحول المجتمع إلى أحزاب و جبهات قوميـة و وطنية و إقليمية متصارعة، و جعل نقطة الالتقاء هى توحيد (اللّه) و التوجه إليه، فقال سبحانه و تعالى: إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. «۱»

فالتوحيـد فعلا نقطـة التقاء بين البشـر مع اختلاف طبائعهم و أمزجتهم و مللهم، و القرآن رسالة رب العالمين، انه نقطة التقاء أخرى بين المسـلمين قاطبة مع اختلافهم فى الجنس و اللون و اللغة، فربهم واحد، و نبيهم واحد، و كتابهم القرآن واحد، و قبلتهم واحدة، و أبيهم واحد، و أمهم واحدة، فألغى الإسلام كل الفوارق الإقليمية و القومية و العرقية و ساوى بين أبناء الإنسانية

«كلكم من آدم، و آدم من تراب» «۲»

، و جعل المسـلمين الـذين ينضوون تحت رايـة «لا إله إلّا اللّه، محمـد رسول اللّه»، يتعاونون مع غيرهم من أبناء الـديانات الأخرى وفق مجموعة من القوانين و الشروط وضعها الإسلام

---

(۱) سورة الأنبياء آية ۹۲

(۲) بحار الأنوار (ج ۷۰) ص ۲۸۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۷۹

لتنظيم هذه العلاقة دون أن يكون هناك إجحاف أو تعرض لحق من حقوقهم، لأن التفاضل الحقيقى فى عرف الإسلام هو التقوى

قال رسول اللّه (ص): «لا فضل لعربى على عجمى و لا لأسود على أحمر إلا بالتقوى». «۱»

إذا وحـدة الأمـة فى إيمانها بالتوحيد فإنها و ان اختلفت فكريا و مذهبيا نتيجة الاجتهادات فهى تمتلك عناصـر الوحدة فلا مبرر لتفرقها بعد ذلك، و هذه هى حقيقة الإيمان باللّه سبحانه الذى يعد أصلا من الأصول، و عليه تقوم وحدة هذه الأمة وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. «۲»

و تحقيق هذه الدعوة القرآنية التى تكررت فى آياته بامتلاك الوسائل و الأساليب الكفيلة بتطبيقها، فهى ليست شعارا أو مادة إعلامية، بل هى دعوة حقيقيـة لبناء حياة جديـدة تختلف عن تلك التى اعتادها الناس، فقد اعتادوا بأن يعيشوا مع أبناء قومهم أو عشيـرتهم دون الاختلاط مع جنس آخر، فالقرآن أراد أن تكون هذه الجنسيات تتأقلم مع بعضها البعض برفع تلك الحواجز النفسية و المادية و العرقية فى حيـاة جديـدة، كمـا صنع أول الـدعوة نبى الإسـلام محمـد بن عبـد اللّه (ص)، فبنى تلـك الأمـة الواحـدة التى اشتركت فيهـا كل الجنسـيات تحت رايـة واحـدة، و رب واحد، و عقيدة واحدة، فخاطبهم القرآن قائلا كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. «۳»

و لعل القرآن يشير موضحا إلى العوامل التى جعلت هذه الأمة أمة واحدة

---

(۱) الترغيب (ج ۳) ص ۶۱۲

(۲) سورة الأنبياء آية ۹۲

(۳) سورة آل عمران آية ۱۱۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۰

متماسـكة البنـاء داخليـا تهابها الأمم الأخرى خارجيا، و كانت خير الأمم، لأنها اعتمـدت الإيمان باللّه وَ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ سـلوكا و منهجا و قاعدة للانطلاق لبناء هذه الحضارة فكانوا حياتها، كما قال سبحانه و تعالى: تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ.

كما أن القرآن يشير فى آيات أخرى إلى منع حالـة التمزق، و ما ينتـج عنها من مضاعفات تؤدى إلى جعل هذه الأمة متفرقة، و تكون لقمـة سائغـة للعـدو متى ما شاء انقضّ عليها، فيقول سبحانه و تعالى: وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَ اخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْبَيِّناتُ وَ

أولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ. «۱»

و دعوة القرآن إلى إيجاد هذه الأمة كى تحقق نتائج إيجابية على صعيد المجتمعات المنضوية تحت هذه الوحدة حينما تسقط كل العوامل التى تؤدى إلى التمزق، فتنشط هذه المجتمعات فى سعيها لتحقيق سعادة الحياة الإنسانية بمبدإ العمل الصالح القائم على أساس الإيمان الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ «۲»، و التكافل الاجتماعى القائم على أساس العدالة و المساواة و حرية الفرد المقننة ضمن ضوابط الشريعة، كل ذلك حياها يؤدى إلى استقلالية هذه الأمة فى كل شىء، فيكون الاكتفاء الذاتى سمة رئيسية تتسم بها، فتكون مصدر خير و إلى خير، كما كانت حينما كانت تأمر بالمعروف، و تنهى عن المنكر، و تؤمن باللّه.

من هذا المنطلق نجد القرآن يؤكد على الالتزام بعناصر القوة فى المجتمع، للحفاظ على تماسكه، و رفض كل عوامل الهدم و التفرقة و تمزيق وحدة

---

(۱) سورة آل عمران آية ۱۰۵

(۲) سورة الرعد آية ۲۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۱

الصف، فيلغى العصبيات الجاهلية، و كما يجعل مقياس الإيمان كذلك مقياس تكافؤ الفرص من غير فرق بين أصناف المسلمين.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۳

۱۰ القرآن هو البديل

اشارة

* تساؤلات* محاولات يائسة* الجانب العلمى* التطور و التحديث* الجانب الانسانى و بناء الحضارة

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۵

تساؤلات

اشارة

هل هناك بديل عن القرآن؟

و ما هو ذلك البديل إن وجد و هل جربناه؟

و هل نجحنا فى تجربتنا، ثم ما ذا انكشف لنا من تلك التجربة؟

نجد الجواب على هذه التساؤلات فى أربعة أمور:

أولا: التاريخ

استقراء تاريخ البشرية و دراسة الماضى للأمم و الحضارات مسألة يؤكد عليها القرآن، كى يثبت من خلال ذلك أن الارتباط بالسماء يشكل عنصر قوة لبقاء تلك الحضارة و تلك الأمة، فيقول ربنا سبحانه و تعالى: قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ وَ هُدىً وَ مَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ. «۱»

و القرآن الكريم كتاب سماوى بيّن لنا بوضوح مدى ارتباط الإنسان بالسماء، و هو ارتباط بمصدر الخلق و الفيض الإلهى، و قد أشار

إلى ضرورة النظر فى أحوال الماضيين، و جاء لنا بشىء من التفصيل عن مسيرة بعض الأقوام مع أنبيائهم و رسلهم، و مدى الدمار الذى لحق بهم من جرّاء تعنتهم و بغضهم للحق الإلهى، و كذلك تكذيبهم للمبشرين و المبعوثين لهم.

و ما تلك الشواهد التاريخية الكثيرة فى القرآن إلا من أجل أن يثبت أن هذه التحولات التاريخية و عدم استقرار الحضارات و سقوطها يكمن فى تلك الإرادة

---

(۱) سورة آل عمران آية (۱۳۷- ۱۳۸)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۶

الإنسانية، و موقف البشر حينما استخلفه اللّه فى الأرض، كما فى قوله تعالى:

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَ أَشْفَقْنَ مِنْها وَ حَمَلَهَا الْإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولًا. «۱»

فنقض تلك المواثيق و العهود التى كانت بينه و بين ربه، و تخلى عن المسئولية، ففصل بذلك نفسه عن السماء فسقط، و هوى.

ثانيا: تجارب البشر

و كما تكون حوادث التاريخ استشهادا واعظا لنا، و دليلا كافيا على صحة أقوال القرآن، فكذلك أيضا تجارب البشر، و ما أنتجته من نظريات و آراء و قوانين تقلبت فيها أحوال الناس، و انتقلت من تجربة، إلى تجربة و لم تقف عند تجربة معينة حينما كانت تكتشف خطأ التى قبلها، و لنأخذ مثالا على ذلك ما جاء به ماركس الذى أفسد عقول الكثير من الناس.

و ملخص نظريته أن التباين الاجتماعى و الأخلاقى قد حصر أثره فى العلاقات المادية بين البشر، متوهما بأن تبدل هذه العلاقات المادية فى المجتمع و لو بالقوة، و إجبار الناس عليها، و إلغاء أى دور للدين هذا ما سيلغى التمايز الطبقى، و يكون مدعاة لتكوين النموذج الأمثل فى العلاقات الإنسانية، و لكن مرت السنون و توالت التجارب و الأحداث و انكشفت الأخطاء، و ما كان الحصاد إلا الفشل، فى حين أن القرآن الكريم وضع حلا للمجتمع السليم و هو حالة التوازن بين القيم الروحية و المادية، كما فى قوله تعالى: يا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّباتِ وَ اعْمَلُوا صالِحاً. «۲»

---

(۱) سورة الأحزاب آية ۷۲

(۲) سورة المؤمنون آية ۵۱.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۷

الإنسان إلى جانب تمتعه بما لذّ و طاب فى الحياة الدنيا عليه أن يعمل صالحا أى يرضى ربه، و الناس من حوله، و هذا هو نموذج بسيط لعملية التوازن فى المجتمع.

لم يصل الإنسان إلى ذلك لو لا الرجوع للقرآن الكريم، و اللجوء للّه سبحانه و تعالى مدبّر الكون، و خالق الخلق.

ثالثا: العقلاء

العقلاء يعتمدون قواعد تجعلهم يقارنون بين ما جاء به القرآن و رسالات السماء، و ما جاءوا به من عند أنفسهم، فيجعلون التناقض و التضاد قاعدة عقلية لرفض ما لا يتفق و هذه القاعدة، كما و يعتمدون النظر لمعرفة هذه الحقائق القرآنية، و انسجامها مع العقل، و عدم مخالفتها لها، و موافقتها للفطرة و طبيعة البشر، فتتأكد لديهم أن القرآن متناسق فى كل أبعاده الفكرية و التقنية و الإنسانية مع هذا المخلوق البشرى، فهم بذلك يؤكدون على أن القرآن ليس من صنع البشر، لأنه لا يستطيع أن يضع قانونا لنفسه لان القانون لا بد أن

يضبطه واضع القانون.

رابعا: المؤمنون

يؤكد المؤمنون و من خلال الحياة التى عاشوها، و من جنبات الأجواء التى لمسوها بالتقرب إلى القرآن، بأن تركهم له و لتعاليمه تتحول حياتهم إلى حياة الضيق، و معيشتهم يحفها الضنك و يحيط بها المصائب حيث أنها حقيقة قرآنية:
وَ مَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِی فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ أَعْمی. «۱»

---

(۱) سورة طه آية ۱۲۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۸

محاولات يائسة:

اشارة

الصراع مستمر بين الحق و الباطل، و ذلك أن القرآن يمثل الحق، و هو من اللّه سبحانه و تعالى، و الباطل له أبواق و كتابات و أطروحات و ثقافات منحرفة و بين هذا و ذاك تحدث المعركة، و هكذا اقتضت سنة الحياة بوجود هذا الصراع بين الحق كثقافة إلهية و الباطل كخواء شيطانى.
من ذلك نلاحظ أن الجاهلية الأولى و مع تجذرها و بما كانت تملك من وسائل و أساليب علمية و فنية، بل و بما كان لديها من أدوات غير علمية كالسحر و الشعوذة و الكهانة، و بما هناك من وجاهات و أساطين المجتمع المسيطرة عليه بل و المحتكرة لأمر القيمومة على أناسه و ما يملكون، بكل ذلك لم تستطع القوى أن تهزم الفكر القرآنى رغم حداثته و رغم قلة المؤمنين به فى بداية انبثاقه، بل إن القرآن هو الذى حسم المعركة لصالحه، و تهاوت الأصنام، و تهاوت معها كيانات الشتات الجاهلى البدوى.
و لكن بعد النكسة التى أصيبت بها الأمة الإسلامية، و انحرافها عن القرآن، و اتخاذهم إياه مهجورا، و عند ما نبذوه وراء ظهورهم تسللت الجاهلية الثانية فى زمن الانكسارات العربية فى القرون الأولى إثر التجارب الفاشلة المحتكرة للسلطة سواء منها الأموية أو العباسية أو من جاء بعدهم عثمانيين و غيرهم من سلطنات فى صحارى بلاد الإسلام و ديارة، تسللت أفكار و هبّت علينا رياح ثقافات شرقية و غربية مدّعية أن ما أصابنا من تخلف عن الحضارة، و ما نحن فيه من دركات الجهل، ليس إلا لالتزامنا بالتراث القديم، و محاولة التشبث بالقرآن الذى لا يلائم عصر التكنولوجيا، ثم أضافوا أن القوانين الإسلامية كانت تصلح مع أهل الصحراء و البادية حيث بدأت هناك،

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۸۹

و عاشت، و ترعرعت مع مجموعة من البدو. فقطع يد السارق، و رجم الزانى أو جلده و بقية أحكام القصاص، و حرمة الربا و الأحكام المتعلقة بالمرأة و الأسرة، كل هذه القضايا بحسب زعمهم لا تتوافق مع التطور الحاصل، و لا تتواكب مع الأحكام السياسية و النظريات الاقتصادية الجديدة، و قالوا أخيرا إن الزمن قد فاق القرآن، و تجاوزه، ثم قرروا فصل القرآن عن الحياة، و اعتباره كتابا تراثيا باليا، كان ربما صالحا يوما من الأيام!!! و تلك المحاولات قد تأثر بها بعض مثقفى الأمة الإسلامية، و ترجموا ذلك فى كتاباتهم، محاولين أن يثبتوا ذلك فى وسط الشباب المسلم ليشككوهم فى القرآن و لكن باءت كل محاولاتهم و سقطت أقنعتهم الزائفة. و كما أن الفشل كان من نصيب زعماء الجاهلية الأولى، كذلك كان حليف هؤلاء المتزعمين أو المتأثرين بالجاهلية الثانية و تياراتها الضالة، لقد

واجهوا فشلا ذريعا، و لم يستطع أحد أن يتخطى الفكر القرآنى، بل تجلّت آيات التحدى القرآنية أكثر و أكثر، و حيث كان سكون انتكاستهم تعالى صوت الترتيل القرآنى فى سماء الدنيا، و فى آفاقها مجلجلا:

قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً. «۱»

إن هذه الآية الكريمة كانت تفسر سابقا فى التحدى البلاغى أمام قوة بلاغة العرب، و انهماكهم فى العربية، و إبداعاتهم فيها تعمقا و شمولية، و لكن الواقع أن الكتاب الكريم و كما كان يتحدى تلك الأقوام بما أبدعوا فيه من بلاغة و فصاحة، فانه أيضا يتحدى زعماء الكفر المعاصرين، و منظرى الثقافات

---

(۱) سورة الإسراء آية ۸۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۰

الفاسدة، و ذلك ببيان مجموعة جوانب تثبت أن القرآن الكريم يتقدم بأطروحة متكاملة و متناسقة لا تشوبها أية نواقص. و يثبت أيضا بأنه منهج قويم صالح لكل زمان و مكان. و هناك جوانب كثيرة يتبينها القارئ الدارس للقرآن إلا أننا سنعرض بعضها بشىء من التفصيل:

- الجانب التشريعى.
- الجانب العلمى.
- التطور و التحديث.
- الجانب الإنسانى و بناء الحضارة.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۱

الجانب التشريعى

اشارة

حينما خلق اللّه الإنسان جعله فى دائرة لطفه، و سكب عليه ألطاف رحمته، و حين خلقهم فانه هداهم للإيمان، و أرشدهم إلى سبيله، حيث أرسل لهم رسله، و معهم الكتب التى تحوى على تلك البرامج و الدساتير إلى أن ختمها بنبوة النبى محمد بن عبد اللّه (ص) و التى تمثلت فى دين الإسلام و كتابه القرآن.

و فعلا كان هذا الدين الخاتم هو الإسلام، حيث يقول ربنا سبحانه و تعالى:

إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلامُ. «۱»

وَ مَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ. «۲»

فالإسلام و حسبما يتبادر إلى أذهاننا هو أول مراتب العبودية، و الأخذ بالاعتقادات القائمة عليها أصول الدين الإسلامى، و لكن هل هذا الإسلام بالمعنى الأولى البسيط يكفى أم أن هناك مراتب و درجات أخرى؟

نعم .. هناك مراتب أخرى يتوجب على الإنسان المسلم أن يترجمها بإيمانه إلى عمل دينى يمارسه فى حياته، حتى يحقق بتلك الممارسة تمام العبودية فيتم ذلك الإسلام الاختيارى لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ. «۳» و ذلك بتسليم العبد، و بكل ما يملك تسليما مطلقا إلى ربه.

و لن يكتمل هذا الدين و هو الإسلام بمجرد التسليم و الخضوع القلبى و العملى إلا من خلال شريعة و طريقة قد أعدتها السماء، كى

يسير عليها هذا

---

(۱) سورة آل عمران آية ۱۹

(۲) سورة آل عمران آية ۸۵

(۳) سورة البقرة آية ۲۵۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۲

الإنسان، و ينضبط من خلالها، و هذه هى سمة رسالات السماء، حيث يقول ربنا، سبحانه و تعالى: لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً. «۱»

الشريعة التى تستتبع الإلزام و الإتباع، و تكون بمثابة القانون الملزم للفرد، و تكون أيضا برنامجا تطبيقيا له فى الحياة، كما يقول اللّه سبحانه و تعالى: ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ. «۲»

هذه الشريعة المستندة إلى اللّه، و المبينة لهذا الدين تكون طريقة و منهاجا لهذا الإنسان، تمهد له الطريق، و تجعله يسير فى الحياة ببصيرة و وعى، يتخطى من خلالها كل العقبات التى تعترضه، و يتجاوز بها كل السلبيات التى توقعه فى الزلل و الخطأ، و تنور قلبه بالعلم و المعرفة، فيتوصل من خلالها إلى معرفة الحقائق، و تتجلى له الأمور، و تتضح له معالم الطريق إلى اللّه و إلى الكون و إلى نفسه.

و لهذا أطلق القرآن مصطلح الشريعة، و هى مجموعة وصايا جاء بها الأنبياء كى يسلكها الناس فى الحياة، فيقول سبحانه و تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ما وَصَّى بِهِ نُوحاً وَ الَّذِى أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَ ما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَ مُوسى وَ عِيسى. «۳»

الشريعة إذا هى تلك الوصايا التى جاء بها نوح و إبراهيم و موسى و عيسى مضافا إليها ما جاء به النبى (ص)، لأن الشرائع فى الحقيقة هى واحدة فى جوهرها، و إن اختلفت بحسب اختلاف الأمم إلا أن هناك قواعد أساسية تشترك فيها كل رسالات السماء باعتبار مصدرها الواحد، فهى لا تختلف فى حقيقتها أبدا. و من السمات الرئيسية التى اتصف بها القرآن هو امتيازه بهذا

---

(۱) سورة المائدة آية ۴۸

(۲) سورة الجاثية آية ۱۸

(۳) سورة الشورى آية ۱۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۳

الجانب التشريعى المسند إلى اللّه سبحانه، حيث شرع فيه كل قانون يحتاجه البشر فلا يجوز لهم تشريع أى قانون منهم، و إنما يحق لهم تأطير هذه القوانين فى قوالب زمنية و مكانية بملاحظة الأهم و المهم، باعتبار أن قوانين البشر غير صالحة لأنها ليست من عند اللّه، و كل قانون لا يسند إلى اللّه لا يزيد البشر إلا مشكلة و تعقيدا، و يفتقد إلى قابلية البقاء و ديمومة الصواب.

و هناك ضرورة تؤكد على وضع القانون الملائم للإنسان و هى موافقته لفطرته، فلا يمكن أن يحمّل الإنسان فوق طاقته بوضع قوانين لا وسع له بها، و لا طاقة.

و لا يكون ذلك إلا من خالق هذه الفطرة حيث انه يحيط بكل جوانب النفس البشرية، فليست هذه القدرة موجودة لدى الإنسان، فهو غير قادر على إيجاد القانون الملائم لنفسه فكيف لغيره؟! فبناء على ذلك لا يجوز للإنسان تشريع أى قانون إطلاقا، و إنما أخذه من القرآن حيث اشتمل على كل قانون بما ذكره لنا النبى (ص) و الأئمة الأطهار (ع).

شأن المجتهدين:

هنا يأتى دور الفقهاء المجتهدين فى فهم معرفة القانون المسمّى بالحكم الشرعى، و استنباطه من القرآن، و السنة الواردة عن النبى (ص)، و الأئمة الأطهار (ع)، و ذلك لا- يتسنى إلا- لهؤلاء باعتبارهم قد درسوا الشريعة، و أصولها كمن يتخصص اليوم فى معرفة القانون الحديث، فهؤلاء تخصصوا فى معرفة و فهم الكتاب و السنة، و أصبحت لديهم الملكة و القدرة الفعلية على استخراج القانون الموجود فى الكتاب المقدس.

و الاجتهاد ليس عملية استحداث قانون غير موجود، و إنما هو البحث

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۴

عن القانون الموجود، و إقامة الدليل عليه، كى يكون مستندا إلى اللّه عز و جل، و هو ليس بديلا عن القرآن بل هو البحث فى القرآن عند أهل الاختصاص.

فالتشريع ثابت و أحكام الشريعة ثابتة لأنها خارج نطاق البشر، فما عندهم يسند إما إلى المادة أو الهوى أو السلطة، فالقانون النابع من هذه الأمور الثلاثة يذهب بذهابها، و يتغير بمجرد أى خلل يحدث فيها، أ لا ترى بعض الأنظمة السياسية كيف تغير القانون بمجرد تغير النظام؟.

فهذا النظام يرى ما لا يراه النظام الماضى، و هكذا الإنسان فى الحياة مهما كان حرا و نزيها فانه لا يستطيع أن يخرج من إطاره المحيط به و تقاليده و أهوائه التى تعمل فى نفسه، فقانونه يصطبغ بتلك الأهواء و الظروف فبتغيرها يتغير القانون، أما القانون الإلهى فلن نجد فيه تحويلا و لا تبديلا، كما يقول سبحانه و تعالى: فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا «۱» لأنه نابع من اللّه خالق الإنسان، يقول آية اللّه الشيرازى فى كتابه الفقه- القرآن: «أما اللّه سبحانه فليس له زمان و مكان و لا أهواء و عواطف و لا حاجة و إعوزاز و لا ظروف مادية أو معنوية يريدها لنفسه، و لذا يكون قانونه مستندا من صرف مصلحة الإنسان بالإضافة إلى انه عالم بالإنسان فلا يكون قانونه غير ملائم للإنسان، و هذا هو سبب أبدية قانون القرآن، و كونه ملائما للبشر، و صالحا لهم على مدى الأوقات و فى كل الأماكن». «۲» و هذا التشريع الأمثل للإنسانية، و القانون الأقوم للحياة، الذى جاء به القرآن، قد اثبت أصالته و شموليته و هيمنته على جميع شئون الحياة.

---

(۱) سورة فاطر آية ۴۳

(۲) الفقه- القرآن ص ۱۱۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۵

و لعل ثبات التشريع هو من ثبات القيم الراسخة التى دعا إليها القرآن، فقيمة العدالة و المساواة و الحرية و كرامة الإنسان، كل هذه اقتضت إيجاد قواعد و تشريعات قائمة على أساسها، فالأحكام الاعتقادية و الأخلاقية، و الأخرى العملية كالعبادات و المعاملات، و الاجتماعية التى تتعلق بتنظيم الأسرة و أحكام الزوجية كالنكاح و الطلاق و الإرث، كل هذه نابعة من تلك القيم، و أكبرها هى اللطف و الرحمة بعباده، فما كان منه إلا أن يأتى لهم بما يحقق ذلك اللطف، و تلك الرحمة فى سن كل ما يكفل احتياجات الإنسانية على كل مستوى و صعيد.

الجانب العلمى

اشارة

نلاحظ أن هناك تعظيما للعلم فى كتاب اللّه باعتباره رسالة تخدم البشرية، فتكون محترمة من قبله، حينما يتوجه الإنسان لاستغلالها فى مسارها الصحيح، و يستفيد منها لخدمته، باعتبارها أداة و وسيلة إلى مصالحه الدنيوية، لتحقيق السعادة التى يصبوا إليها، فبهذه الرسالة يرفع عنه الضيق المادى و الحرج الاجتماعى، ساعيا لتسخير كل ما يمتلك من موارد، و ثروات طبيعية فى هذه الأرض باستخدام عقله لتحويلها إلى تقنية متجددة فى لباس آخر غير لباسها التى هى عليه، و هى مواد خام، فتكون الاستفادة حينها ذات قيمة، و اكثر تطورا، و اقل كلفة، و اكبر راحة للإنسان.

إذا هذه الرسالة يجب أن تستغل فى خدمة البشرية، و أن توضع فى مكانها المناسب، و لذا أشار القرآن فى آيات كثيرة حول تعظيم هذه الرسالة، فقال سبحانه و تعالى: يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجاتٍ «۱»،

---

(۱) سورة المجادلة آية ۱۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۶

عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ «۱»، و فى تعظيم أهل العلم يقول جلّ شأنه: قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ «۲»، و هناك ثمانون آية وردت فى القرآن بلفظة العلم، و قد وردت هذه اللفظة بصيغ مختلفة كثيرا فى القرآن. «۳»

و كل ذلك التكرار ليس إلا تأكيدا على أهمية العلم، و خطورة عدم الالتزام بهذه الرسالة الإنسانية، و وفاء حقوقها فى كل المجالات التى تخدم البشر و دعوة القرآن إلى العلم لم تقتصر على تعلم على معين، بل أطلقت العنان إلى الإنسان ليسيح فى الأرض، و يسبح فى الفضاء، و أن يتعلم كل ما يوصله إلى التقدم و الرقى، و أن لا يقتصر طموح الإنسان على قضايا جزئية، و اكتشافات لا تتجاوز حدود ممارساته اليومية، بل هناك دعوة قرآنية صريحة إلى سبر هذا الفضاء، و الغوص فى أعماقه، و اكتشاف أسراره، و معرفة ما فيه، فيقول سبحانه: يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ. «۴»

فليست هناك محدودية للعلم، فمجاله واسع و بحره عميق،

يقول الإمام على بن أبى طالب عليه السلام: «العلم لا ينتهى» «۵»، «العلم اكبر من أن يحاط به» «۵».

«شيئان لا تبلغ غايتهما العلم و العقل» «۵».

---

(۱) سورة العلق آية ۵

(۲) سورة الزمر آية ۹

(۳) يراجع المعجم المفهرس مادة علم

(۴) سورة الرحمن آية ۳۳

(۵) غرر الحكم

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۷

و إنما المحدودية فى الإنسان فهو يأخذ من العلم حسب طاقاته و إمكانياته و قدرته، و بما يحتاج إليه فى مسيرة حياته فما يأخذه ما هو إلا القدر اليسير من العلم فيقول سبحانه و تعالى: وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا. «۱»

باعتبار أن الإنسان محدود فى كل الاتجاهات، فيكون حظه من العلم بمقدار حظه من الوجود، و لكن العلم بحر واسع يمتد بامتداد الزمن ما دام الإنسان موجودا.

فتتواصل المسيرة العلمية عبر المسيرة الزمنية بوجود الإنسان المتعاقب جيلا بعد جيل. و مع ذلك فان استلهام الإنسان العلمى و عطاءاته العلمية تبقى محدودة بحدود قدرته، فالتقدم العلمى المذهل فى عصرنا يدلل على أن قدراتنا العقلية و الحسية لا تستطيع أن تحيط

بالحقيقة المطلقة علما. و تبين أيضا أن المعرفة البشرية هى ليست كل ما لا تراه أجهزتنا ليس بموجود، و ربما ذلك إشارة إلى أن هناك علم آخر، و هو علم الغيب و ما وراء الطبيعة التى لا يصلها الإنسان، كما يقول ربنا سبحانه و تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ «۲»، و يقول أيضا: وَ لا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِما شاءَ. «۳»

و كذلك يقول جل و علا: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ «۴» إلا فى حدود ما انتم فيه مع ذلك فان القرآن اعتمد العلم، كما يقول سبحانه:

وَ لَقَدْ جِئْناهُمْ بِكِتابٍ فَصَّلْناهُ عَلى عِلْمٍ. «۵»

---

(۱) سورة الإسراء آية ۸۵

(۲) سورة الأنعام آية ۵۹

(۳) سورة البقرة آية ۲۵۵

(۴) سورة البقرة آية ۲۱۶

(۵) سورة الأعراف آية ۵۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۸

و اعتبره منظارا لمعرفة الحياة و الدخول إليها عن طريق معرفة الدين و الشريعة السماوية، و قد ذم الجهل و دعا إلى رفعه بالعلم و المعرفة، و لكى يكتمل العلم عند الإنسان، و تصبح رسالة يتحمل مسئوليتها أمام البشر، و يؤدى ما فيها على أكمل وجه دون أن يستغلها لأغراض شخصية، أو مصالح ذاتيه على حساب الشعوب.

القرآن يقرن العلم بالإيمان:

العلم و الإيمان فى المعادلة القرآنية يعنى تكوين ضوابط و حدود من الضمير و الخلق، و تنمية النوازع الإنسانية الفطرية حتى لا يصبح العلم أداة و وسيلة مدمرة للإنسان، فقد يصبح الطبيب متاجرا بطبه على حساب مرضاه، و المهندس لا يبالى بقتل المئات إذا تطلب تخطيطه بطريقة تزيد فى دخله، حينئذ يمسى العلم تجارة لا رسالة، و مهنة لا مسئولية، قال اللّه سبحانه و تعالى: يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ «۱» و عدم تحمل المسئولية التى أنيطت بهذا الإنسان يعتبر خيانة للدين و خيانة للناس لذا جاء فى الحديث الشريف عن النبى (ص): «تناصحوا فى العلم، و لا يكتم بعضكم بعضا فأن خيانة فى العلم اشد من خيانة فى المال». «۲»

فالعلم يبدأ بالإيمان و ينتهى إليه، لان العلم نور يهتدى به الإنسان إلى سبل الحياة و طرق النجاة، و لكى يكتمل العلم قرنه بالإيمان، فجعل أول الطريق إليه تعلم القراءة و الكتابة، و هى الخطوة الأولى فى سلم العلم، جعلها مقرونة بالإيمان حينما قال سبحانه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ،

---

(۱) سورة الجمعة آية ۲

(۲) كنز العمال خ ۲۸۹۹۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۱۹۹

اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. «۱»

فجعل العلم الذى تكون خطوته الأولى هى تعلم الكتابة و القراءة عَلَّمَ بِالْقَلَمِ قراءته تكون باسم الرب، يتجلى فيها الإيمان به، فيكون العلم رسالة حملها الإنسان نابعة من رسالة النبى (ص) و هى القرآن فالرسالة التى بعثت إلى النبى فى أول لقاء بينه و بين الوحى،

كانت الخطوة الأولى لهذه الرسالة العلم، و كانت بالقراءة و الكتابة، لكى تكون هذه الرسالة أساسها العلم و التعليم حتى ترتفع بالإنسان من حالة الحيوانية إلى حالة العلم، و يسمو به إلى آفاق التقدم.

و من يتلبس بلباس العلم، و لا ينتفع به، و لا يتحول لديه إلى سلوك و ممارسة، فلا فرق بينه و بين ذلك الحيوان الذى يحمل على ظهره الكتب، و قد شبّه القرآن ذلك بقوله: مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْراةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوها كَمَثَلِ الْحِمارِ يَحْمِلُ أَسْفاراً. «۲»

بين العينى و الكفائى:

تتأكد أهمية العلم من خلال بعض التشريعات التى وردت حوله فى الأحكام الفقهية فى مسألة وجوب تعلم العلوم و وجوب تعلم القرآن؟ فهل هذا التعلم واجب شرعى؟ و هل على العين أم الكفاية أم أحدها أم التفصيل؟

من خلال ما تقدم من تعظيم القرآن للعلم، و اعتماده إياه، و تأكيد الروايات الواردة عن النبى (ص) و الأئمة الأطهار (ع) إلى جانب العقل، كل ذلك يدل على وجوب التعلم و التعليم، و هى دعوة القرآن الأساسية.

---

(۱) سورة العلق آية (۱- ۴)

(۲) سورة الجمعة آية ۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۰

الفقهاء من جهتهم أشاروا إلى مسألة العينية و الكفائية بما يسقط التكليف، فقالوا: إن تعلم أصول الدين كالتوحيد و العدل و النبوة و الإمامة و المعاد، و تعلم بعض القرآن- كسورة الحمد و السورة لأجل الصلاة الواجبة واجب عينى، و لكن تعلم كل القرآن حفاظا عليه من الاندراس و الضّياع، و تعلم الصناعات و المهن، و الاشتغال بالطب و المهارات التى يحتاج إليها الناس، كل ذلك واجب على الكفاية، فإذا قام بعض المجتمع بهذه الأعمال فانه تحمّل قسطا كبيرا بقيامه بهذا الدور.

و فى هذه المسألة يذكر الفقهاء حكما شرعيا، و هو أن الواجب العينى فى مخالفته إثم يترتب على ذلك الفرد الذى خالف الواجب، و فى الكفائى لو لم يتحمل البعض إثم الجميع.

ما ذا تعنى هذه المسألة؟ و على ما ذا تدل؟

ما تعنيه هذه المسألة فى جوهرها و حقيقتها أن العلم أساس حياة الإنسان فبه يحيا و تحيا القلوب، و ليس هذا الواجب- عينيا كان أم كفائيا- إلا من الضرورة العقلية التى أكدتها شرائع السماء و منها القرآن، على أن الجهل حالة لا يرتضيها الإنسان و هى مذمومة من قبله، فلا يتقدم بها و لا خطوة واحدة.

للعلم قواعد و أسس:

اشارة

القرآن تبيان لكل شىء، أى أنه يحوى لكل العلوم الطبيعية و الإنسانية و غيرها. و يستدل على هذا الكلام بقوله تعالى: وَ لا رَطْبٍ وَ لا يابِسٍ إِلَّا فِى كِتابٍ مُبِينٍ. «۱»

---

(۱) سورة الأنعام آية ۵۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۱

و فی الحقیقة القرآن لا یتحدث عن أمور تکون فی زمن محدد و تنتهی، فلیست الکیمیاء و الفیزیاء و الأحیاء و الجغرافیا هی علوم ثابتة، بل هی متجددة و متغیرة و قد تنشأ منها علوم جدیدة.

و المراد من قوله: تِبْیاناً لِکُلِّ شَیْءٍ «۱» أی أن القرآن من شأنه أن یعطی للإنسان قواعد کیفیة التعرف علی العلوم، و یرشده إلی السبل و الطرق و الوسائل التی بها یکتشف العلوم. فمهمة القرآن تنحصر فی هدایة الإنسان و إرشاده ببیان الخطوط العامة، و القواعد الأساسیة التی ینطلق منها لتکوین حیاته، لیعیش وفق تلک الرؤی، و البصائر النابعة من القرآن، فالقرآن لیس کتابا علمیا یتحدث عن مجموعة علوم مستحدثة، و إن ذکرها فمن باب الاستطراد، و إلا فهو کتاب أبعد من ذلک، و اکبر من أن یتحدث بهذا الشکل التفصیلی فی قضایا متغیرة تحکم قواعدها تنظیرات و اکتشافات الإنسان غیر الیقینیة. إذا فما هی أسس و قواعد العلم التی قدمها لنا القرآن لننطلق منها، و نکتشف الحیاة و علومها؟

الأول: العلم بالقیم:

تحدث القرآن عن القیم و منها قیمة العلم، العدالة، الحق، الصدق، الإخلاص ... فإذا أردنا أن نتعلم من القرآن، و أن نأخذ العلم، فنأخذ بهذه القیم لأنها أصل الحیاة، و هی التی تبعث الإنسان، و تحرکه نحو التقدم و الرقی و التطور، و تجعل منه شخصا طموحا میّالا إلی الأفضل و الأحسن دائما، و لذا

جاء فی الحدیث عن أمیر المؤمنین (ع): «العلم حیاة» و «بالعلم تکون الحیاة»

---

(۱) سورة النحل آیة ۸۹ القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۲

و «و اکتسوا العلم یکسبکم الحیاة». «۱»

فبالعلم یحیا الإنسان و یتقدم، طریقه إلیه هو التزامه بهذه القیم. فالقرآن یخاطب النبی (ص) قائلا: وَ لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْواءَهُمْ بَعْدَ الَّذِی جاءَکَ مِنَ الْعِلْمِ «۲»، فلا یکون العلم الذی هو فی مقابل الهوی إلا بمعرفة هذه القیم و تعلمها، فإنها هی أصل العلم، و ما یؤکد هذه الفکرة هی هذه الحادثة التی تروی

عن النبی (ص): «انه دخل المسجد فإذا جماعة قد طافوا برجل فقال ما هذا؟

فقیل: علامة.

قال: و ما العلامة؟

قالوا: اعلم الناس بأنساب العرب، و وقائعها و أیام الجاهلیة و بالأشعار و العربیة.

فقال النبی (ص): ذاک علم لا یضر من جهله و لا ینفع من علمه.

ثم قال النبی (ص): إنما العلم ثلاثة، آیة محکمة أو فریضة عادلة أو سنة قائمة و ما خلاهن فهو فضل». «۳»

و هذه إشارة واضحة إلی أن العلم بالقیم التی یفهم الإنسان من خلالها کل العلوم.

الثانی: العلم بالواقع:

الکشف عن الحقائق و معرفة الأمور بحاجة إلی محاکاة الواقع میدانیا، و الاقتراب من المواضیع الخارجیة التی تکون مورد الابتلاء

للناس، و معرفة الظروف، و لا يتسنى ذلك إلا لذوى البصيرة الثاقبة، و الرؤية العلمية السليمة

---

(۱) غرر الحكم

(۲) سورة البقرة آية ۱۲۰

(۳) أصول الكافى (ج ۱) ص ۳۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۳

القائمة على قيم الدين و على العلم بها. فالعلم فى هذه الصورة الثانية هو كشف عن واقع ملموس فى الخارج و إلا كان مخزونا فى الصدور بلا فائدة منه.

و ربما نقول بشكل أوضح أن العلم بالواقع هو ملامسة القضايا الخارجية لمعرفة الجانب التطبيقى، فلا يكفى أن تعلم، و أن تتحلى بصفة العلم، و تكون علّامة زمانك إن لم يتحول العلم إلى آلية تتحرك فى المجتمع، و تقنية تعالج مشاكله، و لذا خاطب القرآن أهل الكتاب، محذرا إياهم إن لم يحولوا ذلك العلم إلى واقع عملى.

فقال سبحانه: قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ لَسْتُمْ عَلى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ ما أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ «۱» و

جاء رجل إلى رسول اللّه (ص) فقال يا رسول اللّه: ما العلم؟

قال: الإنصات.

قال: ثم مه؟

قال: الاستماع.

قال: ثم مه؟

قال: الحفظ.

قال: ثم مه؟

قال: العمل به.

قال: ثم مه يا رسول اللّه؟

قال: نشره. «۲»

فالقرآن كتاب السماء يدلك على دراسة ذلك الواقع بالتوفيق بين العلم و

---

(۱) سورة المائدة آية ۶۸

(۲) أصول الكافى (ج ۱) ص ۴۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۴

العمل فى عملية تطابقية بينهما، فتكون عاملا بما تعلم، و عالما بما تعمل،

ورد فى الحديث عن أمير المؤمنين (ع): «يا حملة القرآن اعملوا به فان العالم من علم ثم عمل بما علم وافق عمله علمه». «۱»

و يؤيد هذا الحديث قوله تعالى: أَ تَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَ تَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَ أَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ «۲» أى عالمون بالكتاب لكنكم غير مطبقين لآياته.

فالعلم بالقيم وحده لا يكفى، و بالواقع وحده لا ينفع، بل العلم بهما يستطيع الإنسان أن يوفق بين علمه و عمله بمعرفة الواقع، و بدافع من الوازع الإيمانى.

(۱) نهج البلاغة (ج ۳) ص ۱۰۲

(۲) سورة البقرة آية ۴۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۵

التطوير و التحديث

اشاره

التطور ضرورة حضارية، فالحياة التى نعيشها و المجتمع الذى نشكل جزءا منه لا يبقى على حالة معينة أو كيفية خاصة، بل تجد دائما هنالك تغيرات تحصل و أمور تتجدد. و الإنسان فى كل يوم يبحث عن الأفضل و يلاحظ ذلك التغير لعله يجد ما ينفعه، و يحسن به حياته من طرق و أساليب و مبتكرات جديدة، لأن من طبيعة الإنسان التطلع إلى الأحسن، و النظر إلى الأفضل كى لا يبقى على حالة الجمود لأنها حالة مذمومة تؤدى إلى التكاسل، و الخمول لا إلى التطور، فالعلم فى كل يوم يطالعنا بشىء جديد، باعتبار ما يمتلكه الإنسان من طموح لتحسين حاله.

قبل قرون من الزمن كانت أوروبا تعيش الجهل و التخلف، و إذا بها نفضت غبار ذلك عن نفسها، و خرجت من قوقعتها، و أصبحت فى ركب التقدم و الحضارة، و أصبحنا نتطلع إليها علّنا نصل إلى ما وصلت إليه.

فالتطور ليس حالة خاصة بأوروبا أو بشعب دون شعب، بل هو ضرورة حضارية تفرضها الحياة المتجددة، و الطبيعة المسخرة لهذا الإنسان، و الكون الواسع الكبير، فلكى يستثمره الإنسان، و يستفيد منه، عليه أن يستخدم قواه العقلية، و إمكانياته الجسدية لتسخيرها فى الطبيعة، بتحويلها من خامات طبيعية إلى تقنية حديثة، يستغلها لمصلحته فى تحسين أوضاعه الحياتية.

و علينا أن ننظر إلى المستقبل حينما نعيش الحاضر و نرى تلك التطورات التى تلفنا من كل حدب و صوب، فحينها نستطيع أن نعد أنفسنا، و نتهيأ له.

كيف يتحصن الإنسان من الكوارث الطبيعية، و كيف يقى نفسه من الأمراض الفتاكة، و كيف يقضى على مشكلة البطالة، و أزمة السكن، و كيف يعالج

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۶

وضعه الاجتماعى، و يقاوم الفساد و الانحراف، و الغزو الثقافى و الفكرى عبر الأقمار الصناعية و مراكز الإنتاج للأفلام الموجهة ضد مجتمعاتنا عبر محطات التلفزة الفضائية؟! هذا التطور الحاصل الذى نعيشه اليوم و تمر به البشرية- و نحن منها- هل نستطيع مقاومته؟ و كيف ذلك؟ و هل هناك دعوة قرآنية فى كتاب اللّه تنتشلنا من الواقع المظلم لكى نتطور فى أساليبنا و مناهجنا، كى نلتحق بركب الحضارة!

القرآن يدعو إلى التطور:

التطور كلمة جميلة لأنها تحمل معانى إنسانية فى غاية السمو، لا أحد من العقلاء إلا و يطمح و يحاول أن يبرمج حياته بطريقة متطورة. و لكن ما ذا نعنى بالتطور؟

أ ليس هو الأخذ بالأحسن و الأفضل فى الحياة! فكلما تغيرت الحياة استجدت معها أمور، دائما يبحث الإنسان عن أساليب و وسائل تتناسب مع تلك المستجدات، فأين ذلك من القرآن، و هل دعا إلى ذلك؟

ربما لم ترد كلمـة تطوير أو تطور فى القرآن، لكن ورد ما يشـير إلى ذلك المعنى و هى لفظـة الأحسن. حيث دعا القرآن الإنسان إلى أن يأخـذ بالأـحسن فى كـل شـىء، و تناسـبا مع تلك الأهـداف التى نطمـح للوصول إليها، المنطلقـة من تلك القيم الربانيـة و البصائر القرآنيـة، فلو خيّر الإنسان بين الركوب فى السـيارة أو الدابـة للوصول إلى الحـج، أو بين الطائرة و السـيارة فانك تختار الأحسن الـذى يوصـلك أسـرع، و يختصـر عليك المسافة، و يقلل إنفاقك للوقت، كما أن التعب و الجهد يكاد أن يتلاشـى. و لذا نلاحظ أن القرآن دعا إلى الأحسن فى

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۷

كل شىء، فى القول و فى العمل و الأسلوب و الوسيلة: الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ «۱»، و قال أيضا: وَ قُلْ لِعِبادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ. «۲»

إن البحث عن الأـحسن فى القول باعتبـاره نتـاج الأفكـار و العقول و إلاـ لا يعنى إتباع القول مجردا دون أن تكون له خلفيـة فكريـة أو نتيجة اسـتنباط متطور متوافق مع الحياة، فحينها نبحث عن الأحسن فى القول فنتبعه، فليس فى استلهام الأفكار فقط و إتباع الأحسن فيها بل حتى فى أسـلوب الحوار و طريقـة الكلام و حتى فى معالجـة المشاكل و القضايا الاجتماعيـة و السياسـية. علينا أن نمكن انفسـنا من استخدام الأحسن و الأكثر تطورا، و إليك هذه الآيات التى تؤكد ذلك:

وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ «۳»، وَ إِذا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْها «۴» أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا «۵» ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ «۶» وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ «۷» و فى الجـانب العمرانى و الجوانب الأـخرى هنـاك كثير من الآيـات الصـريحة فى ذلك التى تطلب من الإنسان المؤمن أن يتقدم إلى الأمام، و يخطو خطوات

---

(۱) سورة الزمر آية ۱۸

(۲) سورة الإسراء آية ۵۳

(۳) سورة النحل آية ۱۲۵

(۴) سورة النساء آية ۸۶

(۵) سورة هود آية ۷

(۶) سورة المؤمنون آية ۹۶

(۷) سورة القصص آية ۷۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۸

يفوق بها غيره، و يكون هو الأحسن دائما فى كل شىء، يقول سبحانه و تعالى: أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا. «۱»

فلينظر الإنسـان إلى الآـخرين المتطـورين لينافسـهم لاـ ليقلـدهم تقليـدا أعمى، يتوجب عليه أن يبـدأ من حيث انتهوا، فحينمـا تنظر إلى مقومـات ذلـك التطور و القيم التى قـام عليهـا لتسـتفيد منه دون أن تسـتغل ذلـك التطور فى الفتك ببنى البشـر و الـدمار فيكون وبالا عليهم.

أو ليس العالم اليوم يشـتكى من نتائـج التطور مثل التلوث فى البيئـة، الغازات السامة، النفايات الكيماوية، و ما تسـببه المعامل النووية و المصانع من آثار على صـحة الإنسان! بهـذه الروحيـة لا يسـتقر هـذا التطور بل ينتهى إلى الحرب و الدمار و هلاك المجتمعات، يقول ربنا سبحانه و تعالى:

وَ كَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَ رِءْياً. «۲»

فالإنسان اليوم قادر على تدمير حياته بما يملك من وسائل ابتكرها بنفسه.

موقف شرعی:

مشکلة الإنسانیة لیست فی نحت المصطلحات بل فی تأویلاتها و تفسیرها، و حیث أن العقول متباینة و الخلفیات مختلفة کان لا بد من الاستهداء بموقف سماوی إلهی لا یأتیه الباطل من بین یدیه و لا من خلفه، و هکذا فان علینا أن نفهم کلمة التطویر من خلال الآیات القرآنیة، فلیس التطویر هو

---

(۱) سورة الأحقاف آیة ۱۶

(۲) سورة مریم آیة ۷۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۰۹

استحداث- شیء أی شیء- حتی و لو کان خارج الموازین و المفاهیم الشرعیة، و لیس ما یذهب إلیه البعض من إدخال شیء جدید فی الدین لأن ذلک یعد بدعة و هی محرمة

فعن رسول اللّه (ص): «کل محدثة بدعة و کل بدعة ضلالة». «۱»

إن القرآن ثابت لا یتغیر فیه شیء و لا یتطور، لان قیمه ثابتة، و سنن اللّه لا تتبدل و لا تتغیر ذلِکَ الْکِتابُ لا رَیْبَ فِیهِ. «۲»

فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِیلًا وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِیلًا. «۳»

و هذه القیم الثابتة هی المحور الرئیسی فی القرآن، و هی تشکل دائرة الأهداف السامیة للشریعة و الرسالة التی جاء بها النبی (ص)، فلا یکون فیها تغییر أو تبدیل، و إنما التطویر فی المناهج و الأسالیب و الوسائل التی تکون ضمن دائرة الأهداف و القیم، و تتناسب معها، و ضمن إطار الشریعة القرآنیة.

إذا فالشریعة لا- تمانع من التطور ما دام متوافقا مع روحها، و مع المبادئ و القیم التی جاءت فی القرآن، و تکون انطلاقة الإنسان مبتدأها الهدایة القرآنیة التی یتوجه الإنسان من خلالها إلی معرفة افضل الأمور.

کما أن للعقل دور فی عملیة الابتکار و الاختیار حینما یعمل الإنسان عقله، و یکون قد تغذی بالمفاهیم الإسلامیة، فإنه یوصل صاحبه إلی أفضل النتائج، و یهدیه إلی الأحسن و الأفضل. فبنور العقل یکتشف بل یهتدی إلی کثیر من الحقائق حینما تتوفر له أجواء الحریة الفکریة التی ینطلق فیها لیجول

---

(۱) بحار الأنوار (ج ۲) ص ۳۰۱

(۲) سورة البقرة آیة ۲

(۳) سورة فاطر آیة ۴۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۰

ببصره فی هذا العالم مکتشفا و مخترعا مما یساعد الإنسان علی عملیة النهوض الحضاری بتجاوز کل العقبات، و تذلیل الصعاب.

باب الاجتهاد:

الاجتهاد الذی یعنی بذل الوسع فی استنباط و استخراج الحکم الشرعی من مظانه أو من الأدلة الأربعة- الکتاب و السنة و الإجماع و العقل- عملیة تدعو إلی عدم الجمود علی النص، و محاولة فهم النص بما یتوافق مع الشریعة و قیمها الثابتة، و فطرة الإنسان و طبیعته.

نعم الاجتهاد یحمل ذلک المعنی، و لکنه أبعد من ذلک أیضا، إنه استنباط الأحکام الشرعیة لکل مستجد فی الحیاة، و بیان موقف

الشريعة من كل شيء فيها على ضوء النصوص القرآنية، و القواعد الفقهية حتى تتبين الوظيفة الشرعية للمكلف.

إذا الاجتهاد يعنى عدم الجمود على النص، حتى نتعرف على تلك المفاهيم و البصائر و الرؤى التى يحملها هذا النص، و محاولة فهم الواقع المعاش بتطبيق تلك النصوص عليه.

فالقرآن ليس دعوة إلى ذلك العصر و إلى أهل هذا العصر، بل هو دعوة متجددة دائما فى كل عصر.

فلا تختص بزمن دون زمن، و لم تكن تلك الآيات القرآنية التى ورد فيها ذكر العقل و البصيرة و الفقه و كانت هدفا سياسيا للوحى إلا بغرض تحريك الإنسان و بعثه فى التحرك نحو الأحسن، و البحث عن الأفضل بإزالة العقبات التى تعترض سبيل التطوير كتقديس الآباء، أو تقليد المجتمع، أو الجمود على

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۱

الماضى.

فجاء الإسلام عبر الكتاب الكريم و دعا إلى التحرر و الانطلاق، فقال سبحانه و تعالى: وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِي كانَتْ عَلَيْهِمْ «۱» وفق ضوابط حددتها الشريعة، و قوانين و أطر تكفل إبقاء باب الاجتهاد مفتوحا، بيانا و توضيحا.

فليست عملية التطوير و الإبداع و التحديث إلا استنباط حكم شرعى لمستجدات لم تكن موضوعاتها موجودة فى زمن التشريع، و مع ذلك فهذا الاستنباط لهذه المستجدات لا بد و أن يكون مستلا و مستلهما من روح الشريعة و قوانينها.

و لا نعنى بالتطوير الذى يدعو إليه الاجتهاد و يكون بابا له هو تطوير فى الدين، لأن ذلك مستحيل باعتبار أن الدين تام و كامل لا نقص فيه. و كما أسلفنا فان قيم الدين ثابتة لا تتغير مع مرور الزمن. القرآن نهج و حضارة ۲۱۱ باب الاجتهاد: ..... ص : ۲۱۰

داف الدين واضحة و تعاليمه بينة، فيبقى علينا أن نجد الوسيلة و الأسلوب المناسب، الذى نطوّر به حياتنا وفق قيم الدين، و برامج الشريعة.

---

(۱) سورة الأعراف آية ۱۵۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۲

الإنسان و بناء الحضارة

اشارة

القرآن رسالة إلى الإنسان و لعله بعدها الأول، حيث يمكن التعامل معه على أساس وجوده و حضوره و ارتباطه مع بعضه البعض، فليس هو شفاف لا وجود مادى له كالجن بل له كيان مادى فى هذه الحياة.

و القرآن الكريم جاء لهذا الإنسان و على هذا الأساس لتنظيم أمور حياته الشخصية و الاجتماعية. فهو يشعره بهذا الوجود حينما يبرمج له حياته كى يعيش بتلك البرامج و المناهج و الأساليب و الوسائل التى وضعها له الاستقرار و الأمن و الطمأنينة فى الحياة. فجاءت تعاليم هذا الكتاب لهذا الكائن البشرى فى الجانب الاجتماعى كالعلاقات الزوجية و ما يستتبعها من حمل و ولادة و طلاق أو أحوال شخصية و مدنية، كذلك جاءت تعاليمه فى العبادة و فى الاقتصاد و السياسة و كل جوانب الحياة و مناحيها.

كما أن القرآن جعل هذه الأمور بمثابة محور ترتكز عليه علاقته مع بنى جنسه من خلالها، فكانت العلاقات الاجتماعية و العلاقات الاقتصادية و السياسية فلم يتركها دون أن يضع لها برنامجا يرتب هذه العلاقات و جعل الإنسان يعيش وفقها حتى لا يكون منزويا عن المجتمع و بعيدا عنه.

فلم يترك القرآن هـذا البعد و هو شخصـية الإنسان، فقد وردت الآيات الكثيرة التى تحدثت عنه بلفظة الإنسان و بغيرها. بل إن القرآن كله جاء لهذا المخلوق البشـرى، و لتحديد ملامح شخصـيته حتى تكون متوافقة مع برامجه فتكون شخصـية قرآنية. لذا فكانت خلقته و تكوينه غير مشوبـة بشـىء و فطرته سـليمة، فلم يكن عليه إلاـ أن يلتزم بمـا أمره اللّه و بمـا نهـاه، فليس أمامه إلا طريق الإيمان و العمل الصالح. فقال سبحانه: لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ فِى أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ، ثُمَ

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۳

رَدَدْناهُ أَسْفَلَ سافِلِينَ، إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ. «۱»

فالكتـاب الكريم جـاء لتحريك الإنسان بناء على تلك الفطرة السـليمة فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْها «۲» لبنـاء نفسه، و الانطلاق من خلالهـا لبنـاء أمته يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَـكُمْ وَ أَهْلِيكُمْ نـاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجارَةُ «۳» و أراد القرآن بذلك أن يشـيد صـرح حضارة كبيرة قويـة يعتمـد عليها، يكون ركيزتها الإنسان المؤمن صاحب الإرادة الفولاذيـة الصـلبة التى بها يتحـدى الأعاصـير، و يقف بصرح حضارته أمام الحضارات الأخرى. يقول ربنا إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ. «۴»

و يـذكرنا الكتاب الكريم بالماضـى العريق لهـذه الأمـة، كى يحفزنا فى أن نكون كما كنا أمـة قويـة ذات رسالـة خالدة، و حضارة لها قيمها الثابتة حينما كانت ملتزمة بها تقود الأمم إلى الطريق السـليم، و تعلم الحضارات الأخرى بما لا تملك من مبادئ و شـرائع. فيقول سبحانه و تعالى كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ (حينما التزمتم) تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ. «۵»

إنسان و مهمتان:

مهمتان كلف بها الإنسان فى الأرض- الخلافة و العمارة-، و مسئولية الخلافة فى الأرض مهمة صعبة رفضتها مخلوقات أخرى لثقلها، و تحملها الإنسان فترتبت عليها عمارة الأرض و استصلاحها دون الفساد فيها، باعتباره

---

(۱) سورة التين آية (۴- ۶)

(۲) سورة الروم آية ۳۰

(۳) سورة التحريم آية ۶

(۴) سورة الرعد آية ۱۱

(۵) سورة آل عمران آية ۱۱۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۴

هو الذى يسـكنها، فسـبحانه حمّل الإنسان مسـئولية الخلافة إِنِّى جاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً «۱» و حمّله مسـئولية الأرض و عمارتها حيث جعلها له بقوله تعالى: وَ الْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ. «۲» فما عليه إلا أن يحوّل تلك الخامات و الثروات الطبيعية إلى قدرات متطورة تتماشـى و حياة الإنسان.

و لعل بناء الحضارة لا يقوم إلا على أساس الإنسان الخليفـة وفق مسـئوليته المناط بها لعمارة الأرض، القائمـة على قيم اللّه التى بعثها له عبر أنبيـائه. و أهم مـا فى بنـاء الحضارة هى القيم المعنويـة لا الماديـة، لان الامتـداد الزمنى الـذى تتشـكل منه الحضارة لكى تبقى عبر أجيالها المتعاقبة بالقيم المعنوية حتى لو كانت هناك تعثرات و اعوجاج فى الأمة، أو انحراف فى مسـيرتها، فان القيم هى التى تصـحح هذا المسار بفعل رجالات الأمة العاملين لها و فيها.

و حضارة المادة ليس لها امتـداد زمنى فهى حضارة وقت، تزول بزوال المادة، و تنتهى عنـد ذلك الحـد كى يتغنى بها التاريـخ ضـمن ذكرياته.

و لعل الفارق بين حضارة المادة و حضارة القيم يكمن فى زوال الأولى و بقاء الثانية.

و يضرب لنا القرآن أروع الأمثلة و أحسن القصص حينما يتحدث عن قوم لوط الذين هدموا حضارتهم بأيديهم بوضع بذور فنائها فى أرضهم.

إن رفض الإنسان لقيم السماء و اللجوء إلى قيم الأرض المادية يعنى الانهيار حتما، و الدمار الكامل الذى يؤدى بنهاية الحضارة.

و قد صرح القرآن الكريم ببيان العوامل التى أدّت إلى انهيار هذه الحضارة،

---

(۱) سورة البقرة آية ۳۰

(۲) سورة الرحمن آية ۱۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۵

فقال سبحانه و تعالى: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ، أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ. «۱»

الانسياق وراء الشهوات، و الانحطاط الخلقى، و الشذوذ الجنسى، و ممارسة الظلم ضد الضعفاء فى المجتمع، و الاعتداء على الناس، و السطو على ممتلكاتهم، و التجاهر بالمعاصى و المنكرات علنا و بشكل مكشوف، كل تلك كانت عوامل أدّت إلى انهيار حضارتهم.

و يتطرق القرآن إلى حضارة شعيب حيث يقول ربنا سبحانه و تعالى:

وَ إِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ وَ لا تَنْقُصُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ، وَ يا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيالَ وَ الْمِيزانَ بِالْقِسْطِ وَ لا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَ لا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ. «۲»

هؤلاء قوم عاشوا بعد قوم لوط فلم يعتبروا منهم، فقد دعاهم شعيب إلى قيم اللّه و إلى عبادته، لكنهم رفضوا و اتجهوا إلى عبادة المصالح، و ابتزاز أموال الفقراء بعدم الوفاء بالكيل و الميزان، و عدم تطبيق العدل، و انتهاك الحقوق، و عدم الالتزام بمسئوليات الإصلاح الاجتماعى.

و من هذا نفهم أن محور الحضارة الإلهية هو عقيدة التوحيد و القيم الإيمانية التى دعا إليها الأنبياء، فهذه القيم هى نفسها كانت محورا للحضارة الإسلامية التى دعا إليها النبى محمد (ص).

فاستبدال هذه القيم الإلهية بقيم أرضية، و مفاهيم بعيدة عن السماء يعنى الانحراف ثم الانهيار.

---

(۱) سورة العنكبوت آية (۲۸- ۲۹)

(۲) سورة هود آية (۸۴- ۸۵)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۶

إذا مسئولية الخلافة فى الأرض ما هى إلا تكليف من السماء لهذا الإنسان للحفاظ على هذه القيم التى بها يتم عمارة الأرض، و استصلاحها، و بناء الحضارة الراقية القائمة على أساس الإيمان لا المادة.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۷

۱۱ كيف نستوعب القرآن

اشارة

* قبل أن نفهم* عقل البشر و فهمه* كيف نفهم* عربى .. هكذا نزل* مكى و مدنى* محكم و متشابه* ناسخ و منسوخ* الفهم المطلوب

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۱۹

قبل أن نفهم:

القرآن كتاب لنا نحن الناس بدون تخصيص فئة معينة أو جماعة أو طائفة، فهو كتاب رب العالمين إلى من خلقهم بلا استثناء، فنلاحظ تكرار لفظة الناس فى القرآن بدون تمييز بين أصنافهم و ألوانهم أو أجناسهم، فقد وردت مائة و اثنتان و ثمانون مرة، فمنها قوله سبحانه و تعالى: الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ «۱»، و قوله أيضا: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ «۲»، و قوله سبحانه: وَ لَقَدْ صَرَّفْنا لِلنَّاسِ فِي هذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ «۳»، و قوله: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ «۴»، و قوله: وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ «۵»، و قوله: قُلْ يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّما أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ «۶».

فإذا كان الكتاب لنا و باسمنا فلا بد أن يخاطبنا بالمستوى الذى نفهم، و هكذا فعل ربّنا حيث يسر القرآن فى توجيه الخطاب للناس، فما علينا إلا أن نرتفع إلى مستوى تقبّل هذا الخطاب حتى نفهم كتاب اللّه، أى علينا أن نفتح عقولنا، و ان نتقبل القرآن بقلوبنا، فحينها نستطيع أن نرفع تلك الغشاوة. يقول

---

(۱) سورة إبراهيم آية ۱

(۲) سورة الإسراء آية ۱۰۶

(۳) سورة الإسراء آية ۸۹

(۴) سورة يونس آية ۱۰۸

(۵) سورة سبأ آية ۲۸

(۶) سورة الحج آية ۴۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۰

سبحانه و تعالى: وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ. «۱»

نعم القرآن ميسّر لمن يطلب الفهم يكون تلميذا متواضعا له، و يرتفع إلى مستواه، فانه يدرك تلك المعانى، و يتوصل إلى تلك المفاهيم، فيبلغ أعماقه و يفهم آياته، فأما أن يبقى و لا يرتفع إلى مستوى الخطاب فانه لن يصل إلى شىء من ذلك.

و كتاب جاء إلى الناس و أراد اللّه منهم أن يفهموه، فلا يجب أن يكون كتابا معقدا أو صعبا لا يفهمه و لا يدرك معانيه أحد. فاللّه الذى خلق الإنسان من ضعف اعلم بما فى هذا الإنسان، و بما يحتاجه، فخرج إلى هذه الدنيا و هو لا يعلم شيئا لا عن نفسه و لا عنها، كما يقول سبحانه و تعالى: وَ اللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً. «۲»

فكلام اللّه سبحانه و تعالى كلام الخالق العليم القدير إلى الإنسان المخلوق الضعيف الجاهل فكيف يتحدث العليم مع الجاهل فخطابه يكون موجها إلى عقولنا البشرية، حيث لا نسبة بين العالم الخالق القدير و بين الإنسان الجاهل الضعيف، فسبحانه يتصف بكل صفات الكمال المطلقة التى هى بالنسبة إلى الإنسان محدودة فلا تتجاوز ذاته و ما يمتلك من طاقات و إمكانيات.

---

(۱) سورة القمر آية ۱۷

(۲) سورة النمل آية ۷۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۱

عقل البشر و فهمه:

الخالق القدير الذى أوجد هذا الكون بقدرته جعل فيه مجموعة من الحقائق الكبرى، و أراد للإنسان أن يفهمها من خلال توجيه الخطاب إليه و الحديث معه عبر هذا الكتاب المبارك، فقسم من هذه الحقائق يختص به مباشرة بحياته و ممارساته و علاقاته فى هذا الكون كبشر تحكمه علاقة بما يوجد حوله من موجودات و مخلوقات أخرى، و قد أشار القرآن إلى هذه الحقائق باعتبارها ملموسة للإنسان، فتحدث عن الطبيعة و ما فيها من أمور ظاهرية يباشرها، و يتعامل معها يوميا، و يتأثر بها، و تؤثر عليه كحركات الأجرام السماوية و الكواكب و بالأخص حركة كوكبنا الذى نعيش عليه، و ما فيه من آثار على الإنسان و الحيوان و النبات و الأرض التى يعيش عليها.

و هناك قسم آخر من الحقائق فوق عقل البشر لا فهم البشر كما أسلفنا فى حديث مضى، حيث هناك فرق بين عقل البشر و فهم البشر، فإذا كانت تلك الرؤى و البصائر و ما يطرحه الرب فى كتابه العزيز فوق مستوى الفهم فلا يفهمها العبد، و لا يفهم ما ذا يريد اللّه؟ فيكون الكتاب بالنسبة إليه غامضا.

و لكن مع ذلك و حتى تبقى معجزة القرآن خالدة فإنه تجاوز عقل البشر المحدود لا فهمه، تجاوزه من حيث المستقبل أو ما نسميه بالغيب و ما وراء الطبيعة، فإن هذه أمور فوق الحياة و ليست هى من الأمور المحسوسة، و لذا أكد القرآن على مسألة الغيب و الإيمان به و جعله جزءا من الإيمان باللّه. لكن القرآن لم يمنع الإنسان من استخدام كل طاقاته الحسية و العقلية و التجريبية لاكتشاف قوانين الطبيعة و ما فى الحياة.

فالقرآن الكريم دعا المسلم إلى ضرورة ذلك بشرط أن يكون مبنيا على

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۲

العلم فخاطبه قائلا- وَ لا- تَقْفُ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَ الْبَصَرَ وَ الْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلًا «۱» لكن مع تقدم الإنسان العلمى الذى يعمّق إيمانه باللّه، يبقى الغيب هو حجر الزاوية، و الركن الركين لكل دين سماوى، و قد وردت فى القرآن الكريم اكثر من خمسين مرة كلمة الغيب منها قوله تعالى:

وَ لِلَّهِ غَيْبُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ «۲» و قال أيضا: وَ سَتُرَدُّونَ إِلى عالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ «۳» و قال أيضا: وَ عِنْدَهُ مَفاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ. «۴»

و هذه الحقائق تبقى من علم اللّه، و هو علم الهى شامل، و ضبط لكل قواميس السموات و الأرض التى لا يتسنى لأجهزتنا و قدراتنا الحسية المحدودة الإحاطة بها، حتى يبقى القرآن بها رفيعا و محتفظا لا ينزل إلى مستوى العقل البشرى المحدود، بل هو خطاب موجه إلى الإنسان يفهمه أن حاول أن يرتفع إلى مستوى الفهم، لان هذا الكتاب صحيح انه صغير فى حجمه لكنه كبير فى محتواه، فأراد اللّه أن يكون تبيانا لكل شىء و ما يهم الإنسان فى حاضره و مستقبله فى دنياه و آخرته.

إذا لا- غموض فى الكتاب و لا- نقص فيه، و إنما الغموض فينا نحن، و النقص عندنا، فجاء القرآن ليرفع هذا الغموض، و يسد هذا النقص، و ذلك بالاقتراب إلى كتاب اللّه حتى نفهمه.

---

(۱) سورة الإسراء آية ۳۶

(۲) سورة هود آية ۱۲۳

(۳) سورة التوبة آية ۱۰۵

(۴) سورة الأنعام آية ۵۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۳

كيف نفهم؟

قبل الإجابة على هذا السؤال هناك عدة أسئلة بحاجة إلى الإجابة عليها.

بحاجة أن نمهّد أنفسنا إلى أن نفهم القرآن، و تكون لنا أرضية صلبة. فهناك مجموعة من التساؤلات فى أذهاننا، الجواب عليها يشكل إطارا عاما لفهمنا لهذا الكتاب، لأنها ليست فى تفاصيل الكتاب، و إنما هى أسئلة ترتبط بعموم القرآن ككتاب سماوى، و قد يرفع الجواب عنها كثير من الضباب و الغمام عند من يريد أن يقدم على فهم هذا الكتاب.

فما هى هذه الأسئلة؟ و ما فلسفة ذلك منها؟

لما ذا نزل القرآن باللغة العربية؟

لما ذا نزل القرآن بالتدريج؟

لما ذا نزل فى مكة و المدينة و ما الفرق بين المكى و المدنى؟

ما ذا يعنى المحكم و المتشابه؟

ما ذا يعنى الناسخ و المنسوخ؟

عربى هكذا .. نزل:

اشارة

قد أكّد القرآن على هذه المسألة فى عدة آيات فقال سبحانه و تعالى: إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا «۱»، و قال أيضا: وَ كَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْماً عَرَبِيًّا «۲»،

---

(۱) سورة الزخرف آية ۳

(۲) سورة الرعد آية ۳۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۴

و قال فى آية أخرى: وَ كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا. «۱»

لما ذا نزل القرآن بالعربية ما دام كتابا عالميا، و لكل الناس؟ و لما ذا لم ينزل لكل قوم بلغتهم؟ و هل للغة مدخلية فى توجيه البشر و الشعوب إلى وجهة معينة؟ و هل يكون لها دور رئيسى فى توجيههم الوجهة الصحيحة أم لا؟

نعم اللغة لها دور كبير فى توجيه الشعوب، فكل لغة تلعب دورا، و تعطى ثقافة خاصة عبر مقرراتها إلى أهلها، و من يتكلمون بها، لكن بالنسبة للغة العربية فإنها سمت على كل اللغات لما فيها من دقة و بلاغة، و تسمى لغة الضاد، لأنها من أفضل اللغات عند البشر، فهى تمتاز بالإفصاح و البيان عن الحقيقة، و ما فى الضمير بشكل واضح، ربما تفتقد اللغات الأخرى ذلك، و لذا

قال النبى (ص) تأكيدا على سمو هذه اللغة «أحب العرب لثلاث لأنى عربى و القرآن عربى و كلام أهل الجنة عربى». «۲»

و العربية مشتقة من الأعراب، و كما جاء فى معاجم اللغة أن الإعراب يعنى الإفصاح و الإيضاح و البيان. فالعربية هى اللغة الأم عند اللّه التى بها نزلت كتب الله على أنبيائه، إلا أنها ترجمت عند الأنبياء بلغة قومهم بقدرة اللّه سبحانه و تعالى، لذا

جاء فی الحدیث الشریف عن الإمام الصادق (ع) «ما أنزل اللّه تبارک و تعالی کتابا و لا وحیا إلا بالعربیة فکان یقع فی مسامع الأنبیاء بألسنة قومهم و کان یقع فی مسامع نبینا بالعربیة». «۳»

---

(۱) سورة الشوری آیة ۷

(۲) الدر المنثور (ج ۴) ص ۳

(۳) سفینة البحار (ج ۶) ص ۱۹۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۵

عربیة القرآن لا عروبیته:

استغل البعض عربیة القرآن فی حصره فی العرب الذین نزل فیهم باعتبارهم أصحاب اللغة، و حاولوا أن یجعلوا ذلک شرفا لهم لأنهم عرب، و القرآن جاء بلغتهم، و تحدث فی مجموعة آیات عنهم.

و العربیة کلغة ما هی إلا أداة و وسیلة لإیصال الوحی الإلهی باعتبارها لغة واضحة لا تعقید فیها، و لا غموض. و هی أوسع اللغات لأنه یتمثل فیها محتوی القرآن فهو محتوی الهی، و برنامج سماوی. و هی لیست لغة ذات صفة تشریعیة، و إنما المشرع هو اللّه خالق البشر جمیعا.

و حصر القرآن بأصحاب اللغة یعنی حصر لقیم القرآن، و معانیه، و ما جاء به فهو لیس للعربی فقط بل هو ینتمی لهذا القرآن. و من لم یعرف القرآن فهو أعجمی حتی لو کان عربیا.

فشرف العروبة لیست هی لکل عربی، و إنما هی لمن تعلم العربیة و أخذ المبادئ السامیة التی جاء بها القرآن الکریم، فعروبة الناس هی بمدی التزامهم بهذا القرآن، و تطبیق تعالیمه.

و لذا جاء فی تفسیر هذه الآیة

«بلسان عربی مبین یبین الألسن و لا تبینه الألسن». «۱»

یقول العلامة المطهری و هو إیرانی الأصل و نحن أیضا مسلمون و لذلک لیست اللغة العربیة لغة الحجاز و لا لغة الیمن إنها لغة القرآن. هل یستطیع قوم أن یقولوا أن القرآن قرآنهم؟ الحجازیون الیمنیون المصریون ألهم أن یقولوا إن

---

(۱) تفسیر الثقلین (ج ۴) ص ۶۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۶

القرآن قرآنهم؟ ما من قوم له أن یدّعی بان العربیة تختص به دون غیره. أن اللغة هی العربیة هی اللغة الدولیة الإسلامیة. «۱»

و الثقافة التی تجمع المسلمین هی ثقافة ذات إطار أممی عالمی، تکون رکیزتها التوحید، فلیست الثقافة قومیة عربیة کانت أو غیرها.

فنحن لا نملک ثقافة عربیة و أخری فارسیة أو أوربیة بل ثقافة إسلامیة تتجلی فی عدة لغات مختلفة. فأعداء القرآن لا یحملون العداء للعرب لأنهم عرب- کما یدّعی بعض المثقفین من العرب- و إنما العداء للثقافة الإسلامیة التی یطرحها بلغته العربیة.

و إذا کنا حقا نرید البقاء لحضارتنا التی هی دلیل شخصیتنا و استقلالنا فما علینا إلا أن نحافظ علی هذه الثقافة النابعة من القرآن العربی.

و ما علینا إلا أن نسعی بالدرجة الأولی کواجب دینی للحفاظ علی الثقافة الإسلامیة إلی تعلم العربیة تعلما متقنا (عربا و غیر عرب) حتی نستطیع الاستفادة من النصوص العربیة قرآنا و حدیثا.

لكن يبقى السؤال، الذى يراود الأذهان، بحاجة إلى جواب، و هو لما ذا يؤكد القرآن على عربيته يا ترى؟

أولا- يقول ربنا سبحانه و تعالى: كَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيًّا «۲» إنها دعوة إلى سائر الناس أبناء آدم و حواء باعتبارهم ملزمين بالإيمان بهذه الرسالة الخاتمة لإيجاد لغة مشتركة فيما بينهم يتعلمونها بعد أن ختمت كل الديانات و نسخت بالدين الإسلامى، فعلى المسلم أن يتعلم هذه اللغة حتى يستوعب

---

(۱) دروس من القرآن ص ۱۲

(۲) سورة الشورى آية ۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۷

لطائف كتاب اللّه، و بلاغته التى تعجز الترجمة عن بيانها.

أ ليس العالم اليوم يدعو لإيجاد لغة مشتركة؟ أ ليست اللغة الإنجليزية هى من اللغات المشتركة فما من دولة و بلد و شعب عربى و غير عربى إلا و يتعامل بهذه اللغة، ففى مدارسنا و دوائرنا الحكومية و فى كل شىء هذه اللغة لها وجود بينما لا تجد للغة العربية فى الدول العربية و غير العربية وجود بهذه الكثافة الكبيرة! و القرآن يدعونا إلى أن تكون هناك لغة عالمية مشتركة، يتفاهم بها المسلمون على مختلف لغاتهم فيما بينهم و مع غيرهم من غير المسلمين حينما تصبح لغة عالمية.

و اللغة المشتركة فى الحقيقة هى فى ترجمة القرآن إلى واقع عملى، فيكون ما نتحدث عنه من مفاهيم و رؤى و بصائر قرآنية هى اللغة المشتركة يبين المسلمين، و بذلك تكون الحركة واحدة متجسدة فى الاتجاه إلى قبلة واحدة، بصلاة تبدأ عند الجميع بلغة التوحيد، و برنامج عمل يلتزمه المسلم بعيدا عن انتمائه القومى، فيتحول إلى حج موحد، و صوم مشترك.

و اللغة كما بيّنا ما هى إلا أداة و وسيلة، فهى ليست حاجزا أمام التفاهم ما دامت القيم مشتركة، و المفاهيم واحدة تجمعهم تحت راية التوحيد، أ ليس القرآن يدعو المسلمين إلى الوحدة بمختلف لغاتهم وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لا تَفَرَّقُوا «۱» فهو يلغى كل أشكال التمزق الاجتماعى و التفرق على صعيد الجنس و الأرض، و لكن لا يضر مع ذلك لو تعلمنا هذه الوسيلة، و جعلناها أدوات مشتركة نتفاهم بها على ضوء تلك القيم و المفاهيم و الرؤى و

---

(۱) سورة آل عمران آية ۱۰۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۸

البصائر القرآنية المشتركة.

نعم أداة و وسيلة لا غاية و هدفا، و إن لم يكن كذلك فينحصر القرآن فى قوم و جماعة، و تضيع تلك المبادئ السامية التى جاء بها كتاب ربنا، و لذا يقول سبحانه و تعالى: وَ لَوْ جَعَلْناهُ قُرْآناً أَعْجَمِيًّا لَقالُوا لَوْ لا فُصِّلَتْ آياتُهُ ءَ أَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ. «۱»

و لعل خطاب القرآن واضح فليس الهدف هو اللغة، و إنما هو الهدى و الشفاء الذى يتمثل فى البرامج الحية، و التكاليف العملية التى يسعى المسلم جادا فى تطبيقها حتى تكون مشتركة بينه و بين غيره دون تمييز بلغة، أو قوم أو عنصر.

ثانيا: اللغة العربية ذات مميزات تختلف عن غيرها من اللغات، فهى اللغة الوحيدة التى تتسع لمعانى القرآن ما لا تستطيع لغة أخرى أن تبين ذلك.

«و لقد كان الإعجاز القرآنى خليقا أن يثير فى الحياة الإسلامية مباحث على جانب عظيم من الأهمية يتصدى بها العلماء للكشف على وجوه البلاغة القرآنية، و عن أسلوب القرآن الفذ فى التصوير و التعبير». «۲»

و لعل السبب فی ذلک هو ما تمتاز به هذه اللغة من العمق و المرونة و السعة، و ما فیها من أبعاد لا تقتصر علی الناحیة البلاغیة فقط. فیری الرافعی أن القرآن یعتبر «نمطا واحدا فی القوة و الإبداع، و أن مرد ذلک إلی روح الترکیب التی تتعطف علی جوانب الکلام الإلهی. و هذه الروح لم تعرف قط فی کلام عربی غیر القرآن، و بها انفرد نظمه، و خرج مما یطیقه الناس، و

---

(۱) سورة فصلت آیة ۴۴

(۲) مباحث فی علوم القرآن ص ۳۱۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۲۹

لولاها لم یکن بحیث هو کأنما وضع جملة واحدة لیس بین أجزائها تفاوت أو تباین، إذ تراه ینظر فی الترکیب إلی نظم الکلمة، و تألیفها ثم إلی تألیف هذا النظم، فمن هنا تعلق بعضه علی بعض، و خرج فی معنی تلک الروح صفة واحدة هی صفة إعجازه فی جملة الترکیب کما عرفت». «۱»

و القرآن باعتباره رسالة إلی العالم، و یحمل برنامجا إلهیا متکاملا إلی الناس، فیه کل ما یحتاجونه إلی یوم یبعثون، فلا بد أن تکون هناک لغة معبرة کی تتسع هذه المفاهیم و الرؤی القرآنیة.

و قد امتاز القرآن فی مفرداته و تراکیبه بإیصال المعنی إلی ذهن الإنسان بأقل قدر من التفکیر، و بدون جهد و عناء، و بتصویر فنی، و حس مرهف، و بإیجاز، و حذف للزوائد و الفضول، و الاستعارات بمعانی کبیرة و کثیرة و ألفاظ قلیلة.

فإلیک أمثلة علی ذلک:

فمن آیاته سبحانه و تعالی فی وصف خمر أهل الجنة قوله تعالی: لا یُصَدَّعُونَ عَنْها وَ لا یُنْزِفُونَ «۲» أی لا یحصل لهم منها صداع و لا ذهاب عقل کلمتان فقط جمعتا کل عیوب و سلبیات خمر أهل الدنیا.

و قوله تعالی فی ذکر فاکهة أهل الجنة: لا مَقْطُوعَةٍ وَ لا مَمْنُوعَةٍ «۳» کلمتان أیضا جمعتا کل المواصفات و حملت معها کل المعانی دون إطناب أو تطویل و یعنی أنها لا مقطوعة فی زمن معین و لا ممنوعة بثمن.

---

(۱) تاریخ العرب (ج ۲) ص ۶۲

(۲) سورة الواقعة آیة ۱۹

(۳) سورة الواقعة آیة ۳۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۰

و قد تکون سور القرآن فی ألفاظها أو عباراتها و کلماتها ربانیة، فتختصر الطریق علی الإنسان فی معرفة الرب و توحیده. و قد تشکل ثلث القرآن معنی کما هو فی سورة الإخلاص التی تبدأ ب:

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ یَلِدْ وَ لَمْ یُولَدْ، وَ لَمْ یَکُنْ لَهُ کُفُواً أَحَدٌ «۱» إنها تدل علی التوحید النقی الذی یکشف و بعبارات قلیلة حقائق کبیرة فی هذا الکون.

«إن التصور الکامل لأبعاد المضمون و استیعابه بحدوده لا- یمکن أن یتم- خصوصا فی المرحلة الأولی من الرسالة- بلغة أخری للتخاطب خصوصا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أن الکثیر من المضامین القرآنیة ترتبط بقضایا و آفاق بعیدة عن تصورات و آفاق الإنسان الجاهلی المعاصر لنزول القرآن، إما لارتباطها بعالم الغیب أو لطرحها مفاهیم عقائدیة و اجتماعیة و إنسانیة تمثل طفرة فی النظرة المحدودة لذلک الإنسان و للعلاقات الاجتماعیة و الإنسانیة». «۲»

إن القرآن فی بلاغته و فصاحته العربیة فاق الزمان و المکان، بل لقد تغلب فی أسلوبه علی افتراءات و تخرصات أخیلة الشعراء و

سبحات الأدباء، فهو لا يشبه شيئا من كلام الفصحاء فى أسلوبه الفذ العجيب، لأنه وحى يوحى، و تنزيل ينزل، و هدى ربانى من اللّه إلى عباده المصطفين. فكل آية من آياته، بل و كل كلمة منه تعبر عن معنى كبير ذا قيمة واسعة، فى عبارات موجودة ذات إيحاءات كبيرة.

ثالثا: القدر الإلهى و الحكمة الربانية اقتضيا أن يحمل العرب رسالة النور و

---

(۱) سورة الإخلاص آية (۱- ۴)

(۲) الهدف من نزول القرآن ص ۹۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۱

الهداية إلى كل الأمم و الأجيال القادمة فأنزل اللّه لهم هذا الكتاب بلغتهم و لسانهم بالرغم من أن القرآن جاء هداية للبشرية، و رسم الطريق لهم بغض النظر عن ألسنتهم و لغاتهم و قومياتهم، فكان العرب هم الجماعة الأولى التى أراد اللّه مخاطبتها عبر كتابه لكى يحمّلهم مسئولية تبليغ هذه الرسالة، و يقيم الحجة عليهم.

و قد كانت اللغة العربية عاملا رئيسيا و مؤثرا فى استجابة العرب للقرآن، و الاهتداء إلى تعاليمه، و ذلك بسبب الحواجز التى كانت تصدهم عن قبول أية دعوة للتعصب. قال ربنا سبحانه و تعالى: وَ لَوْ نَزَّلْناهُ عَلى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ. «۱»

فالجاهلية العربية و مع ما كانت تعانى من أزمات اجتماعية و نفسية و فراغ روحى إلا أنها بحاجة إلى لغة معبرة حتى تتفاعل معها روحيا و نفسيا.

فلو خاطبهم القرآن بغير لغتهم لم يتحقق ذلك التفاعل، فكان الخطاب بلغتهم أبلغ فى إقامة الحجة عليهم و بالخصوص من كفر منهم، فقد بيّن القرآن أن السبب لم يكن فى النبى (ص) الذى اتهموه، أو غموض فى الوحى، لأن القرآن قد نزل بلغتهم، و خاطبهم لإثارة العواطف و الأحاسيس، و لكى يتفاعل بعد ذلك مع عقولهم و فكرهم.

ذلك التفاعل قد تم نتيجة توجيه الخطاب لهم بلغتهم لتوضيح الحقائق لهم، و الالتزام بها لكى يتحمل هؤلاء العرب مسئولية تبليغ هذه الرسالة إلى العالم بقيادة النبى العربى محمد بن عبد اللّه (ص).

---

(۱) سورة الشعراء آية (۱۹۸- ۱۹۹)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۲

هكذا نزل القرآن:

للقرآن عطاء لا ينضب، و نبع لا يجف. فنزوله على قلب النبى (ص) كيفما كان لا يحط من قدر القرآن، و لا من مكانته، و لا يغير شيئا من معالمه. فهو كتاب اللّه الذى نزل بأرقى صورة يحمل فى طياته نورا منبعثا لهداية الإنسان، و إخراجه من الظلمات إلى النور.

يتساءل البعض عن كيفية نزول القرآن، و هل نزل دفعة واحدة أم كان نزوله مفرقا على قلب النبى (ص)؟ و الذى يهمنا من كل ذلك هو عطاؤه الإنسانى عبر تلك النصوص التى ثبتت أنها آيات قرآنية نزل بها الوحى، و أبلغها النبى (ص) لنا، كما كان يصنع ذلك ربنا مع الأنبياء الذين سبقوا النبى محمد بن عبد اللّه (ص) فيقول سبحانه و تعالى: وَ ما كانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَراءِ حِجابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ ما يَشاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ. «۱»

لقد شاءت الحكمة الإلهية أن يبعث اللّه نبيا للبشر خاتما لهم، يوحى إليه كى يكون متصلا بالسماء عبر الوحى و تحت رعايته، حتى ظل متجاوبا مع الرسول يرشده و يهديه و يثبّته و يزيده اطمئنانا و يبلّغه رسالة اللّه و ما فيها من تشريعات سماوية. فالوحى كان للنبى

(ص) بمثابة الرفيق الأمين الذى واكب الدعوة طيلة ثلاثة و عشرين عاما، و كانت هى المدة التى نزل فيها القرآن.

فنزول القرآن الذى جاءنا عبر الوحى لم يكن تصرفا شخصيا من جبرائيل فى طريقة نزوله و مجيئه إلى الرسول، و إنما كان ذلك النزول بأمر اللّه عز و جل، فلم يكن جبرائيل إلا مبلغا و ناقلا عن اللّه عز و جل، إلى النبى (ص)،

---

(۱) سورة الشورى آية ۵۱

فكان هذا التبليغ لهذه الرسالة السماوية دفعة و تدريجا.

آراء حول النزول:

اشارة

نعم لربما هناك آراء فى نزول القرآن فهل نزل دفعة واحدة أم تدريجيا و تنجيما؟ نستعرضها و نرى الرأى المصيب منها.

و قد أورد الطبرسى هذه الآراء فى تفسيره:

أولا: «إن اللّه أنزل جميع القرآن فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا، ثم أنزله على النبى (ص) بعد ذلك نجوما، و هو رأى بن عباس.

ثانيا: إنه ابتدأ إنزاله فى ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة، و به قال الشعبى.

ثالثا: إنه كان ينزل إلى السماء الدنيا فى ليلة القدر ما يحتاج إليه فى تلك السنة جملة واحدة، ثم ينزل على مواقع النجوم إرسالا فى الشهور و الأيام، و هو رأى ابن عباس. «۱»

و هناك أيضا آراء أخرى كثيرة لسنا بصدد استعراضها، لكن نلاحظ أن هذه الآراء كلها تشير إلى ما ذكرناه فى البداية، و هو أن القرآن نزل مرتين و يؤيد ذلك ظاهر الآيات القرآنية التى سنستعرضها فيما بعد، و هى تشير إلى نزول القرآن جملة على قلب النبى (ص)، و نزوله تدريجيا أيضا، و لقد أكّد هذا المعنى ابن عباس بقوله: «أنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر، و فى ليلة مباركة جملة واحدة، ثم أنزل بعد ذلك على مواقع النجوم رسلا فى الشهور و الأيام» «۲»، و فيما يؤكد هذا المعنى قوله تعالى فى نزول القرآن مرة واحدة

---

(۱) مجمع البيان (ج ۱) ص ۲۷۶

(۲) كتاب الأسماء و الصفات، للبيهقى ص ۲۳۶

إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ «۱» و قوله أيضا: إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ. «۲»

و أما فى نزوله مفرقا فقوله تعالى: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا. «۳»

و لعل فى هذه الآية إشارة إلى أن القرآن نزل مرتين، و نفهم ذلك من كلمة التنزيل التى وردت بصيغتين مختلفتين، فمرة نزلناه و مرة أنزلناه، فكل منهما توحى إلى معنى، فما هو ذلك المعنى؟ يقول العلامة المدرسى «الفرق هو أن كلمة أنزلناه أى أنزلناه جملة واحدة (و نزلناه) أى على أقساط». «۴»

و فى نفس السياق يقول فى مورد آخر حول آية تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ. «۵»

«توحى كلمة التنزيل بنزول القرآن على مراحل بينما توحى كلمة الإنزال فى الآية التالية إِنَّا أَنْزَلْنا إِلَيْكَ بنزوله جملة واحدة، و لا

تناقض فى ذلك لأن القرآن نزل مرتين مرة واحدة فى ليلة القدر و مرة بصورة منسجمة انسجاما مع الحوادث المتغيرة». «۶»

---

(۱) سورة الدخان آية ۳

(۲) سورة القدر آية ۱

(۳) سورة الإسراء آية ۱۰۶

(۴) من هدى القرآن (ج ۶) ص ۳۲۳

(۵) سورة الزمر آية ۱

(۶) من هدى القرآن (ج ۱۱) ص ۴۲۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۵

نزل تدريجا .. لهذا السبب:

اشارة

لنقف هنا على الجانب الحساس فى هذا الموضوع لنتناول منه مسألة تنجيم القرآن على قلب النبى (ص)، و ما الحكمة منه؟

ربما لا نتساءل عن نزوله مرة واحدة حتى نقف على هذا الجانب، و نتحدث عنه بمقدار ما نقف على جانب تعدد النزول، فإن فى ذلك أسرار و حكمة تتناسب و طبيعة هذه الرسالة المتدرجة فى تعاليمها.

فما هى حكمة النزول بالتدريج؟

أولا: المرحلية فى طرح الرسالة:

التغيير سمة من سمات الأنبياء المصلحين، و شغلهم الشاغل، و سلاحهم فى ذلك هو الكلمة التى تعبر عن الفكرة، و البرنامج الذى جاءوا به للناس، لنقلهم من واقع لم يحقق إنسانيتهم إلى واقع يرفعهم إلى مستوى الإنسانية. فكانت الكلمة المعبرة التى التزمها النبى لكى تتحول إلى فعل ملزم فى شخصية مؤمن يتحرك وفق تلك البرامج التى جاءت لهدايته، و أنار الطريق له. فكان من العوامل التى ساعد على نجاح الفكر التغييرى للأنبياء، نفاده إلى فطرة الإنسان، و تسلطه على عقله و قلبه فأخذ فى بعث الحياة فيه من جديد، و تحولت الفكرة إلى فعل فى تحديد مسار التاريخ، و صياغة مصيره، و إعطاءه القدرة على ممارسة مهمته فى صنع الحضارة، و المشاركة فى بنائها عبر المكان بامتداد الزمان.

إن الرسالة المحمدية التى جاءت معالمها فى القرآن الكريم تهدف إلى تغيير فرد ضمن مجتمع كبير و واسع، و كلاهما مخاطب بالتغيير و كلاهما مؤثر فى

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۶

الآخر. فلم تكن الرسالة تتجاوز الفرد على حساب المجتمع، و لا المجتمع على حساب الفرد، بل هى عملية تغييرية لا تحمل إلا بعدا واحدا بالنسبة إلى الفرد و المجتمع، و هو البعد الديناميكى باعتبارها حركة يتغير بموجبها المحتوى الداخلى للإنسان فتغير بذلك المظاهر العامة للحياة.

و لعلنا نعزى السبب فى فشل الأطروحات الأخرى التى تدّعى أنها تحمل فكرا تغييريا على مستوى الحضارة لتقود المجتمع إلى السلام، لعل ذلك يرجع إلى ارتجالية أو عفوية أو اعتباطية هذا الفكر. و قد أشرنا إلى ذلك فى موضوع سبق هذا البحث، و حيث أن الإسلام يريد أن ينشر رسالة ليغير بها عقائد الناس و أفكارهم، يضع قوانين و تعاليم جديدة عليهم لتنظيم حياتهم الفردية و الاجتماعية، فكانت تأتيهم هذه التعاليم متدرجة، لصعوبة التغيير المفاجئ للأفكار التى سبق و أن آمنوا بها و عشعشت فى أدمغتهم، فما كان من الوحى الذى جاء ببديل لهذه الأفكار إلا أن يتدرج بالتشريع، و أن يكون الإقناع بالفكر الجديد خاضعا للأسلوب و الوسيلة التى يختارها اللّه. بل و حتى الظرف المناسب و الوقت الملائم، و ذلك تحاشيا للهزات الاجتماعية العنيفة، و الصدام الذى يحدث فيما لو فاجأهم الوحى بكل ما لديه، و بيان كل الانحراف الذى هم عليه مرة واحدة، فلا بد من أخذهم رويدا رويدا بما يوافق تطويرهم من التشريعات و الأنظمة و القوانين فيغير سلوكهم.

و كان للأسلوب دور كبير فى التدرج على صعيد المجتمع. فبدأ النبى (ص) بالأقرب ثم الأقرب ثم بعشيرته و بمجتمعه و قبيلته. كذلك تدرج فى الأسلوب، حيث كان القول الحسن ثم الإرشاد و الموعظة، و بيان المواقف السلبية و المقاطعات السلمية، و النهى عن الركون إلى الأعداء.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۷

كما أنه ليس من الحكمة وضع كل ما جاءت به الشريعة فى أيدى الناس و لو تم ذلك لما استطاع النبى (ص) أن يربى هذه الأمة. يقول الزرقانى فى الحكمة من تدرج القرآن: «التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة، و عبادتهم الفاسدة، و عادتهم المرذولة. و ذلك بأن يروضوا على هذا التخلى شيئا فشيئا، بسبب نزول القرآن عليهم كذلك شيئا فشيئا. فكلما نجح الإسلام فى هدم باطل انتقل بهم إلى هدم آخر، و هكذا يبدأ بالأهم ثم بالمهم حتى انتهى بهم آخر الأمر عن تلك الأرجاس كلها فطهرهم منها، و هم لا يشعرون بعنت و لا حرج، و فطمهم عنه دون أن يرتكسوا فى سابق فتنة أو عادة». «۱»

و هذه كانت طريقة القرآن فى تربية الأمة. و السياسة الرشيدة التى اتبعها النبى (ص) معهم- و لم تكن منه بل هى مستوحاة من كتاب اللّه- فأخذ يمهّد لهم الطريق كى يتحلوا بالعقائد الصحيحة، و يتركوا سلبيات الجاهلية، و التزموا الأخلاق الفاضلة، و يتجهوا إلى عبادة اللّه بدل عبادة الأصنام بهذه السياسة الرشيدة. و لهذا بدأ القرآن بفطامهم عن الشرك و الإباحة، و بصرهم بالتوحيد، و عرفهم على المسئولية فى الحياة الدنيا، و بيّن لهم أن هناك بعث بعد الموت و جزاء و حساب، كل ذلك بالأدلة و البراهين.

بعد ذلك جاءت مرحلة العبادة التى بدأها اللّه سبحانه و تعالى معهم بفريضة الصلاة قبل الهجرة، و الزكاة و الصوم فى السنة الثانية من الهجرة، ثم بعد ذلك بالحج فى السنة السادسة منها.

كما أن القرآن زجرهم عن الكبائر، و شدد عليهم فيها و نهاهم عن الصغائر. كل ذلك بالرفق و اللين. و تدرج بهم فى تحريم ما كان مستأصلا

---

(۱) مناهل العرفان فى علوم القرآن (ج ۱) ص ۴۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۸

فيهم كالخمر. و كانت الحكمة هى الغاية فى هذا التدرج حتى نهاهم عنها و خلصهم من خطرها و شرورها. فالقرآن أنتج هذا الأسلوب فى طرح رسالته فكانت الخطة التى اتخذها تنظر إلى البعيد إلى هداية الإنسان، لبناء حضارة شامخة تمتد جذورها فى أعماق الأرض قائمة على تشريع ربانى، و سياسة حكيمة.

ثانيا: صياغة شخصية القائد:

أ ليس اللّه هو الذى يبعث الأنبياء و يرسلهم إلى البشر؟ أ ليس الاختيار سبق البعثة و يكون على أساس حسن السيرة و السلوك للمبعوث؟

و المتتبع لحياة الأنبياء و سيرتهم يرى أن هناك لمسات إلهية مباشرة فى إعدادهم، و رعايتهم الخاصة من أجل القيام بأعباء المسئولية التى يحمّلهم إياها.

فكان اللّه يرعاهم قبل بعثتهم، فمنذ سنى حياتهم الأولى يكونون موجودين بعيدين عن الأرجاس و الأوثان، يتحلون بالصفات الحميدة و الأخلاق النبيلة، و بعد بعثتهم و اتصاله مباشرة بهم، أو عن طريق الوحى يخضعون للون خاص من الإعداد الإلهى لحمل مشعل الهداية إلى الناس بعد أن اكتملت فيهم معالم الشخصية الربانية التى تحمل صفات المصلحين.

و هكذا كانت شخصية النبى محمد (ص) خاتم الأنبياء تحت رعاية اللّه و تربيته، و ما نزول القرآن منجما إلا من أجل تحقيق هذه التربية، و إظهار عظمة النبى (ص) من خلال ارتباطه بالوحى.

فتجدد الوحى و تكرار نزوله من جانب اللّه إليه لتثبيت فؤاد النبى (ص) و

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۳۹

تقوية قلبه، كما قال سبحانه و تعالى: كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا «۱»، و قوله أيضا: وَ كُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْباءِ الرُّسُلِ ما نُثَبِّتُ بِهِ فُؤادَكَ. «۲»

و ذلك يعنى أن هذه المسئولية الملقاة على عاتق النبى (ص) أى النقلة الحضارية التى يجب أن يصنعها مع قلة الأنصار و كثرة الأعداء و اشتداد الخصام بينه و بين قريش و مع قلة الإمكانيات و الوسائل لمواجهتهم، فما كان من الوحى فى كل نوبة من نوبات النزول إلا لتأييد النبى (ص) و تعهد اللّه إياه و تسليته، و بيان مدى الارتباط الإلهى، و أنه بعين اللّه، كما خاطبه سبحانه و تعالى: وَ اصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا. «۳»

فلم يكن النبى (ص) يمتلك إلا أصالة الرسالة و صفوة من أصحابه و أهل بيته لهذه المهمة الصعبة التى خاطبه اللّه قائلا: فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ. «۴»

فالقرآن الكريم إنما نزل بشكل تدريجى من أجل أن يثبت النبى الذى يمثل القيادة و القدوة الحسنة للمسلمين فى هذه العملية التغييرية التى تواجه المصاعب و الآلام، و تحتاج إلى الصبر و الثبات.

«و هذا التثبيت ليس أمرا دفعيا آنيا بل هو عملية مستمرة و حاجة متجددة لأن النبى (ص) يواجه فى عملية التغيير قضايا و مشاكل و آلاما و مصاعب متجددة و مختلفة يحتاج فيها إلى الإمداد الإلهى، و التثبيت

---

(۱) سورة الفرقان آية ۳۲

(۲) سورة هود آية ۱۲۰

(۳) سورة الطور آية ۴۸

(۴) سورة الأحقاف آية ۳۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۰

القرآنى». «۱»

و مهما يكن فالنبى (ص) بشر قُلْ إِنَّما أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَ «۲» ففى طبيعته استعداد لجميع الانفعالات النفسية، فهو يشعر بما يشعر به البشر من الحزن و اليأس و ضيق الصدر، و لذا خاطبه القرآن قائلا: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ «۳» و فى آية أخرى فَلا

تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَراتٍ «۴» و كان الغرض من نزول هذه الآيات التى هى كثيرة فى هذا المجال لتسلية النبى (ص)، و تثبيت فؤاده، و إرشاده إلى الصبر فى مقابل استمرار أذى المشركين، و اضطهاد الكافرين له.

و كل ذلك للارتفاع بالنبى (ص) إلى قمة الأسوة الحسنة بضبط النفس ليفكر و يخطط بقراءته للقرآن فيستلهم منه الصفاء و الإخلاص كَذلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤادَكَ وَ رَتَّلْناهُ تَرْتِيلًا. «۵»

و لكى يكون التخطيط ناجحا يحتاج إلى قوة فى النفس، و عزيمة تشده إلى مقاومة كل إغراءات الحياة، فيبعد عن نفسه نقاط الضعف و العقد و السلبيات.

فالقرآن بهذا التدرج فى النزول، و تكرار نزول الآيات بهذه الطريقة، هى لتربية النبى (ص).

ثالثا: تربية الأمة:

---

(۱) الهدف من نزول القرآن ص ۷۷

(۲) سورة الكهف آية ۱۱۰

(۳) سورة الأنعام آية ۳۳

(۴) سورة فاطر آية ۸

(۵) سورة الفرقان آية ۳۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۱

الأمة الناشئة كالأمة الإسلامية فى ذلك اليوم بحاجة إلى التربية على صعيدى العلم و العمل، و القرآن بدوره أراد أن يبنى حضارة قائمة على أساس العلم مقرون بالعمل لا ينفك عنه، و العمل إن لم يكن له حظ من العلم فهو عمل المجانين الذين يعملون ما لا يعون به، و لا يفكرون قبل الإقدام عليه.

«قال رسول اللّه (ص) من عمل على غير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح». «۱»

فيمكن لنا أن نقول انهما فى نسق واحد فى حالة الحركة، و لو أنه لا بد من سبق العلم على العمل حتى يكون ذلك العمل الذى تجسد فى شخص الإنسان على الواقع موفقا.

و القرآن الكريم كتاب علم و عمل فى آن واحد، و ليس هو مجرد نظريات أو تشريعات يمكن لنا أن نخضعها للتجربة، و نرى مدى التجاوب معها، و أين يكمن الخطأ فيها فنقوم بإجراء تعديلات عليه، أن هذا هو شأن البشر و عقله المحدد، بينما القرآن كتاب جاء من اللامحدود خالق البشر، فهو كتاب أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ. «۲»

فليس الجانب العملى الذى تأكد من خلال ممارسة المسلمين الأوائل إلا تطبيقا للجانب العلمى لتنظيم شئون الناس الحياتية، فكانت تلك التعاليم التى أقرّها القرآن و واجبات الفرد و الجماعة و الحقوق العامة و إقامة الموازين بالقسط ليست تشريعات فحسب، بل هى تطبيقات جاءت مطابقة لسنة اللّه، و مسايرة للتطور التدريجى فى التغيير الذى حصل فى المجتمع يضل تنزيل القرآن على الناس بهذه الطريقة- أى نزوله شيئا فشيئا- يتغير المجتمع على أثر هذا النزول التدريجى حتى تتم عملية التغيير فى كل جوانب المجتمع بنزول القرآن

---

(۱) الكافى (ج ۱) ص ۲۴

(۲) سورة هود آية ۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۲

كاملا فى طيلة فترة الدعوة الإسلامية.

و كانت طريقة القرآن فى بيان هذين الجانبين- العلم و العمل- هو مسايرة الحوادث و الطوارئ التى تستجد عند المسلمين. فكان المسلم يتعلمها و يعلمها غيره بعد أن عمل بها.

و كان الوحى يتردد فى كل ما يستجد من أحداث و حسب احتياج الناس فيكون له الأثر التطبيقى البالغ فى نفوس المسلمين و يكون للحكم النازل صفة الالتزام العملى المباشر. و هذه الكيفية من نزول القرآن مدرجا على النبى (ص) هى التى أكسبته قوة التأثير فامتاز بأسلوبه العملى، و طريقته الفعالة فى بيان الأحكام و التشريعات.

و هذا النزول التدريجى كان لا بد منه لصياغة تلك النفوس فى إطار جديد، و تربية صحيحة لأنها قريبة عهد بالجاهلية، و بكل ما فيها من مورثات و سلبيات و مفاهيم خاطئة و أعراف لا يقرها العقل، فكانت تلك النقلة الحضارية قائمة على أساس من العلم الممنهج من قبل السماء.

فكان التدريج هو الخطوة العملية التى تستجيب لها النفوس، و الأسلوب المناسب للتغيير الجذرى. لأن النقلة الفورية و المفاجئة خطوة غير مدروسة، و عادة ما تكون ارتجالية، و غير عملية، و قد تسبب ردة فعل مضادة تهدم كل ما أرادته رسالة القرآن.

و لا شك أن الرسالة القرآنية كما هى قائمة على العلم قائمة على العمل المدروس، و المنظم الذى ليس فيه حشو و كثافة و تراكم، باعتبار أن هذه الجماعة التى آمنت بالرسول مبتدأة فى تلقى أحكام جديدة فكان لا بد من التمهيد لها فى خطوات عملية متعاقبة لا متراكمة مع بيان الجانب العلمى، و

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۳

هو ما اشتملت عليه تلك الأحكام من منافع و مضار و مآثم.

رابعا: ارتباط الأمة بوحى السماء:

و ذلك يحتاج إلى إرشاد المسلم إلى مصدر القرآن، و إنه قد جاء من اللّه وحده، و هو ليس بكلام من النبى محمد (ص)، و لا كلام بشر سواه.

و يتبين لنا من ذلك من خلال استعراضنا للقرآن و آياته، فلا نرى غير الإحكام فى المعنى، و الدقة فى اللفظ، و المتانة فى الأسلوب، ناهيك عن البلاغة و ما فيها من إعجاز، فإنك لا تجد غير النظم بين الحروف و الكلمات و التنسيق بين الجمل و الآيات فتراها مترابطة فى نسق واحد و سياق قرآنى جميل، كما

يقول أمير المؤمنين على بن أبى طالب (ع): «إن القرآن ظاهره أنيق و باطنه عميق». «۱»

و إن هذا لسر من أسرار القرآن الإعجازية، و سمة فريدة تدلنا على مصدره الربانى وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً. «۲»

هذه القوة الربانية المكينة أرادت أن تشد المسلمين و تربطهم به، فكانت طريقة النزول التدريجية ساعدت على ذلك حينما كانوا ينظرون حكما فى واقعة ما بشوق و لهفة ليستطلعوا على رأى السماء جرّاء هذا النزول المفرق.

يقول آية اللّه السيد حسن الشيرازى: «لتجدد عهد الأمة بالسماء. لأن نزول القرآن يلهب حماس الأمة و يدلها على ارتباطها الفعلى بالسماء. فلو نزل دفعة واحدة لانتهى زخم التجديد فيه فى فترة زمنية. و أما و قد نزل متفرقا فكان

(۱) نهج البلاغة خطبة ۷۵

(۲) سورة النساء آية ۸۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۴

زخم التجديد فيه مستمرا، يروّى المشاعر الإيمانية بالدم الجديد». «۱»

و هذا الارتباط أحدث تفاعلا بين الجانب التشريعى و الجانب التنفيذى، فكان المسلم يسمع آية أو حكما فيهرع لتطبيقه، و إبلاغه إلى بقية المسلمين.

فعن أبى عبد الرحمن السلمى قال: «حدّثنا من كان يقرئنا من الصحابة أنهم كانوا يأخذون من رسول اللّه (ص) عشر آيات فلا يأخذون فى العشر الأخر حتى يعملوا ما فى هذه من العلم و العمل». «۲»

و هذا الربط الفعلى بين المسلم و كتاب ربه يجعله خاضعا لإرادة اللّه ضمن تطبيق برامجه و تعاليمه الحقة، و يرفع عنه الضيق و الحرج حيث أن اللّه سبحانه يراقب تصرفات المسلمين، و ما يواجهونه من أحداث، و وقائع تحتاج إلى بيان فيكون الوحى حاضرا عند النبى (ص) لإخباره بأمر السماء لما لهم فيه من حرج و ضيق.

«فالمصاحبة الزمنية بين الحكم الذى تنزل به الآية و الحديث أو الواقعة سبب متين للامتثال و تطبيق الأمر الذى أحدث ترابطا و تلازما بين التشريع و التنفيذ. و لهذا كان المسلمون إذا سمعوا عشرا من الآيات يهرعون لتطبيقها ثم يعودون للاستزادة، و لو فرض نزوله دفعة واحدة لما تحقق ذلك». «۳» و من الجدير بالذكر أن نزول القرآن مفرقا يركز فى أذهان المسلمين تعاليم السماء شيئا فشيئا، و بالإقناع دون الإكراه حتى تتشرب قلوبهم القرآنية، و يكون التأثير واضحا على سلوكهم، فيشعر المسلم حينها أنه يؤدى هذه التكاليف

(۱) خواطرى عن القرآن (ج ۲) ص ۳۵۶

(۲) البحار (ج ۹۲) ص ۱۰۶

(۳) موجز علوم القرآن ص ۱۲۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۵

دون تصنع أو إجبار أو رقابة أحد، و لعل هذا الأسلوب يجعل المسلم أكثر قناعة بما يعمل فيمتثل لأوامر السماء، و يتصرف وفق هدى الشريعة، و ما تمليه عليه تلك الآيات النازلة عبر الوحى.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۶

مكى و مدنى:

اشارة

هناك طريقة أخرى جاء بها القرآن و قد تميزت به آياته، فقسم منها يسمى مكى و القسم الآخر يسمى مدنى. فما الفرق بينهما؟ و لما ذا هذا التفريق فى النزول؟

لعل من تسمية الآيات بالمكية و المدنية نفهم أن قسما من القرآن نزل على النبى (ص) فى مكة، و القسم الآخر نزل فى المدينة، و هذا يعنى أن دعوة النبى (ص) مرت بمرحلتين حسب نزول الآيات. مرحلة الرسالة الأولى كانت فى مكة قبل هجرة النبى (ص)، و المرحلة الأخرى كانت فى المدينة بعد الهجرة.

و ليس من غرضنا فى هذا البحث أن نستعرض بشكل مفصّل حول هذا الموضوع لأنه بحد ذاته بحث مفصّل يحتاج إلى إطناب و تحقيق فى مكى القرآن و مدنيه، و هو بحث جدير بالاهتمام و التأليف لمعرفة ذلك بالتفصيل.

و مع ذلك نحاول أن نفهم الشيء اليسير عن الموضوع، و ما هى فائدة فهمنا لذلك؟ لنكون على بصيرة لكتاب ربنا.

للعلماء فى تعريف المكى و المدنى ثلاثة آراء:

الأول: و منهم من اعتبر النزول أساسا فى التفريق بين المكى و المدنى.

الثانى: منهم من رأى أن المخاطبين هم الأساس فى ذلك، فالمكى ما وقع خطابا لأهل مكة، و المدنى ما وقع خطابا لأهل المدينة.

الثالث: و هو المشهور أن المكى ما نزل قبل الهجرة و إن كان بالمدينة، و المدنى

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۷

ما نزل بعد الهجرة و إن كان بمكة. «۱»

و يرى الزرقانى أن الرأى الثالث هو الأصح فيقول: «و هو تقسيم صحيح سليم لأنه ضابط حاصر و مضطرد لا يختلف بخلاف سابقيه، و لذلك اعتمده العلماء و اشتهر بينهم و عليه فآية الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً مدنية مع إنها نزلت يوم الجمعة بعرفة فى حجة الوداع، و كذلك آية إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَماناتِ إِلى أَهْلِها فإنها مدنية مع إنها نزلت بمكة فى جوف الكعبة عام الفتح الأعظم، و قل مثل ذلك فيما نزل بأسفاره عليه الصلاة و السلام كفاتحة سورة الأنفال و قد نزلت ببدر فإنها مدنية لا مكية على هذا الاصطلاح». «۲»

و يمكن لنا أن نقول هذا الرأى هو الأصح لأنه يضع أيدينا على الظروف و الملابسات التى نزلت فيها هذه الآية أو تلك، و بعبارة أخرى يبين لنا سبب نزول الآية فى ذلك الموقع سواء كان المدينة أو غير ذلك من المواقع التى نزلت فيها آيات القرآن، فسورة الفتح نزلت بين مكة و المدينة عند رجوع النبى (ص) من الحديبية.

من ذلك نشير إلى أن الغالب فى الآيات إنها نزلت فى المدينة و فى مكة، و سيتضح لنا من خلال بيان مواصفات و خصائص المكى و المدنى لكن هناك دلالات تاريخية واضحة كما أشرنا إلى بعض ذلك أنها لم تنزل فى مكة و لا فى المدينة و مع ذلك أدرجت إما فى القسم المكى أو القسم المدنى، فبناء على ذلك نقول أن أصح الأقوال هو الرأى الثالث فحينها نستطيع أن ندرج ما لم

---

(۱) البرهان للزركشى (ج ۱) ص ۱۸۷

(۲) مناهل العرفان (ج ۱) ص ۱۷۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۸

ينزل فى المدينة و لا فى مكة ضمن هذا الرأى.

و لعل فى هذا الرأى إشارة إلى عامل الزمن فيكون إلى جانب المكان الذى نزلت فيه الآية و الأشخاص المعنيين بها و الموضوع الذى تحدثت فيه عنهم.

و لكن لعامل الزمن دور كبير فى معرفة التاريخ الإسلامى للدعوة المحمدية و التاريخ التشريعى للحكم التكليفى بمعرفة موضوع ذلك الحكم، و بهذا لا يمكن أن نتغاضى عن هذا العامل معولين على المكان أو الأشخاص أو الموضوع فى التقسيم المكى و المدنى، يقول الدكتور صبحى الصالح: «هذه سورة الممتحنة من مطلعها إلى ختامها نزلت بالمدينة إذا لاحظنا المكان، و كان نزولها بعد الهجرة إذا اعتبرنا الزمان و وقعت خطابا لأهل مكة إذا أردنا الأشخاص، و اشتملت على توجيه اجتماعى محض قلوب المؤمنين إذا رغبنا بمعرفة، لذلك أدرجها العلماء فى باب ما نزل فى المدينة، و حكمه مكى و ذلك قوله تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا «۱» نزل بمكة إذا التمسنا المكان و يوم الفتح بعد الهجرة إن تحرينا الزمان، و الغاية منه

الدعوة إلى التعارف و تذكير الإنسانية بوحدة أصلها إن راعينا الموضوع و هو- إن راعينا الأشخاص- خطاب لأهل مكة و المدينة على السواء. فما سمّاه العلماء مكيا على الإطلاق و لا مدنيا على التعيين بل أدرجوه فى باب ما نزل بمكة و حكمه مدنى.

على أننا لم نتردد فى تفضيل التقسيم الزمنى للمكى و المدنى لأننا نواجه موضوعا وثيق الصلة بالتاريخ، فليس لنا أن نختار فى مثله التبويب المكانى ما دمنا نرمى إلى تحديد ما نزل بمكة أو المدينة ابتداء و وسطا و ختاما، فإن هذه

---

(۱) سورة الحجرات آية ۱۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۴۹

الأطوار المتعاقبة تفرض أن يكون اختيار الترتيب الزمنى أمرا بديهيا لا مجال للتردد فيه. أما تعيين الأشخاص و استخراج الموضوعات فأمران ثانويان يقعان موقعهما المناسب من الترتيب الزمنى المترادف ترادف الوقائع و الأحداث». «۱»

و لا شك أن المكان يلعب دورا باعتباره يحدد موقع الآية دون أن يتجاهل البيئة و تأثيرها على الأشخاص، لكن عامل الزمن يبقى هو الواجهة الرئيسية فى تقسيم القرآن إلى مكى و مدنى.

التقسيم و موضوعات الآيات:

إن لهذا التقسيم أهمية كبيرة فى معرفة موضوعات آيات القرآن و محتواها من حيث الظرف الزمانى و المكانى الذى نزلت فيه. فلا شك أن الآيات المكية تختلف فى موضوعها و محتواها عن الآيات المدنية، فالمكية كانت فى بداية الدعوة فهى تتحدث عن أمر جديد فى ظروف خاصة كان اهتمام الوحى بأمر السماء فى أن تسير الدعوة وفق تعليمات تصدر من اللّه عز و جل، فكانت الآيات مرافقة لتلك الظروف و الأوضاع التى كان يعيشها النبى (ص) مع ذلك المجتمع، فكان يحوطها نوع من السرية التامة، بينما الآيات المدنية اختلفت فيها الظروف و تغيرت الأحوال إلى أحسن حال، فاستتب الأمر إلى النبى (ص) و شكّل الحكومة الإسلامية فى أطرها و قوانينها النابعة من القرآن، فكانت تلك الآيات مرافقة للنبى (ص) فى دعوته فى المدينة عبر نظامه الذى أقامه فيها، لعل هناك مميزات تميّز المكى عن المدنى نبيّها فيما بعد.

و أهم ما نستفيده بناء على هذا التقسيم مجموعة من الحقائق:

---

(۱) مباحث فى علوم القرآن ص ۱۶۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۰

أولا: معرفة تاريخ الدعوة و المراحل التى مرت فيها من خلال الآيات المكية و ما تتحدث عنه، و الآيات المدنية من مواقع و أحداث و أشخاص بمعرفة التسلسل الزمنى لنزول هذه الآيات.

«كان العلم بالمكى و المدنى إذا خليقا بالعناية البالغة التى أحيط بها، و جديرا أن يعد بحق منطلق العلماء لاستيفاء البحث فى مراحل الدعوة الإسلامية، و التعرف على خطواتها الحكيمة المتدرجة مع الأحداث و الظروف، و التطلع إلى مدى تجاوبها مع البيئة العربية فى مكة و المدينة و فى البادية و الحاضرة، و الوقوف على أساليبها المختلفة فى مخاطبة المؤمنين و المشركين و أهل الكتاب». «۱»

ثانيا: معرفة الجانب التشريعى من حيث النزول و التدرج و التاريخ.

فلذلك دور كبير فى فهم و معرفة الحكم التكليفى، فمن حيث النزول يدلّنا على الناسخ من المنسوخ، فالمكى و هو ما نزل قبل الهجرة قد يكون منسوخا بالمدنى و هو الذى نزل بعد الهجرة فيما إذا وردت آيات فى موضوع واحد، فإحداها مكية و الأخرى مدنية فتكون

المدنیة ناسخة لأنها متأخرة رتبة.

و یدلنا أیضا علی تاریخ التشریع و التدرج فی الحکم، فأحکام الشریعة نزلت حسب النزول التدریجی للآیات فکان العلم بهذه الآیات یبرر لنا مواکبة هذه الأحکام الشرعیة للحرکة التغییریة التی بدأها الوحی بالتدریج علی النبی (ص)، کانت مصاحبة للظروف و المتغیرات الزمنیة التی تمر علی المسلمین فی أثناء دعوة النبی (ص) لهم بالإیمان به و تصدیقه.

---

(۱) مباحث فی علوم القرآن ص ۱۶۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۱

خصائص و ممیزات:

الذی یجعلنا نؤکد ذلک التفریق بین المکی و المدنی هی ممیزات کل واحد منهما فی الموضوع و المحتوی. فإن آیات القرآن لا تحمل طابع التکرار بل کل آیة من آیاته تتحدث عن قاعدة عامة تدور حول الخط العام للقرآن الذی جاء للإنسان. و سعة القرآن لا تتحدد بآیات نزلت فی مکان معین قبل الهجرة و بعدها، و إنما هی تتجدد و یتجدد معها القرآن فی کل مکان و زمان و لکل الناس، فهذا التقسیم ما هو إلا مجرد تحدید لمکان نزول هذه الآیات.

عن الإمام الرضا (ع) عن أبیه (ع) أن رجلا سأل أبا عبد اللّه (ع) ما بال القرآن لا یزداد علی النشر و الدرس إلا غضاضة؟! فقال: «لأن اللّه تبارک و تعالی لم یجعله لزمان دون زمان و لا لناس دون ناس فهو فی کل زمان جدید و عند کل قوم غض إلی یوم القیامة». «۱»

فلیس هناک فرق بین المکی و المدنی فی الدعوة إلی اللّه و هدایة الإنسان إلی الطریق الصحیح. فکل آیات القرآن تشترک فی شیء واحد و هو إخراج الإنسان من الظلمات إلی النور. نعم قد یکون الاختلاف فی الموضوعات التی تکون ضمن هذا السیاق و الهدف، و هی التی تتلف باختلاف احتیاجات هذا الإنسان فی الحیاة، و تعدد أغراضه، و تنوع أفکاره، و ما یتلاءم مع فطرته فی الحیاة الدنیا.

فعلی هذا الأساس جاءت الموضوعات المختلفة فی القرآن. و من هذا المنطلق کانت للآیات المکیة ممیزات و خصائص فی الجانب الموضوعی تختلف عن الآیات المدنیة، فمحتواها یختلف انطلاقا من الظروف المختلفة التی عاشتها

---

(۱) البحار (ج ۲) ص ۱۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۲

الدعوة و واکبتها فی مراحلها التی مرت فیها.

مکة و بدایة الدعوة:

المشکلة التی عالجها القرآن فی المجتمع المکی تختلف باختلاف الظروف المحیطة به، و البیئة التی یعیشها، فقد کانت مشکلته جذریة حیث تطبع هذا المجتمع بطابع الوثنیة و اتسم باللا دینیة، و کانت مکوناته الفکریة تعتمد اللاأخلاقیة التی تمیزت بتبنی المسار الانتکاسی للروح و العقل، و کانت هذه المکونات الملتقطة هی الظواهر المرئیة التی عبّر بها المجتمع الجاهلی عن عبادته للأصنام، فانعکست هذه العبادة الشرکیة علیه، و أخذت تتطبع ممارساته و سلوکه بطابع الشرک.

و توحید اللّه مشکلة المجتمع المکی التی بدأ القرآن یعالجها من الیوم الأول لأنها جذر المشاکل التی تنطلق منها کل الثقافات المنحرفة التی تمظهرت بشعائر و طقوس یمارسها الفرد لتبریر حالة الانتکاس و التردی التی أصیب بها المجتمع، فما کان من القرآن إلا أن یعالج جذر هذه المشاکل بتحویل العقیدة المشوهة لدیهم عن الرب إلی عقیدة صادقة یتعاملون معها کحقیقة ثابتة و خاضعة

لمنطق العقل لا الهوى، و منطق الرغبة الصادقة فى المعرفة الموصلة إلى درب التوحيد إلى اللّه عز و جل.

فجاءت الآيات المكية، و كانت نصوصها قد بيّنت هذه الحقيقة و هى أن أساس الفكر الدينى يتمثل فى الاعتقاد بأن اللّه واحد وحيد لا وجود لإله سواه، و إنه الواحد الذى خلق كل شىء، و أوجد هذا الكون بقدرته. و كان طابع الدعوة فيها إلى أصول هذه العقيدة كالإيمان باللّه، و نبذ الشرك، و الخلافة فى الأرض التى تحفظ عزتهم و وحدتهم المتمثلة فى أمر النبوة، و التصوير الفنى

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۳

الرائع لمشاهد الحساب و الجزاء و الجنة و النار.

يقول الزرقانى: «إنه حمل (أى القرآن) حملة شعواء على الشرك و الوثنية و على الشبهات التى تذرع بها أهل مكة للإصرار على الشرك و الوثنية، و دخل عليهم من كل باب و أتاهم بكل دليل، و حاكمهم إلى الحس، و ضرب لهم أبلغ الأمثال حتى انتهى بهم إلى تلك الآلهة المزيفة لا تقدر أن تخلق مجتمعة أقل نوع من الذباب بل لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شر عادية الذباب و قال: يا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَ لَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَ إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَ الْمَطْلُوبُ «۱»». «۲»

و لم تقتصر الآيات المكية على الدعوة إلى التوحيد و نبذ الشرك. بل راحت تتحدث عن تلك العادات الشركية، و السلبيات التى ينتجها الكفر باللّه كالقتل و سفك الدماء و وأد البنات و استباحة الأعراض و أكل مال اليتيم و دعتهم إلى تطهير النفس لتقبل فكرة التوحيد، فأكّدت على أصول الأخلاق، و فعل الخير، و اعتبرت ذلك منطلقا للتحرك الاجتماعى، مما أكسب الدعوة رسوخا فى أذهان الناس.

فكانت الأخلاق و الحقوق الاجتماعية التى يجب أن تسود قائمة على فكرة التوحيد، فهى الركيزة الأساسية، و المنبع لهذه القيم، فجاءت الآيات المكية تحمل وصفا عجيبا لهذه القيم الأخلاقية و الحقوق الاجتماعية.

و قد استخدم القرآن فى مكة أسلوبا أبلغ للموعظة و الإرشاد لإبطال هذه

---

(۱) سورة الحج آية ۷۳

(۲) مناهل العرفان (ج ۱) ص ۱۹۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۴

الأفكار إلى أذهانهم. إنه قصّ عليهم تلك القصص التى تتحدث عن أخبار الرسل، و الأنبياء السابقين، و الأمم الغابرة. و كان ذلك أيضا ميزة تميزت بها الآيات المكية و لم يكن إلى ذلك سبيل غير الإيجاز فى الخطاب، و لذا جاءت هذه الآيات قصيرة فى اللفظ، كبيرة فى المعنى، بل حتى أن اكثر السور القصار قد نزلت فى مكة، و ذلك لكى تكون ابلغ فى التأثير.

المدينة و قيام الدولة:

الحديث عن الآيات المدنية حديث عن المجتمع المدنى الذى نزلت فيه هذه الآيات حينما استتب الأمر للنبى (ص)، و أقام صرح الدولة و بناء أنظمتها، فاختلف الموضوع هنا و جاءت الآيات المدنية متناسبة مع ما صنعه الرسول الأكرم (ص).

و كان ذلك الواقع الذى فرض فى نفسه المدينة بعد جهد مرير بذله النبى (ص) و أصحابه بحاجة إلى بيان التصورات القرآنية لوضع أسس و برامج لذلك المجتمع، و معالجة مشاكله مع التجمعات الأخرى، و كيفية العيش معهم، و حدود تلك العلاقة التى يجب أن تكون.

فكانت الآيات النازلة على قلب النبى (ص) فى المدينة المنورة تتحدث عن دقائق التشريع، و تفصيلات الشريعة، و إعطاء الخط العام و

القواعد الأساسية لاستنباط القوانين المدنية التى يحتاج إليها الفرد و المجتمع فى بناء علاقاته المختلفة.

و لم تقتصر على هذا المجال بل راحت تتحدث إلى النبى (ص) عن طريق الوحى بأدق التفاصيل فى القضايا الاجتماعية- كالحقوق الشخصية و المشاكل الجنائية و غير ذلك مما يختص بالنظام الاجتماعى- و لم تكتف بذلك و إنما أدرجت هذه الأمور تحت ظل نظام له قواعد و ركائز تحفظ للناس حقوقهم

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۵

الكاملة. فأقام النبى (ص) صرح الحكومة الإسلامية وفق تلك الآيات حيث دعته إلى تنظيم العلاقة بين الناس و إقامة الحدود و الفرائض و القضاء و سائر ضروب العبادات و المعاملات و إقامة القوانين الاقتصادية و السياسية و المعاهدات و المواثيق الدولية و بيان أحكام الجهاد فى الإسلام.

و كل ذلك قد أبرز هيبة النبى (ص) و قوته من خلال التفاف الجمع الكبير حوله فى المدينة مما دعاه إلى إقامة هذا الصرح بأمر السماء، و كانت تلك الهيبة التى تحوطها أخلاقه و استتباب الأمر له. كل ذلك جعل الوحى يأتى بآيات من السماء تدعوا النبى (ص) لمناقشة أهل الكتاب و دعوتهم إلى الإسلام، و كانت سورة البقرة و آل عمران و المائدة و الفتح و غيرها حافلة بالآيات التى تعالج انحرافاتهم عن العقيدة الحقة و تحريفهم لكتب السماء. و قد تم بيان هذه الآيات لهم من خلال محاكمتهم إلى العقل و التاريخ، و إرجاعهم إلى جذورهم و فطرتهم إن لم يؤمنوا بهذا الكتاب و ما فيه من براهين على صدق دعواه. لذا امتازت المدينة بطولها باعتبار التفصيل للأدلة على تلك الحقائق الدينية التى ساقتها هذه الآيات لردع أهل الكتاب عن غيهم، و إبعادهم عن طريق الانحراف، بعد تحكيم أسلوب الحوار الهادئ معهم، و بسط أسلوب الإقناع.

و لم يكن أهل الكتاب فقط موردا للآيات المدنية بل كانت هناك فئة أخرى فى المجتمع، فجاءت الآيات القرآنية تحذر النبى (ص) و هم أهل النفاق الذين تزعموا حركة سياسية مناهضة لم تكن ظاهرة للعيان، و كانت تحمل فى داخلها أهدافا ارتكزت على الحقد و المكر و الخديعة، فنجد القرآن النازل فى المدينة يتحدث عنهم، و عن مواقفهم، و يحذرهم، و يتوعدهم بالعذاب الشديد.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۶

محكم و متشابه:

اشارة

ما ذا يعنى المحكم و المتشابه؟

قد نجيب على هذا السؤال، و قد تكون الإجابة واضحة، و لكن ما هى فلسفة المحكم و المتشابه فى القرآن؟ فهل هو نوع من التحدى أو الإعجاز أو هو نوع من التناقض (و العياذ باللّه) أم ما ذا؟

ما ذا نعنى بالمحكم أولا و قبل الإجابة على تلك الأسئلة فى اللغة أ ليس الإحكام يعنى الإتقان و كمال الشىء؟ فإذا أريد ذلك من القرآن فكله محكم من كل جوانبه فلا- نقص فيه لا- فى الألفاظ و العبارات و لا- فى المعنى و إقامة البرهان و الحجة، فهو كتاب لا تشوبه شائبة، كما يقول سبحانه: الر كِتابٌ أُحْكِمَتْ آياتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ. «۱»

أما المتشابه فإذا أردنا به التشابه فكل آيات القرآن متشابهة لأنها تنطلق ضمن الخط العام لهداية الإنسان، فهى متشابهة فى الحق و الصدق و البلاغة و الإعجاز، فلا تجد آية من آياته لا تقوم على إحدى هذه الأمور، فكل آية هى حق و صدق، و لا يرقى إليها شك، و يعجز الإنسان عن أن يأتى بمثلها.

فيقول عز و جل اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتاباً مُتَشابِهاً مَثانِيَ «۲» يشبه بعضه بعضا فى كل شىء، و لعل كلمة أحسن تدلنا على أن

الأحسن لا قصور فيه من حيث الدلالـة و البلاغـة فى ألفاظه و معانيه و فى أغراضه و مقاصده، و ربما دلنا ذلك على الانسـجام الكامل بين أحكامه و معارفه التى جاء بها، لكن مع ذلك لا ريب فى أن القرآن يشمل على المحكم و المتشابه ليس بالمعنى الذى

---

(۱) سورة هود آية ۱

(۲) سورة الزمر آية ۲۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۷

ذكرنـا، و بتصـريح من القرآن نفسه حيث يقول سـبحانه و تعـالى: هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ «۱» و فى الآية صراحة واضحة و دلالة قوية على وجود المحكم و المتشابه، و هذا مال نريد أن نتوصل إليه. فما ذا يعنى المحكم و المتشابه؟ و ما هى فلسفة ذلك؟

يبـدو من خلال الآيـة المتقدمة أن المحكم يقابل المتشابه، و لكنهما و من حيث العدد فإن مما لا شك فيه أن الآيات المحكمات هى الغالبـة فى القرآن أما الآيات المتشابهات فإنها قليلة، و هذا و ذاك مما يدعونا إلى أن نتعرف على كلاهما، و مع كثرة الآراء حول هذا الموضوع إلا أنها و بالنتيجـة تصب فى مصب واحـد و هى «أن المحكم هو الـذى يـدل معناه بوضوح لا خفاء فيه، و المتشابه هو الذى يخلو من الدلالة الراجحة معناه». «۲»

«و وضوح الدلالـة فى المحكم يغنينـا عن البحث عنه لأـن قراءتنـا له كافيـة لإفهامنا المراد منه، و لكن خفاء المتشابه جـدير بأن يشـغلنا بعض الشىء لكى نعرفه ثم نتجنبه فلا نتبعه كالذين فى قلوبهم زيغ». «۳»

هـل يعنى ذلك أن هناك آيات فى القرآن واضـحة و آيات غامضـة لا يمكن لنا أن نفهمها، و كيف نوفق بين فهمنا للقرآن و تيسـيره للناس و بين هذه الآيات الغامضة.

---

(۱) سورة آل عمران آية ۷

(۲) الإتقان (ج ۲) ص ۵

(۳) مباحث فى علوم القرآن ص ۲۸۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۸

البحث عن حكمة المتشابه:

أولا: معرفة الحقيقة

علينا أن نتعرف على حقيقة المتشابه و نتعرف على معناه من خلال الرجوع إلى مصادر اللغة أو إلى روايات أهل البيت المفسرة للقرآن دون أن نتعجل و نضع له تفسـيرا من عند أنفسـنا، أو نؤوّله تأويلا لا يتوافق مع القرآن و حينما لا نصل إلى شىء من ذلك حكمنا عليه بالمتشابه

يقـول الإمـام على (ع) «و إنمـا هلـك النـاس فى المتشـابه لأـنهم لم يقفوا على معنـاه و لم يعرفوا حقيقته فوضـعوا له تأويلاـت من عند أنفسهم بآرائهم و استغنوا بذلك عن مسألة الأوصياء». «۱»

فلاـ يعنى ذلـك أن هناك غموض فى القرآن، و إنما الغموض هو فى فهمنا، فيمكن لنا إذا أن نرفع التشابه حينما نحاول أن نبحث عن حقيقة هذه الآية أو تلك، يقول العلامة الطباطبائى: التشابه يقبل الارتفاع بتفسير المحكم له «۲»، و هذا ما يتضح لنا فى النقطة الثانية.

ثانيا: رد المتشابه إلى المحكم:

و يمكن لنا أن نعبّر عن الآيات المحكمة هنا المتقنة التى لا يرقى إليها أدنى شك، فهى اصل الكتاب، و منها نستنبط رؤى الدين و أحكامه، و على أساسها تقوم قواعد الإسلام و أركانه، فيكون العمل بها اجدر بدلالة وضوحها و بيانها للأحكام و البصائر الدينية، بينما المتشابه قد نؤمن به و لكن لا نعمل به لأنه متشابه و متزلزل فى مراده، و لذا

سئل أبو عبد اللّه (ع) عن المحكم و المتشابه

---

(۱) البحار (ج ۹۲) ص ۳۸۲

(۲) الميزان (ج ۳) ص ۶۸ القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۵۹

قال: «المحكم ما يعمل به و المتشابه ما اشتبه على جاهله». «۱»

و عنه أيضا (ع): «إن القرآن محكم و متشابه فأما المحكم فتؤمن به و تعمل به و تدين و إما المتشابه فتؤمن به و لا تعمل به» «۲»

، و لكن فى حالة رد المتشابه إلى محكم و معرفة الآيات المتشابهة من خلال عرضها على الآيات المحكمة تدخل و بلا شك فى مجال العمل بها فى حالة الفهم التفصيلى لها أو الفهم الإجمالى فانهما يرفعان التشابه عن هذه الآيات و لذا نرى أن هناك توجيه لنا من أهل البيت فى معرفة المتشابه برده إلى المحكم

فيقول الإمام الرضا (ع): «من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدى إلى صراط مستقيم». «۳»

يقول العلامة الطباطبائى: «ما نفهمه من ملخص ما اثر عن أئمة أهل البيت (ع) هو نفى وجود آية متشابهة لا يمكن معرفة مدلولها الحقيقى بل الآيات التى لم تستقل فى مداليلها الحقيقية يمكن معرفة تلك المداليل بواسطة آيات أخرى و هذا معنى إرجاع المتشابه إلى المحكم». «۴»

و إليك مثال على ذلك فى رد المتشابه إلى المحكم التى اعتبرها القرآن قاعدة من القواعد فى فهم و معرفة الآيات المتشابهة، و قبل أن نحكم عليها أن نرجع إلى هذه القاعدة، فيقول سبحانه و تعالى: وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ، إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ «۵» و للوهلة الأولى ربما نحكم عليها بالمتشابه باعتبار استحالة النظر إلى اللّه و رؤيته حتى يوم القيامة، حيث ذهبت بعض المذاهب إلى جواز رؤيته سبحانه يوم القيامة، بينما لو لاحظنا الآيات الأخرى فى القرآن التى نرد إليها

---

(۱) الميزان (ج ۳) ص ۶۶

(۲) الميزان (ج ۳) ص ۶۶

(۳) البحار (ج ۹۲) ص ۳۷۷

(۴) القرآن فى الإسلام ص ۴۹

(۵) سورة القيامة آية (۲۲- ۲۳)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۰

هذه الآية و نرجعها لها لرأينا انه يمكن لنا أن نفهم هذا المتشابه، فيقول سبحانه فى آية أخرى لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ «۱» و هذه تنفى نسبة النظر إلى اللّه لأنه لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ «۲» و ربما المراد من الرؤية و النظر هنا هى الرؤية القلبية، كما تبينها لنا آية أخرى فى كتاب اللّه حيث يقول ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى «۳» فليست الرؤية هى المادية كما يتصور البعض بل هى البصيرة الباطنية التى ترى اللّه دون كيفية و لا إحاطة، كما بين لنا ذلك

النبى (ص) فى تفسير الآية الأولى إِلى رَبِّها ناظِرَةٌ فيقول: «ينظرون إلى ربهم بلا كيفية و لا حدود و لا صفة معلومة». «۴»

ثالثا: مستوى الفهم

الناس فى الفهم و الإدراك مستويات مختلفة، و درجات متفاوتة، و القرآن جاء لهم جميعا فهو على درجات. فليس كل هؤلاء الناس يفهمون كل ما فى القرآن، ففيه آيات عامة يفهمها الجميع يبنى عليها قواعد الدين و سائر الأحكام، و هناك آيات خاصة لا يفهمها إلا الراسخون فى العلم الذين حصلوا على مرتبة من المعرفة، و هم متفاضلون فى فهمهم للقرآن.

فقال سبحانه و تعالى: وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ «۵» «و ربما يعتبر البعض من علماء الأحناف و بعض المفسرين أن الواو استئنافية فى قوله تعالى وَ الرَّاسِخُونَ و بذلك يلغون مسألة فهم القرآن بالنسبة لمن وصل

---

(۱) سورة الأنعام آية ۱۰۳

(۲) سورة الشورى آية ۱۱

(۳) سورة النجم آية ۱۱

(۴) الدر المنثور (ج ۶) ص ۲۹۰

(۵) سورة آل عمران آية ۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۱

إلى مرتبة من العلم و الفهم و الدراية و المعرفة، بينما يخالفهم علماء الجمهور فيقفون على كلمة العلم و يعتبرون الواو عاطفة.

فمن مفسرى الشيعة ذهب لذلك الطبرسى فى مجمع البيان فاعتبر الوقوف على كلمة العلم و الواو عاطفة، و فسّر المحكم بالذى لا يحتمل إلا وجها واحدا من التأويل، و المتشابه الذى يحتمل اكثر من وجه و قال: و لذلك كان الصحابة لا يتوقفون فى تفسير شىء من آى القرآن. و كان عبد اللّه بن عباس إذا قرأ هذه الآية يقول: (أنا من الراسخين فى العلم و

كان الإمام أبو جعفر الباقر (ع) يقول كان رسول اللّه (ص): «أفضل الراسخين فى العلم قد علم جميع ما أنزل اللّه عليه من التأويل و التنزيل و ما كان اللّه تعالى لينزل عليه شيئا لم يعلمه تأويله، و هو و أوصيائه من بعده يعلمونه كله». «۱»

فموقف المؤمن أن ينظر إلى الآية دون استعجال فى الحكم عليها من أى نوع فإذا فهمها اخذ ما فيها من رؤى و أفكار و بصائر و عمل بها، و إن لم يفهم الآية وقف عندها، و لا يحق له أن يضيف عليها شيئا من عنده، و لا يحاول أن يعطى تأويلا بدون علم، بل لا بد عليه من الرجوع إلى أهل العلم و المعرفة و الذكر و السؤال منهم، كما يقول سبحانه: فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ. «۲»

و على الإنسان المؤمن أن يتحرز جيدا بالوقوف عند المتشابه و لا- يتجاوزه بل يقف على المحكم كى لا يؤدى ذلك التجاوز إلى خلط فى المفاهيم و الأفكار و عدم معرفة الحق من الباطل.

و المتشابه لا يعنى وجوده فى القرآن خلل فى الصياغة، أو فساد فى اللفظ،

---

(۱) نحو تفسير علمى للقرآن ص ۵۰

(۲) سورة النحل آية ۴۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۲

أو المعنى. فليس ذلك يرقى إلى القرآن فهو كتاب محكم، و قد تم إحكامه و صياغته من لدن خبير حكيم. كما انه لا يعنى أن هناك آية من آيات القرآن لا يمكن معرفة معناها بطريق من الطرق، فالآيات المتشابهة ربما تحمل وجوها مختلفة تستلزم خفاء معنى مراد

فعلينا أن نجدّ فی البحث عنه، و هذا ما يؤكد عظمهٔ القرآن و إعجازه، فقد تكون هناك حكمهٔ و فلسفهٔ معينهٔ من وراء وجود ذلك فی القرآن فما هی تلك الحكمهٔ يا ترى؟

للمتشابهات ثمرات:

أولا: تجديد البحث العلمی:

المحاولـهٔ التی يبـذلها الإنسان للوصول إلى الحقيقـهٔ لمعرفهٔ البصائر القرآنيهٔ من خلال طرق الآيات المتشابههٔ فی عمليهٔ علميهٔ من أجل استحصال رأی حولها و تكون تلك المحاولهٔ ضمن رد المتشابه إلى المحكم كرد الفروع إلى الأصول.

فالآيات المحكمهٔ هی بمثابهٔ الأصل أو القاعدهٔ و إعطاء المجال للإنسان بمستوياته العلميهٔ المختلفهٔ و المتفاضـلهٔ لمعرفهٔ المتشابه، و ما ذلك إلا نوع من توسيع لتلك المدارك العلميهٔ. فمهما بلغ الإنسان من العلم مبلغا فهو لا يزال عاجزا أمام قدرهٔ اللّه الخارقهٔ. فما وصل إليه من حقائق قرآنيهٔ حتى فی الآيات المحكمهٔ لا يعنی إنها الحقيقهٔ النهائيهٔ بل ربما قد يستظهر أمرا آخر، حقيقهٔ أوسع نطاقا من تلك بإمعان النظر فی القرآن، و كثرهٔ التـدقيق، و التـدبر فی الآيات من خلال الظواهر اللفظيـهٔ التی يراها الإنسان أمامه، و التمعن فيها حسب المستوى العلمی للإنسان، فكلما كان على درجـهٔ كبيرهٔ من العلم، وحـدهٔ فی الـذكاء و العقل استطاع أن يفهم الحقيقهٔ الناصـعهٔ لهذه الآيات القرآنيهٔ.

فعن الإمام زين العابدين (ع): «كتاب اللّه عز و جل على أربعهٔ أشياء على العبارهٔ و الإشارهٔ و

القرآن نهج و حضارهٔ، ص: ۲۶۳

اللطائف و الحقائق فالعبارهٔ للعوام و الإشارهٔ للخواص و اللطائف للأولياء و الحقائق للأنبياء». «۱»

و عن الإمام الباقر (ع): «إن للقرآن بطنا، و للبطن بطن، و له ظهر و للظهر ظهر، .. و ليس شـیء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إن الآيهٔ لتكون أولها فی شیء و آخرها فی شیء آخر و هو كلام متصل على وجوه». «۲»

و لعل اشـتمال القرآن على المتشابه و عـدم اقتصاره على المحكم هی دعوهٔ موجهـهٔ إلى الإنسان للاطلاع اكثر و التعمق فی آيات اللّه. يقول الدكتور الوائلی: «أن يشتغل أهل النظر و الفقه برد المتشابه إلى المحكم فتشحذ قرائحهم و يطول نظرهم و يتصل فكرهم بالبحث عن معانيه فيثابون على اجتهادهم و يتميز العالم من غيره و لو كان كله محكما لاستوى فی معرفته العالم و الجاهل و لماتت الخواطر و خـدمت القرائـح إلى غير ذلك مما يذكر» «۳» فـإذا كان وصوله إلى الحقائق من الآيات المحكمـهٔ يحتاج إلى جهـد علمی، و تجـديد لـذلك البحث لكی يرى مصداقيـهٔ هـذه البصائر فكيف بالآيات المتشابههٔ؟ فهی بحاجهٔ إلى روح علميهٔ تجتهد فی فهم هذه الآيات، و تعرف كيف تتعامل معها؟.

ثانيا: تنميهٔ العقل:

التقليـد مشـكلهٔ الإنسان يفقـده القـدرهٔ على كشف الحقائق، و الوصول إلى الغايات الحقهٔ، و الأهداف النبيلهٔ، و يجعل على عقله غطاء يحجبه عن الحقيقهٔ فيصبح جاهلا لأبسط الأمور لتوقف عقله عن التفكير فی إتباع الغير، لأنها

---

(۱) البحار (ج ۹۲) ص ۲۰

(۲) البحار (ج ۹۲) ص ۹۵

(۳) نحو تفسير علمی للقرآن ص ۵۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۴

عملية غير مكلفة بالنسبة إليه.

فعلا- هذه من مساوئ التقليد فإنه يوقف العقل عن عملية التفكير، و يوقفه عند حدود معينة لا تتجاوز القضايا البسيطة اليومية التى يعيشها فى حياته من مأكل و مشرب، حينها يقف النمو لهذا العقل، و لا يتحرك من مكانه.

ظلمة التقليد بحاجة إلى إزاحة عن عقل الإنسان ليحل محلها النور. و لعل القرآن أشار إلى هذا الموضوع فى كثير من آياته، و وضع له الحلول، و البرامج فى رفع هذه الظلمة، و ما اشتمال القرآن على المتشابه إلا و هو برنامج من البرامج التى ترفع هذه الغشاوة حيث تضطر الناظر فى القرآن و فى هذه الآيات إلى الاستعانة بالعقل و الأدلة العقلية، و يتحرك نحو التفكير الذى تعتمد عليه الدراسات و البحوث العلمية العميقة و تعطى النتائج الإيجابية. و القرآن الكريم قد حث الإنسان على عموم التفكير، و لم يخص جانبا معينا فيكون من ضمنها التفكير و التدبر فى الآيات المتشابهة.

ثالثا: امتحان الإنسان:

وجود المتشابه فى القرآن هو نوع من الابتلاء أو جده اللّه فى القرآن ليكتشف به ثقة المؤمن بكتاب ربه أ يؤمن بهذا الكتاب مع وجود هذه الآيات أم لا؟ أ يؤمن بالغيب و ما وراء ذلك عن طريق الوحى على لسان النبى (ص)؟

و ربما يتأكد هذا الابتلاء عند الباحثين و المصنفين حينما يختلفون فى اتجاهاتهم و آراءهم بالنسبة للآيات المتشابهة، فقد يرى البعض رأيا و يتوقف البعض الآخر دون إعطاء الحكم، و ربما يكون هناك قسم ممن يبدى رأيه يكون فى قلبه مرض و زيغ فيعمل بما تشابه منه، و ذلك يعنى السقوط فى الامتحان.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۵

فيقول سبحانه و تعالى: فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ. «۱»

يقول الشيخ محمد عبده: «إن اللّه انزل المتشابه ليمتحن قلوبنا فى التصديق به فانه لو كان كل ما ورد فى الكتاب معقولا واضحا لا شبهة فيه عند أحد من الأولياء و البلداء لما كان فى الإيمان شيء من معنى الخضوع لأمر اللّه و التسليم لرسله». «۲»

---

(۱) سورة آل عمران آية ۷

(۲) تفسير المنار (ج ۳) ص ۱۷۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۶

ناسخ و منسوخ:

اشارة

النهضة الفكرية التى عاشتها الأمة الإسلامية فى بداية الدعوة و فى المراحل الأولى لم تكن تواجه إشكالات أو تساؤلات إلا و كان الجواب حاضرا عند النبى (ص) و إن لم يكن، انتظر الوحى يأتى بالجواب فلم يقع المسلمون فى حضرة النبى (ص) الموحى إليه أو الإمام الملهم فى أمر مشكل، مع ذلك كان هناك من يبث السموم و الأفكار المنحرفة و الدعايات المضللة فى وسط الأمة بغرض إبعادها عن الحركة المحمدية الآخذة فى التقدم و النمو نحو الكمال.

فقد حاول بعض أعداء الإسلام و القرآن من ملاحدة و زنادقة فى زمن النبى (ص) و الأئمة (ع) أو مبشرين و مستشرقين فى العصور

اللاحقة أن يعيبوا على الإسلام من خلال تصويرهم للمسلمين أن هناك ثغرات قد خلّفها القرآن ضمن آياته، و كان سلاحهم أن اتخذوا النسخ فى الشريعة الإسلامية سلاحا مسموما لينالوا به من قدسية القرآن الكريم فتصدى لذلك النبى (ص) و أئمة أهل البيت (ع)، و ما كان منهم إلا أن وقفوا موقف المناهض لهذه الأفكار الضالة.

و هذه ظاهرة طبيعية تتلقاها أية حركة إصلاحية تريد أن تجتث الفساد من الجذور فى مجتمع غلبت عليه الرذيلة و الانحراف، و البعد عن كل ما هو أخلاقى أو له قيمه إنسانية. فاستدعى ذلك أن تأتى هذه الشريعة بأساليب و وسائل تتناسب و واقع هذا المجتمع لانتشاله من براثن الجهل و التخلف، فكان يتطلب من النبى (ص) أن يبذل جهدا كبيرا حتى يرشده و يرجعه عن ضلاله فخاطبه اللّه قائلا له طه، ما أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقى «۱» و فى آية أخرى

---

(۱) سورة طه آية (۱- ۲)

لَعَلَّكَ باخِعٌ (أى قاتل) نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. «۱»

فمع الجهد الذى بذله النبى (ص) كان للوحى دور فى رعايته، و فى إعطائه التشريع المناسب لكل مرحلة، و لكل وقت يتعرض المسلمون فيها إلى قضية تحتاج إلى حل، فلم يتركوا بدون أن يخبرهم النبى (ص) بذلك.

و لم يكن الوحى يفاجئ المسلمين بالتشريع بل كان يتدرج مع الأحداث و الوقائع، و قد تناولت الآيات النازلة بهذه الكيفية المشاكل الاجتماعية و العادات السلبية التى وقف الوحى منها موقف المتمهل و المتريث، بأمر السماء حتى يتسنى له أن يمهد الطريق، و يجعله سالكا وفق التنظيم الزمنى حتى لا تكون هناك فوضى فى تلقى الأحكام.

و عند تقصى المراحل التى مرت فيها هذه الدعوة نرى أن ظاهرة النسخ تعد ضرورة من الضرورات التى اعتمدها الوحى فى تربية الخلق، و كانت ضمن مراحل التدرج النزولى للقرآن، و قد عد الفقهاء الآيات المنسوخة فوجدوا أنها لا تتجاوز عشرين آية.

«و كانت ظاهرة النسخ أمرا لا بد منه فى كل تشريع يحاول تركيز معالمه فى الأعماق، و الأخذ بيد أمة جاهلة إلى مستوى عال من الحضارة الراقية. الأمر الذى لا يتناسب مع الطفرة المستحيلة، لو لا الأناة و السير التدريجى المستمر خطوة بعد خطوة». «۲»

فمعرفة الناسخ و المنسوخ و الإمام به يلقى الضوء على سير التشريع الإسلامى، و يبين للإنسان تلك الخطوات التى اتبعها الخالق و رسمها بدقة بالغة

---

(۱) سورة الشعراء آية ۳

(۲) التمهيد (ج ۲) ص ۲۷۳

فاطلع الإنسان على تربيته له، و سياسته فى الخلق، و لم تكن هذه المعرفة بالنسبة للنبى (ص) واضحة إلا ما بيّنه له الوحى، مما يدلل على مصدر القرآن الحقيقى و هو اللّه رب العالمين يَمْحُوا اللَّهُ ما يَشاءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتابِ «۱» فليس لأحد غير اللّه شأن فى ذلك و حتى النبى (ص) نفسه. كما يقول سبحانه و تعالى: لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ. «۲»

و قد تكون هذه المعرفة لها مدخلية كبيرة فى فهم كثير من آيات القرآن التى ترتبط بعقيدة الإسلام و يبنى عليها كثير من المفاهيم، فربما تعتبر هذه المعرفة ركنا من أركان فهم الإسلام،

فقد روى أن الإمام على بن أبى طالب (ع) «انه دخل يوما جامع الكوفة فرأى رجلا و قد تحلق عليه الناس يسألونه و هو يخلط الأمر بالنهى و الإباحة بالحظر فقال له على (ع) أ تعرف الناسخ من المنسوخ قال:

لا. قال عليه السلام: هلكت و أهلكت». «۳»

و لأهمية ذلك فى فهم العقيدة اعتبره المفسرون علما من العلوم التى يلزم فهمها لمعرفة القرآن، فلا يجوز لأحد أن يفسر كتاب اللّه إلا بعد أن يعرف الناسخ و المنسوخ،

فقد ورد عن الرسول (ص) قال: «من أفتى الناس بغير علم و هو لا يعلم الناسخ و المنسوخ و المحكم و المتشابه فقد هلك و اهلك». «۴»

و عن أبى عبد اللّه (ع) قال: «لا تكون مؤمنا حتى تعرف الناسخ من المنسوخ». «۵»

و روى أبو عبد الرحمن السلمى أن عليا (ع) مرّ على قاض فقال له:

---

(۱) سورة الرعد آية ۳۹

(۲) سورة آل عمران آية ۱۲۸

(۳) الطباطبائى و منهجه فى تفسير الميزان ص ۲۲۰

(۴) الكافى (ج ۱) ص ۴۳

(۵) الطباطبائى و منهجه فى تفسير الميزان ص ۲۲۰ القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۶۹

أ تعرف الناسخ عن المنسوخ؟ فقال لا فقال: «هلكت و أهلكت، تأويل كل حرف من القرآن على وجوه». «۱»

و من العقيدة ما يرتبط بها الجانب الفقهى فيكون للقرآن دور كبير فى استنباط الحكم بل هو المصدر الأول له، و لذا

قال الإمام الصادق (ع) لبعض متفقهة أهل الكوفة: «أنت فقيه أهل العراق؟ قال نعم قال فبم تفتيهم؟ قال بكتاب اللّه و سنة نبيه فقال له الإمام: أ تعرف كتاب اللّه حق معرفته و تعرف الناسخ من المنسوخ قال نعم قال: لقد ادّعيت علما ما جعل اللّه ذلك إلا عند أهله». «۲»

و ليس الجانب الفقهى وحده فقط مستنبطا من الكتاب فنحتاج إلى معرفة الناسخ و المنسوخ فى ذلك، بل أن سلوك الإنسان فى الحياة و التزاماته قائمة على فهم العقيدة المبيّنة فى كتاب اللّه.

فعن أبى عبد اللّه (ع) فى حديث احتجاجه على الصوفية لما احتجوا عليه بآيات من القرآن فى الإيثار و الزهد، قال: «أ لكم علم بناسخ القرآن و منسوخه إلى أن قال و كونوا فى طلب ناسخ القرآن من منسوخه و محكمه و متشابهه، و ما أحلّ اللّه فيه مما حرم، فانه اقرب لكم من الله و ابعد لكم من الجهل دعوا الجهالة لأهلها فان أهل الجهل كثير و أهل العلم قليل و قد قال اللّه وَ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ. «۳»

ما هو المنسوخ؟

علينا أن نتعرف على النسخ لغة و اصطلاحا و معنى، و ما ذا يعنى فى مدلول الفكر الإسلامى و ما الهدف منه؟

---

(۱) تفسير العياشى (ج ۱) ص ۱۲

(۲) تفسير الصافى (ج ۱) ص ۱۳

(۳) وسائل الشيعة (ج ۱۸) ص ۱۳۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۰

النسخ لغة:

التعاريف اللغوية جاءت جميعا لتشير إلى حقيقة واحدة و ذلك من خلال ملاحظة المعاجم اللغوية التى تتحدث عن هذه الكلمة، فقد يعرف «بإبطال شىء و إقامة آخر مقامه، يقال نسخت الشمس الظل أى أذهبته و حلت محله». «۱» و النسخ يأتى بمعنى الإزالة، و منه قوله تعالى: فَيَنْسَخُ اللَّهُ ما يُلْقِي الشَّيْطانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آياتِهِ. «۲»

و يأتى بمعنى التبديل وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ «۳» و بمعنى التحويل كناسخ المواريث، و يأتى أخيرا بمعنى النقل من موضع إلى موضع، و منه نسخت الكتاب إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه و خطه». «۴»

النسخ اصطلاحا:

ليست الشريعة بعيدة عن اللغة بل هناك تقارب فى المؤدى و النتيجة فتعريف الشريعة للنسخ و إن اختلفت مع اللغة فى هذا التعريف شيئا ما: لا أنهما متقاربان.

فقال شيخ الطائفة: «أن استعمال هذه اللفظة فى الشريعة على خلاف موضوع اللغة و إن كان بينهما تشبيها. و وجه التشبيه أن النص إذا دل على أن مثل الحكم الثابت بالنص المتقدم زائل على وجه لولاه لكان ثابتا بمنزلته المزيل

---

(۱) مجمع البيان (ج ۱- ۲) ص ۳۴۵

(۲) سورة الحج آية ۵۲

(۳) سورة النحل آية ۱۰۱

(۴) مباحث فى علوم القرآن ص ۲۵۹

لذلك الحكم، لأنه لولاه لكان ثابتا» «۱» و الإزالة ليست حقيقية و إنما من باب التشبيه كما قال.

و عن السيد الخوئى قدس سره قال: «هو رفع أمر ثابت فى الشريعة المقدسة بارتفاع أمده و زمانه سواء أ كان ذلك الأمر من الأحكام التكليفية أم الوضعية و سواء أ كان من المناصب الإلهية أم من غيرها من الأمور التى ترجع إلى اللّه تعالى بما انه شارع». «۲»

و عن الفخر الرازى: «أن الناسخ هو اللفظ الدال على ظهوره انتفاء شرط دوام الحكم الأول.

و عن الغزالى: هو الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتا مع تراضيه». «۳»

النسخ فى المفهوم الإسلامى:

يتصور البعض أن النسخ نقص فى التشريع الإسلامى، فحينما يتبدل الحكم الأول إلى رأى آخر و يلغى فيصبح الحكم الثانى سارى المفعول لخطأ أو نقص فى التشريع، فلا يمتاز الأول بالشمولية و الكمال فتبدل إلى ما هو احسن، و قد يكون الثانى يحتاج إلى إعادة نظر و هكذا يتبدل إلى ثانى و ثالث ما دام احتمال الخطأ و النقص وارد.

و هذا التصور قد ينطبق على أولئك الذين يضعون القوانين أو يستنبطون الأحكام دون أن يحيطوا علما بالمصلحة و المفسدة فلا يمتلكون الإحاطة الشاملة

---

(۱) عدة الأصول (ج ۲) ص ۲۵

(۲) مجمع البيان ص ۲۷۷

(۳) الفصول فى الأصول ص ۲۳۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۲

بالواقع و بما وراءه من الأمور و الخفايا، أما بالنسبة لعلام الغيوب ربّنا سبحانه و تعالى المحيط بكل شيء لا يَخْفى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَ لا فِي السَّماءِ «۱» فلا ترد عليه هذه الأمور فهو العالم بالخفايا قبل الخلق و بعد الخلق مكانا و زمانا و طولا و عرضا فيمتنع عليه الخطأ، و يستحيل عليه النقص، أو يفوته أمر ما يكون غافلا- عنه، فحاشا للّه ذلك. إذا ما ذا يعنى تبديل الحكم هل هو نسخ فعلا أم تبديل لحكم مؤقت و تشريع محدود من أول الأمر حيث انه سبحانه لم يشرعه إلا و هو يعلم أن له مدة محددة و إن المصلحة اقتضت التشريع المؤقت.

يقول العلامة الطباطبائى: «النسخ فى القرآن معناه: انتهاء زمن اعتبار الحكم المنسوخ و نعنى بهذا أن للحكم الأول كانت مصلحة زمنية محددة و اثر مؤقت بوقت خاص تعلن الآية الناسخة انتهاء ذلك الزمن المحدود و زوال الأثر». «۲»

و لعل هذه الطريقة فى تغيير الحكم بما يناسب المجتمع وفق الحالات التى يمر فيها، و كأنما الحكم الأول و الثانى كلاهما ضمن سياق واحد أو دائرة واحدة، أو قل كلاهما حكم واحد صدرا من الخالق فى علمه فكانا فى اللوح المحفوظ فى علمه فى آن واحد و لكن حسب الترتيب، فحينما تنتهى فترة الأول يبدأ الثانى، ثم أن اللّه قادر على تبديل حكمه وفق المتغيرات و الظروف التى يمر فيها المجتمع، و ذلك بهدف التدرج فى الرسالة ثم تعويد المسلمين على تلقى الحكم.

و النسخ فى الحقيقة كما يقول آية اللّه المدرسى: «هو تطوير أسلوب الحكم بما يتناسب مع تطور الحياة بالرغم من وجود ذات الحكم مثل حكم الصلاة

---

(۱) سورة آل عمران آية ۵

(۲) القرآن فى الإسلام ص ۶۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۳

كانت إلى المسجد الأقصى فى الشرائع السابقة فتحولت إلى الكعبة فالصلاة هى الصلاة و لكن تغيرت قبلتها». «۱»

فالمصلحة اقتضت أن يوجد الحكم الأول إلى وقت محدد ثم انتهى ذلك الوقت بناء على المصلحة و جاءهم الحكم الثانى كما فى آية التوجه فى قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَ الْمَغْرِبُ فَأَيْنَما تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ واسِعٌ عَلِيمٌ «۲» فيذكر فى تفسير ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية عن ابن عباس «۳»: أنها منسوخة بقوله تعالى فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ. «۴»

و عن تفسير النعمانى الذى نقله المجلسى و لخصه السيد علم الهدى فى رسالة المحكم و المتشابه

عن على (ع): أنه كان رسول اللّه فى أول مبعثه يصلى إلى بيت المقدس جميع أيام بقائه بمكة و بعد هجرته إلى المدينة بأشهر فعيّرته اليهود و قالوا: أنت تابع لقبلتنا فأحزن رسول اللّه (ص) ذلك منهم فانزل اللّه تعالى عليه، و هو يقلب وجهه فى السماء و ينتظر الأمر قَدْ نَرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ «۵». «۶»

حكمة النسخ:

ليس فى القرآن غموض أو تشويش فى اللفظ و المعنى بل ذلك فى أنفسنا لعجز فى فهمنا القاصر المحيط و المدرك بكل شيء فى هذا الكون، فالنفس

---

(۱) من هدى القرآن (ج ۱) ص ۲۲۹

(۲) سورة البقرة آية ۱۱۵

(۳) تفسير ابن كثير (ج ۱) ص ۱۵۷

(۴) سورة البقرة آية ۱۴۴

(۵) سورة البقرة آية ۱۴۴

(۶) بحوث فى تاريخ القرآن و علومه ص ۲۲۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۴

ترتاح حينما يرتفع ذلك الغموض، و تتضح للإنسان معالم الأمور الخافية عليه، و يزول اللبس و الشك حول تلك الشبهات و الوساوس عند ما يتعرف على الحكمة من أمر خفى عليه. و لعل معرفة الحكمة من نسخ اللّه لآياته يزيد الإنسان ثقة على ثقته باللّه، و تطمئن تلك النفس، كما أراد النبى إبراهيم (ع) أن يطمئن ليزداد ثقة فوق ثقته باللّه، و يرى ذلك عيانا، و يكون علمه مرئيا فسأل ربه حينما قال سبحانه: وَ إِذْ قالَ إِبْراهِيمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتى قالَ أَ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قالَ بَلى وَ لكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِى. «۱»

فمعرفتنا للحكمة من النسخ لأجل الاطمئنان و زيادة الإيمان و البصيرة و المعرفة فى كتاب اللّه.

نسخ الشريعة و فى الشريعة:

النسخ وقع الشريعة الإسلامية و فيها، فبالشريعة الإسلامية نسخت كل الأديان و الشرائع السابقة، و لو لم يكن ذلك قد حصل لما بقيت رسالة سيدنا محمد (ص). فالنسخ جائز و واقع الرسالات يشهد على ذلك، فهى لم تبق كما بقى الإسلام خاتما لها و ناسخا إياها، و حكمة ذلك ترجع إلى وصول البشرية إلى مرحلة النضج التى انتهت إليها، و الدورة الحضارية التى وصلت إليها، فجاء التشريع الإسلامى على أكمل وجه ليفى بحاجات الإنسانية و أغراضها.

و كان ذلك التناسب لهذه المرحلة أمر طبيعى بغرض الهى لتلك الفطرة الإنسانية التى تتقلب فى أدوار الحياة، فكان و لا بد أن يكون لكل دور برنامج و منهج يناسبه. فالبشرية مرّت فى مراحل عديدة كالطفل الذى يتقلب فى الحياة

---

(۱) سورة البقرة آية ۲۶۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۵

إلى أن يصبح رجلا، فيمر فى دورة الطفولة فبلوغ مرحلة الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة. فالضعف و الجهالة و البساطة و السذاجة كانت مميزات لمجتمعات ما قبل الإسلام، نتيجة قصور فى العقل، و عمى فى البصيرة، و عدم وعى للقلب على تفاوت بين أفراد تلك المجتمعات. كل ذلك جعل من اللّه سبحانه أن يتدرج الأب مع الطفل فى مراحله إلى أن يكبر، فكانت تلك الرسالات تمر على البشرية فى مراحلها حتى إذا بلغت مرحلة النضج و الاستواء جاءت شريعة الإسلام الحنيف متممة لتلك الشرائع و خاتمة لها. فكان على البشرية أن تدين بهذا الدين الذى جمع كل القيم الإنسانية، و احتوى على القواعد و القوانين الشمولية، و حافظ على المطالب المادية، حينما وفّق بين الروح و الجسد، و نظّم علاقة الإنسان باللّه و بالعالم و بما فيه من أفراد و أسر و جماعات و أمم، و كل ما يدور حوله من حيوان و جماد، و كان العلم سيدا فى هذا الدين فبقى خالدا إلى يوم يبعثون.

أحكام مؤقتة:

و قد يقع النسخ فى الشريعة أى فى بعض أحكامها الواردة فى كتاب اللّه العزيز، كما يقول ربنا سبحانه و تعالى: ما نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِها نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْها أَوْ مِثْلِها أَ لَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ «۱» و قوله تعالى: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ «۲» و آيات القرآن كلها محكمة و ثابتة و الأصل فيها ذلك، و النسخ لم يرد إلا على بعض الآيات القليلة التى لم تتجاوز الثلاثين آية من

مجموع آيات القرآن و حتى هذه الآيات

---

(۱) سورة البقرة آية ۱۰۶

(۲) سورة النحل آية ۱۰۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۶

لم يثبت بعضها لدى فقهاء الإمامية و هى موضع نقاش و محل بحث عندهم كالسيد الخوئى رحمه اللّه فى كتابه البيان.

فالآية المنسوخة لا بد أن تكون قائمة على دليل صريح واضح حتى يتم معرفتها و التعامل معها على أساس أنها منسوخة.

و أما الحكمة التى اقتضت هذا النسخ لهذه الآيات القليلة هى سياسة القرآن لتعهد تربية هذه الأمة، و السير معها خطوة خطوة ببيان مواقع ضعفها من قوتها، و قدرتها على تحمل أى نوع من الأحكام بما تملك من طاقات و مواهب. فالأمة الإسلامية حينها كانت تمر فى مرحلة انتقال صعب، فما كان من الوحى إلا أن يمحّصها، و يرى مدى تجاوب هذه الأمة فى ترك ماضيها السلبى و عقائدها الخرافية و العادات الجاهلية.

تلك الحكمة كانت وليدة الرسالة، و نابعة من صميم الأحداث التى عاشتها الدعوة متدرجة نحو السير بالمجتمع قدما إلى الأمام، صاعدة به إلى مدراج الرقى و التقدم فى سبيل إيجاد ثقافة اجتماعية بعيدة عن التعقيد، تقوم بحل المشاكل العالقة فى المجتمع بدون أن تواجه هذه الثقافة ردّات الفعل الارتجالية. و من ابرز معالم هذه الثقافة القرآنية فى توجيه خطابها إلى الإنسان.

إنها تنظر إلى الجانب العقلى و الغريزى فى استجابته إلى أوامر القرآن و إلى الحكم الأنسب له، وفق المصلحة التى تستدعى بقاء ذلك الحكم أو نسخه بحكم آخر.

فإذا كانت الاستجابة نابعة من العقل، فان التسرع أيضا نابع من الجهل و الحمق، فكما أن الثقافة القرآنية تريد أن تؤكد بعملية النسخ جانب الاستجابة فإنها ترفض جانب التسرع عند الإنسان فى الحكم.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۷

و القرآن لا- يحوى على الناسخ و المنسوخ فقط، و إنما هناك عام و خاص، و إطلاق و تقييد، و محكم و متشابه، فلا يحق لأحد أن يتسرع بإصدار الأحكام دون معرفة الآيات و نوعيتها، كما

قال أمير المؤمنين (ع) إلى قاض مر عليه «هل تعرف الناسخ من المنسوخ فقال القاضى لا- فقال أمير المؤمنين (ع) إذن هلكت و أهلكت». «۱»

فمن هنا جاءت فكرة النسخ لتخلق فى الإنسان حالة الاستجابة الثابتة القائمة على الحق. فالاستجابة وحدها لا تكفى بل لا بد من الثبات، و قد أكد ذلك ربّنا بقوله سبحانه و تعالى: وَ إِذا بَدَّلْنا آيَةً مَكانَ آيَةٍ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِما يُنَزِّلُ قالُوا إِنَّما أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ، قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هُدىً وَ بُشْرى لِلْمُسْلِمِينَ. «۲»

و ما أثاره المشركون فى قولهم أن النبى (ص) كاذب فى تبديله للحكم «قال ابن عباس كانوا يقولون يسخر محمد بأصحابه يأمرهم اليوم بأمر و غدا يأمرهم بأمر و انه لكاذب يأتيهم بما يقول من عند نفسه» «۳» أرادوا بهذه الإثارة خلق حالة من التردد فى نفوس المسلمين، و إيجاد الشبهات لإبعادهم عن الإيمان الراسخ فى قلوبهم، و زلزلة ذلك الثبات عندهم بإضعاف إيمانهم. يقول:

صاحب الميزان «و بتجدد الحكم حسب تجدد المصلحة يؤتون ثباتا على ثبات من غير أن يضعف ثباتهم الأول». «۴»

فحكمة الرب عز و جل فى مقابل شبهات الشيطان التى ترد على ألسنة المشركين لإضعاف المؤمنين كانت مرصادا لتجعل الذين آمنوا يعتصمون بروح

---

(۱) البحار (ج ۹۲) ص ۹۵

(۲) سورة النحل آیة (۱۰۱- ۱۰۲)

(۳) مجمع البیان (ج ۵) ص ۵۹۵

(۴) المیزان (ج ۱۲) ص ۳۴۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۸

القدس مع التمسک بتعالیم القرآن و قیادة النبی (ص) لهم لکی یثبتوا علی ما هم علیه، و یبتعدوا عن غوایة الشیطان.

فائدة بقاء المنسوخ فی القرآن:

و هنا قد تثار شبهه من الشبهات حول الآیات المنسوخة فما الفائدة من بقائها فی القرآن ما دام ارتفع حکمها و لا یعمل بها، و لما ذا تثبت فی القرآن ما دامت هی منسوخة؟ فإنها تبقی مجرد ألفاظ تقرأ عبر القرون بدون فائدة و یعنی ذلک أن النسخ للحکم دون التلاوة فتبقی تلاوة الآیة فی القرآن و یرتفع حکمها، و علی ذلک قسموا النسخ إلی ثلاثة أقسام:

أولا- نسخ التلاوة دون الحکم و قد ذهب السید الخوئی إلی بطلانه و اعتبر ذلک نوع من التحریف فی القرآن حیث أن الآیة قد سقطت من القرآن بنسخها و بقی حکمه موجودا. کما یدعی اکثر علماء أهل السنة أن بعض القرآن قد نسخت تلاوته. و إلیک ما یروی البخاری روی ابن عباس أن عمر قال فیما قال و هو علی المنبر: «أن اللّه بعث محمدا- ص- بالحق و انزل علیه الکتاب فکان مما انزل اللّه آیة الرجم فقرأناها، و عقلناها، و وعیناها. فلذا رجم رسول اللّه (ص) و رجمنا بعده فأخشی إن طال بالناس زمان أن یقول قائل و اللّه ما نجد آیة الرجم فی کتاب اللّه فیضلوا بترک فریضة أنزلها و الرجم فی کتاب اللّه حق علی من زنی إذا أحصن من الرجال. «۱»

و آیة الرجم کما یقول الزرقانی «انه صح عن عمر بن الخطاب و أبی بن کعب انهما قالا کان فیما انزل من القرآن (الشیخ و الشیخة إذا زنیا فارجموهما البتة) أی کان هذا النص آیة تتلی ثم نسخت تلاوتها و بقی حکمها معمولا

---

(۱) صحیح البخاری (ج ۸) ص ۲۶ صحیح مسلم (ج ۵) ص ۱۱۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۷۹

إلی الیوم». «۱»

بربک أ لیس هذا تحریف القرآن و ادعاء النقص فیه؟! و من أین جاءت هذه الآیة و کیف غابت عن ذهن رسول اللّه؟ و لم یسمعها أحد إلا عمر! ثانیا: نسخ التلاوة و الحکم معا و هذا کالأول فی وضوحه و دلالته علی التحریف فی القرآن الذی لا یقره أی مسلم. و قد مثّلوا لذلک ما عن عائشة حیث روی عمر عنها أنها قالت «کان فیما انزل من القرآن: عشر رضعات معلومات یحرمن ثم نسخن ب: خمس معلومات فتوفی رسول اللّه (ص) و هن فیما یقرأ من القرآن». «۲»

ثالثا: نسخ الحکم دون التلاوة و هذا المشهور بین العلماء و المفسرین حیث یقر هذا النسخ بقاء الآیة فی القرآن و ارتفاع حکمها فقط، و هذا ما یؤکد علی حفظ القرآن و صیانته من التحریف و النقص فیبقی القرآن کما هو تام بناسخه و منسوخة لا یعتریه أی خلل أو تشویه إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّکْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ. «۳»

و هذا القسم هو الذی تثار حول شبهة الفائدة من بقائه فی القرآن، ما دام حکمها قد نسخ فینتهی دورها بإلغاء حکمها فما هی الفائدة المتوخاة من وجودها فی القرآن؟

ما ذا نستفید من ذلک؟

أولاـ نتعرف من خلال هذه الآيات المنسوخة التى جاءت تحمل فى داخلها المرحلية فى التدرج الحكمى الرحمة و اللطف الإلهى بعباده.

---

(۱) مناهل العرفان (ج ۲) ص ۹۲

(۲) صحيح مسلم (ج ۴) ص ۱۶۷

(۳) سورة الحجر آية ۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۰

و قد تجلت هذه الرحمة فى رعاية اللّه للمسلمين و حسب استعدادهم النفسى و البدنى فى تقبلهم للأحكام، و حسب مراحل الضعف و القوة التى مرّت على الأمة جمعاء.

ثانيا: إن الآيات المنسوخة وجودها فى القرآن يسجّل لنا تلك الظاهرة الحكيمة لسياسة الإسلام مع الناس، و طريقة تعامله معهم، كما إنها تسجل هذه الظاهرة جزء من التاريخ و مرحلة من مراحل الدعوة، فبقاؤها يثبت تلك المرحلة التى مرّت فيها الأمة الإسلامية، فنتعرف على التاريخ من خلالها باعتبارها تشكل حلقة ضمن التسلسل الزمنى لنزول الآيات القرآنية و الأحداث المصاحبة لها.

ثالثا: الآية القرآنية و قد تحمل عدة جهات ففيها الحكم و فيها البلاغة و فيها الإعجاز و فيها العلم. فإذا نسخت من جهة الحكم تبقى من حيث البلاغة و الإعجاز و العلم، و ذلك إنها ذات جهات أخرى تعطى لها صلاحية البقاء فى القرآن، و تؤكد البلاغة القرآنية انه بحذفها ربما يوجد تشويه للنص القرآنى.

رابعا: الإيمان بها جزء من الإيمان بالقرآن، و الإيمان بالقرآن من الضرورات، فبالتالى تكون ضمن الآيات التى يتلوها الإنسان فى كتاب اللّه عز و جل فيترتب على تلاوتها الثواب.

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۱

الفهم المطلوب:

اشارة

القرآن نهج و حضارة ۲۸۱ الفهم المطلوب: ..... ص : ۲۸۱

اك حقائق لا بد من التسليم بها كمقدمة لكى نتوصل إلى فهم هذا الكتاب بالشكل المطلوب، و كما يريد القرآن نفسه لا كما نريد نحن، فعلينا أن نسلم بهذه الحقائق و هى اقرب إلى البديهة من أى شىء آخر.

أولاـ إن هذا القرآن جاء للناس باختلاف مستوياتهم و عقولهم و درجات فهمهم و المواهب التى يمتلكونها، فلم يكن الكتاب لطبقة خاصة من المجتمع، و لا لفئة معينة تحمل مواصفات متميزة عن باقى أبناء المجتمع و إنما هذا بَيانٌ لِلنَّاسِ. «۱»

ثانيا: أن لغة التخاطب فى القرآن كانت لغة موجهة إلى البشر لا إلى غيرهم مع هذا الاختلاف فهم المخاطبون بالقرآن جميعا.

و الخطاب القرآنى لم يتحدد بزمن معين و لا مكان خاص و لا جماعة معينة، فليس الخطاب موجّها إلى النبى (ص) و من كان معه و فى مكة بالتحديد، و تحديد القرآن بفترة زمنية و جماعة معينة و مكان خاص فذلك يعنى تحديد صلاحية هذا الكتاب فينتهى دوره بانتهاء تلك الفترة الزمنية و موت من نزل فيهم. فالخطاب إذا موجّه إلى كل الناس على مر العصور و الأزمان و فى كل مكان بدون تحديد لذلك، لأنه اعتمد فى التوجيه على أمور مشتركة غير اللغة التى ربما نختلف فيها. فقد لا تكون لغة القرآن لغة لمسلم يتحدث باللغة الفارسية أو الإنجليزية، فهذه اللغة التخاطبية اعتمدت الاستدلال المنطقى كأسلوب و وسيلة للتوصل بها إلى الحق. فكانت

عبارات القرآن معناها مشترک عند کل الناس، حیث أراد لهم أن تکون هی اللغة المنطقیة القائمة علی البرهان

---

(۱) سورة آل عمران آیة ۱۳۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۲

و الحجة و الدلیل لا- علی الکلمات، فهو حینما یوجه الخطاب بکلمات عربیة لکنه معنی مشترک فیقول للناس قُلْ هاتُوا بُرْهانَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ صادِقِینَ «۱» أو قوله تعالی: یا أَیُّهَا النَّاسُ قَدْ جاءَکُمْ بُرْهانٌ مِنْ رَبِّکُمْ. «۲»

فالقرآن لیس مجرد کلمات أو عبارات و إنما هو برهان فیه هدی لحیاتنا، فهو یحمل فی جنباته کل قیم الخیر و العطاء، فهو بالتالی توضیح لتفاصیل الجوانب العامة لهذه الحیاة.

و هذا البرهان الذی یستدل به الإنسان علی الحیاة، و یتوصل به إلی معرفة الهدی، و یربطه بربه یکون استدلالا مشترکا بین کل البشر.

و ربما قد یکون هذا البرهان هو البصائر و الرؤی و البرامج و التعالیم التی یهتدی إلیها الإنسان حینما یحرکه القرآن، بأن یأتی ببرهان آخر فی مقابل برهان اللّه، و ذلک بإیقاظ عقله من سباته و إعطائه شحنات دفعیة لتثیر فیه التفکیر المسئول لرفض الأفکار الدخیلة و اللامسئولة التی توحی بتعطیل دور الإنسان فی الحیاة.

و استخدم القرآن أیضا طریقة أخری فی التخاطب مع بنی البشر، فقد کان للغة الإحساس الموجه إلی الفطرة دور فعال فی تحریک الضمیر الإنسانی، و هزة من الداخل للتغلب علی المشاکل النفسیة قبل السطحیة، فالعلاج فی الخطاب القرآنی جذری یدخل إلی العمق، لیتغیر الظاهر تلقائیا، فهو موجّه إلی القلب لأنه الذی یمثل جانب الإحساس عند الإنسان.

فالمشاعر و الأحاسیس قد تثار عند الإنسان بوسائل شتی فتؤثر علی

---

(۱) سورة البقرة آیة ۱۱۱

(۲) سورة النساء آیة ۱۷۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۳

روحه، و تجعله یعیش عالما خاصا و سلوکا معینا، فما کان من القرآن إلا أن یوجه خطابه إلی القلب کما هو موجه إلی العقل، فیثیر فیه الحس الدینی و یحرک الفطرة للبحث فی هذا الوجود عن الصانع و المدبر الذی احسن صنعا لهذا الکون و لهذا الخلق.

و نلاحظ أن الطریقتین: استخدام الاستدلال المنطقی و الإحساس النابع من القلب قد اعتمد فیهما القرآن علی العقل، فالخطاب القرآنی موجه إلی عقل الإنسان فما علیه إلا أن یستخدم هذا العقل حتی ینفتح علی القرآن.

ثالثا: حقیقة العلم و هی نابعة من أن العلم لیس للتعلم فقط بل لا بد أن یتحول هذا العلم إلی میدان عمل تتحرک فیه طاقات الإنسان و قدراته بما یملک من مواهب، فلم تکن آیات القرآن فی تأکیدها علی العلم إلّا لهذا الغرض حتی یتحول العلم إلی مدارس فکریة یستطیع أن یتأقلم، و یتکیف معها، و ینتج من خلالها ما یطور بها الحیاة، فیتطور هو بتطویر وسائل الإنتاج و أسالیب الدفاع و سبل المواصلات و قوانین الحیاة. فإذا تحول العلم إلی حالة جمود و أغلقت أبواب التفکیر و التطلع عند الإنسان فان ذلک یعنی حالة التراجع و الانتکاس الحضاری، فحینها علیه أن یتجاوز هذه الحالة عبر المرور بمراحل التفکیر التی یدعوه العلم إلیها، لکی یأخذ بالمناهج التی رسمها له القرآن فیسعی فی سبیل تجدید الحیاة بابتکار الوسائل و الأسالیب، و تطویر وسائل الإنتاج، و تقنین ذلک وفق رؤی الشریعة و فی إطار الدین.

و هناک حقیقة أخری و هی کما

فی الحدیث الشریف: «لیس العلم بالتعلم إنما هو نور یقع فی قلب من یرید اللّه تبارک و تعالی أن یهدیه» «۱»

فإذا كان العلم

---

(۱) بحار الأنوار (ج ۱) ص ۴۱۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۴

نورا، فما ذا يستفيد منه الإنسان و كيف يستفيد؟

أ ليس النور يستضيء به الإنسان فى الظلام الدامس أ لا ينقشع الظلام حينما يحل النور محله، و يرى الإنسان بذلك النور كل شيء أمامه واضحا! هكذا هو العلم فدوره كدور النور و فى مقابله الجهل. فبالعلم و بالحصول عليه يرتفع الجهل عن الإنسان، و قد عبّر القرآن فى كثير من آياته عن الجهل بالظلام و العلم بالنور. فيقول سبحانه و تعالى: الر كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. «۱»

فالقرآن حينما يريد من الإنسان أن يتعلم يجعل ذلك العلم كالنور ليضيء له الطريق فيهتدى به، و يستطيع أن يتخطى الظلام، و يصل إلى ما يريد.

تعالوا نفهم القرآن:

اشارة

من خلال تلك الحقائق نرى أن فهم القرآن يمر عبرها، فالقرآن للناس و خطاب لهم، و العلم قاعدة أساسية لفهمه و إدراك معانيه، فكيف يا ترى نفهم هذا الكتاب؟

هناك نوعان من الفهم لهذا الكتاب العزيز، الفهم العمقى و الفهم الحيوى.

أولا: الفهم العمقى:

للقرآن طريقته الخاصة فى فهم الناس له، فأراد أن نفهمه بهذه الطريقة التى صرّح بها فى كتابه ضمن آياته الكريمة، فكانت تعتمد على إدراك الإنسان لتلك الحقائق التى ذكرناها فبالتالى يستطيع أن يستوعب الآيات وفقها فيقوم

---

(۱) سورة إبراهيم آية ۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۵

بعملية التفكير العميق لمعرفة محتواها و المغزى منها.

القرآن أراد لنا أن نفهم عمق الآيات و صلبها لا سطحها أو ظاهرها.

فعن النبى (ص) قال «اعربوا القرآن و التمسوا غرائبه» «۱»

فان فى القرآن عمقا لا نصل إليه من خلال قراءة عادية بل نحن بحاجة إلى أن نسبر غوره حتى نكتشف تلك الأسرار الملكوتية التى أودعها اللّه فى كتابه. لذا

قال النبى (ص) فى وصف القرآن «و له ظهر و بطن فظاهره حكم و باطنه علم ظاهره أنيق و باطنه عميق له نجوم و على نجومه نجوم لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة». «۲»

و قد يدلل القرآن على هذا الفهم من خلال طرحه لمجموعة تساؤلات ليبيّن لنا مدى أهمية هذا الفهم فى الحياة، و على الإنسان أن لا

یعیش السطحیة و الهامشیة، و إنما یحاول أن یکون فی عمق الأمور تفکیرا و عملا و اجتهادا و فی صلب القضایا معرفة و توجها و فهما.

یقول سبحانه و تعالی: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِیَ مَواقِیتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ. «۳»

و یقول أیضا: یَسْئَلُونَکَ ما ذا یُنْفِقُونَ؟ قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَیْرٍ فَلِلْوالِدَیْنِ وَ الْأَقْرَبِینَ. «۴»

و یقول سبحانه: یَسْئَلُونَکَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّی. «۵» و یقول سبحانه:

---

(۱) بحار الأنوار (ج ۹۲) ص ۱۰۶

(۲) الکافی (ج ۲) ص ۵۹۹

(۳) سورة البقرة آیة ۱۸۹

(۴) سورة البقرة آیة ۲۱۵

(۵) سورة الإسراء آیة ۸۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۶

سَیَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ کَلْبُهُمْ وَ یَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ کَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَیْبِ وَ یَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ کَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّی أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ. «۱»

ما ذا نلاحظ فی الإجابة علی هذه التساؤلات التی طرحها القرآن أ لیس بإمکان القرآن أن یجیب علی هذه الأسئلة بتفصیل لکنه اضرب عن الإجابة لیبین أن الأهم هو صلب الموضوع لا الهامش! و هذه إشارة موجهة إلی الإنسان لکی لا یشتغل بالتوافه، و یضع فی حسابه و تفکیره الأمور المهمة ذات القیمة العالیة. و قد تکون دعوة قرآنیة مباشرة یمارسها المسلم أثناء قراءته للقرآن فتعیش فی ذهنه، و تتحول إلی سلوک ینتجه حینما ینظر إلی آیات القرآن، و یتمعن فیها فیکون بعید المدی قد ذهب ببصره إلی العمق و الباطن لا السطح و الظاهر.

فی قراءتنا لهذه الآیات التساؤلیة نری أن إجابات القرآن تربط الإنسان و تشده إلی جعل اهتماماته فی الحیاة إلی اللباب دون القشر، و إلی الواقع العملی دون النظری، و حتی لو أفاد القرآن و تحدث عن الدورة الفلکیة للقمر فإنهم لا یعون تلک الحقائق لعمقها، و هذا هو البشر لم یصل إلا- إلی النزر القلیل من هذه العلوم. ثم أن هذا الکتاب لیس کتابا للعلوم التجریبیة، و لا هو کتاب فلک فإذا کان کذلک فقد قیمته. فالمهم من هذه الأسئلة هو أن یضبط الناس مواعیدهم مَواقِیتُ لِلنَّاسِ فیرشدهم إلی أهمیة و قیمة الزمن من خلال طرحه لهذه الآیة فی شتی احتیاجاتهم الدینیة و الزمنیة وَ قَدَّرَهُ مَنازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِینَ وَ الْحِسابَ «۲» و معرفة أمور دینهم و التزاماتهم العبادیة کأشهر الحج مَواقِیتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِ و شهر رمضان و غیر ذلک من الأمور التکلیفیة التی ترتبط بالأشهر الهلالیة.

---

(۱) سورة الکهف آیة ۲۲

(۲) سورة یونس آیة ۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۷

و کذلک الآیة الأخری فی السؤال عن الروح حیث المهم أن نعلم إنها من اللّه حتی یستفید منها فی الأعمال المشروعة، و یصرفها فی طاعة اللّه.

و عن آیة «ما ذا ینفقون» فلیس المهم ما ذا ینفق الإنسان و إنما کیف یتصرف و فی أی وقت و أین یضع هذا الإنفاق. و فی آیة أصحاب الکهف فلیس المهم عددهم و من معهم و إنما المهم أن تعرف قصتهم، و ما هی الأحداث التی مرّت علیهم، و کیف انهم آثروا الحق علی الباطل حتی یکون لک درسا دون أن تذهب إلی الهوامش، و تبحث عن عددهم، و کم کانوا و من معهم؟

و هل معرفة هذه الأمور يجب ألا تكون؟ نحن لا نقول على الإنسان أن لا يبحث فى هذه الأمور بل لا يكون ذلك على حساب الفهم العمقى للقرآن لنشره، و نشر تلك الرؤى و البصائر التى يستفيد منها الإنسان فى حياته للعمل بها فى المجتمع حتى يتطبع بطابع القرآن وفق ما أراد لا وفق ما نريد، ففهمنا يجب أن يكون وفق هذا المنحى الذى أراده القرآن.

ثانيا: الفهم الحيوى:

حيوية القرآن تتجسد فى المعرفة التطبيقية له بربط آياته و ما فيه من أحكام و قوانين فى مختلف الاتجاهات الاجتماعية بالواقع و الحياة. فطريقة الفهم هى التى تحدد كيفية الارتباط و التطبيق على الواقع. فالأجيال الأولى التى و اكبت الدعوة الإسلامية فهموا القرآن على انه كتاب للحياة، و برنامج للعمل، و خريطة للتحرك، فكان الواحد منهم حينما يقرأ القرآن يترجم ذلك إلى عمل عن أبى عبد الرحمن السلمى قال: «حدثنا من كان يقرئنا من الصحابة انهم كانوا يأخذون من رسول اللّه عشر آيات فلا يأخذون فى العشر الآخر حتى

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۸

يعلموا ما فى هذه من العلم و العمل». «۱»

و الرعيل الأول الذى عاصر النبى (ص) كان يرى كل مشاكله و الأزمات التى تعصر به من خلال القرآن فيلجأ إليه حينما يريد أن يهتدى إلى السبيل الواضح، و الحل الأمثل و القرار الحازم يتجاوز بذلك منطقة الخطر التى يمر فيها.

أما الأجيال التى جاءت بعد ذلك الجيل أساءت الفهم إلى القرآن، و اعتبرته أثرا من الآثار عليها أن تحتفظ به فى متحف من المتاحف التاريخية، و أخطأت حينما اعتقدت أنه كتاب من الكتب القديمة التى كانت تتحدث عن القصص التاريخية، و بعض الأمور الطقوسية، فهو كتاب لا يرتبط بالحياة لا من بعيد و لا من قريب!.

و هذا الفهم أساء إلى الأمة الإسلامية و لم يسىء إلى كتاب اللّه لأنه فهم مغلوط، و لأن ما فى الكتاب باق على حقيقته لا يغيره هذا الفهم الخاطئ، و قد لعبت عدة عوامل و أسباب فى تكريس هذا الفهم. لذا فإن الأجيال المتعاقبة ساعدت على التخلف، و التراجع عن القرآن و الدين باعتقاد انهما سبب هذا التخلف، بينما لم تكن تعى الأمة أن سبب تخلفها هو ابتعادها عن كتاب اللّه.

و من تلك العوامل أيضا التى ساعدت فى هذا الفهم هو إبعاد القرآن عن ميدان العمل، و ساحة النشاط، و بالتالى إبعاده عن مسرح الحياة و الأحداث، و ذلك كى يتسنى للإنسان المسلم التهرب من الضوابط و القيود الشرعية و يطلق العنان للأهواء و الشهوات تلعب دورها دون قيد أو شرط فينطلق فى الحياة كما يشتهى و يريد، لا كما يريد القرآن منه و الدين. فبالتالى نرى أن هذا

---

(۱) منية المريد ص ۲۱۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۸۹

الإنسان ليس مستعدا أن يتنازل عن رغبة من رغباته، و لا- عن علاقاته و منصبه، و ما يملك. و كان للأفكار الدخيلة و الأفكار المسمومة و الثقافات المنحرفة و الجاهلية دور آخر فى هذا الفهم الخاطئ عند ما وردت التيارات الفكرية التى غيرت من سلوك المسلم، و أبعدته عن ثقافته، و عمّقت لديه الانحراف متجاوزا بذلك كل قيمه و مفاهيمه الخيرة، آخذا بالركض وراء الشيوعية و الوجودية و الرأسمالية و المذاهب الفلسفية و الاقتصادية و السلوكية و الإطلاقية عله يجد فيها ما يشفى غليله و يعالج مشاكله التى تعصف به.

و من هنا كان على العلماء و المفكرين و الكتاب أن يزيلوا هذا الفهم الخاطئ بتكثيف الجهود لبيان حقيقة القرآن وفق منهجية مدروسة تقوم على أسس علمية و قواعد رصينة نابعة من ذات الرسالة ليتم بها استخراج المفاهيم الأصيلة و الأفكار النقية التى تدفع

المسلم إلى الأخذ بها، و العمل وفقها.

و القرآن هو الكتاب الوحيد الذى يدل الإنسان على النجاة، و يرشده إلى الطريق، و يزيل عنه تلك الشبهات، و يبعده عن الطرق الملتوية، و يأخذ بيده إلى الصواب، و يخرجه من الظلمات إلى النور.

لذا يأتى النبى (ص) ليقول أن العلاج هو بالقرآن و فى القرآن فقط بعد أن يشير فى رواية إلى حركة الزمن و التغير الذى يحدث، و ان الدنيا لا تبقى على حال، فكأنه يستقرئ ما سيحدث للأمة من تركها للقرآن، و فهمها الخاطئ له فتصبح بعيدة عنه فيضع لنا هذا النص فيقول:

«أيها الناس إنكم فى دار هدنة و انتم على ظهر سفر و السير بكم سريع و قد رأيتم الليل و النهار و الشمس و القمر يبليان كل جديد و يقربان كل بعيد و يأتيان بكل موعود فاعدوا الجهاز.

قال: فقام المقداد بن الأسود فقال: يا رسول اللّه و ما دار الهدنة قال: دار بلاغ و انقطاع فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن فانه شافع،

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۰

مشفّع و ماحل مصدّق، و من جعله أمامه قاده إلى الجنة، و من جعله خلفه ساقه إلى النار، و هو الدليل على خير سبيل، و هو كتاب فيه تفصيل و بيان و تحصيل، و هو الفصل ليس بالهزل، و له ظهر و بطن فظاهره حكم و باطنه علم ظاهره أنيق و باطنه عميق، له نجوم و على نجومه، نجوم لا تحصى عجائبه و لا تبلى غرائبه، فيه مصابيح الهدى و منار الحكمة، و دليل على المعرفة لمن عرف الصفة فليجل جال بصره، و ليبلغ الصفة نظره ينج من عطب، و يتخلص من نشب، فان التفكر حياة قلب البصير كما يمشى المستنير فى الظلمات بالنور، فعليكم بحسن التخلص و قلة التربص». «۱»

فإذا أردنا أن نزيل اللبس، و نقضى على الفتن، فعلينا بفهم القرآن فهما صحيحا و سليما.

و لكن كيف؟

فهم الأبعاد الحقيقية للقرآن و لا يتم ذلك إلّا بربط القرآن بالحياة و الواقع و استيعاب المتغيرات الزمنية، و الوعى بما يجرى و ملاحظة المستجدات التى تطرأ على الساحة الإسلامية، كل ذلك يجعل الواحد منا يفهم أن القرآن جاء ليواكب هذه الأمور و لكى لا يكون كتابا ميتا فيحيا هذا الكتاب حينما ينظر المسلم إلى هذه الأمور من خلاله، كما قال لنا النبى (ص) فى الرواية الماضية.

كما إننا بحاجة إلى دراسة التاريخ التطبيقى للفترة الزمنية التى نزل فيها القرآن، لنرى كيف فهم أولئك القرآن؟ و كيف تمت الممارسة الفعلية له؟

و كيف كانوا حينما كان فهمهم له سليما؟

فما هو مفهوم الوحدة عندهم حسب نظر القرآن و كيف جسدوها على واقعهم. و كيف كانت الاخوة التى انطلقت من أساس الإيمان بعد إلغاء

---

(۱) ميزان الحكمة (ج ۸) ص ۶۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۱

العصبية و اللون و الجنس و الدم و العرق و عموما كيف فهم أولئك المسلمين القرآن و طبقوه على حياتهم؟ أ ليس لأنهم التزموا بقيادة النبى (ص) باعتباره مرسلا من السماء لهم.

فالتزامهم بالقيادة الرسالية كان على أساس قيم و مبادئ قرآنية لا على أساس مصالح دنيوية أو مكاسب مادية، فكانت كل مفاهيم

القرآن و رؤاه و بصائره التى اكتسبوها من الوحى عبر النبى (ص) الصادق لدلالة واضحة على سيادة هذه الأمة فى ذلك اليوم حيث خاطبها القرآن كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ «۱» و لكن حينما تبدلت القيم، و تغيرت المفاهيم، و اصبح القرآن بعيدا عن الحياة، و النبى (ص) اصبح جسدا لا رمزا أَ فَإِنْ ماتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلى أَعْقابِكُمْ وَ مَنْ يَنْقَلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً. «۲»

و نحن اليوم كيف نفهم القرآن يكون مصيرنا! فإذا كان فهمنا له كما فهمه أصحاب النبى (ص) و على (ع) و المقداد و عمار و سلمان و حمزة نتقدم، و إذا كان فهمنا له غير ذلك فقد نزداد تخلفا و تراجعا إلى الوراء.

---

(۱) سورة آل عمران آية ۱۱۰

(۲) سورة آل عمران آية ۱۴۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۳

۱۲ كيف نقرأ القرآن

اشارة

* لما ذا نقرأ القرآن* قبل أن نقرأ القرآن* القراءة الرسالية* لكى تكتمل القراءة

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۵

لما ذا نقرأ القرآن؟

ما تقدم من حديث يدلل على أننا بحاجة إلى القرآن، و لا نستغنى عنه.

فنحن لا نقرأ إلّا ما نحتاج إليه، و نستفيد منه، لكن نضم إلى ذلك أن القراءة تختلف عن الاستماع لأن لها مميزات كالوضوح و التفاعل، فهى تخلق نوعا من التجاذب بين النص المقروء و ذلك الإنسان القارئ، فيكون التأثير ملازما لتلك القراءة، و بالخصوص حينما يكون النص المقروء مقدسا كنصوص القرآن الصادرة من اللّه عن طريق الوحى، و النصوص الواردة من الأنبياء و الأئمة.

فقراءة النص المقدس تربط الإنسان حينما يعتبر تلك القراءة نوعا من العبادة.

عن أبى عبد اللّه (ع) قال: «قلت له جعلت فداك إنى أحفظ القرآن عن ظهر قلبى افضل أو أنظر فى المصحف؟ قال فقال لى بل اقرأه و انظر فى المصحف فهو أفضل ما علمت أن النظر فى المصحف عبادة». «۱»

و قراءة القرآن لا تترك بحال كما يقول سبحانه و تعالى: فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ «۲» و فى نفس الآية فَاقْرَؤُا ما تَيَسَّرَ مِنْهُ. «۲»

نعم على المؤمن أن لا يترك قراءة القرآن، هذه الرسالة الربانية لأنه قد يستغنى عن كثير من المستحبات الأخرى لكنه لا يستغنى عن قراءة هذا الكتاب، و لو بضع آيات حتى و لو كانت القراءة غير صحيحة، حيث أجاز بعض الفقهاء لمن لا يجيد القراءة أن يقرأ القرآن فى حالة عدم ضبطه للحركات و السكنات. «۴»

---

(۱) القرآن ثوابه و خواصه ص ۲۱۵

(۲) سورة المزمل آية ۲۰

(۴) أجوبة المسائل الشرعية ص ۳۰۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۶

فهذا الكتاب المقدس ليست قراءته حكرا على طائفة معينة أو جماعة خاصة، و إنما هو كتاب المسلم فعليه أن يقرأه، أو ما تيسر منه، فهو بصائر و هدى له فى حياته مهما كانت الظروف.

قال النبى (ص): «إن الرجل الأعجمى من أمتى ليقرأ القرآن بعجميته فترفعه الملائكة بعربيته». «۱»

فلا يجوز للإنسان أن يعتذر عن قراءة القرآن، فهى الوسيلة المباشرة التى يتعرف بها على كتاب ربّه، و لذا كانت أول آية نزلت على النبى (ص) تأمره بالقراءة اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ «۲» و اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ. «۳» و لفظة القرآن أوضح دلالة على القراءة حيث يقول صاحب مجمع البيان: «القرآن معناه القراءة فى الأصل و هو مصدر قرأت أى تلوت و هو المروى عن ابن عباس و قيل هو مصدر قرأت الشىء أى جمعت بعضه إلى بعض». «۴»

و هذا يعنى أن للقراءة أبعادا نلمسها من خلال قراءتنا لهذا السفر العظيم، فعلى ذلك جاءت روايات لأهل البيت (ع) فى هذا المجال لتؤكد على أهمية القراءة، و تحث المسلم على مزاولتها، و عدم تركها لما فيها من عظيم الثواب و الأجر، و معرفة العلوم الإسلامية و الأحكام الشرعية و معالم الثقافة الإسلامية.

فورد عن النبى (ص) «أفضل العبادة قراءة القرآن» «۵»

و عنه أيضا (ص) «من قرأ القرآن حتى يستظهره أدخله اللّه الجنة و شفّعه فى

---

(۱) عدة الداعى ص ۲۱

(۲) سورة العلق آية ۱

(۳) سورة العلق آية ۳

(۴) مجمع البيان (ج ۱- ۲) ص ۸۲

(۵) مجمع البيان (ج ۱) ص ۱۵ القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۷

عشرة من أهل بيته كلهم قد وجبت لهم النار». «۱»

و جعلت هذه الروايات من قراءة القرآن الحصول على البركة و الخير الكثير و النعمة، و ذلك أن الإنسان إذا تتطبع بالقرآن، و تحول من عبارات يقرأها إلى سلوك و عمل و ممارسة فى كل مجالات حياته فانه سينعم بالسعادة و الرفاه، و يحصل على الرزق، لأنها آيات تلاوتها دعوة إلى التحرك نحو التوجه إلى كل فرص الخير فى الحياة

فعن النبى (ص) قال: «نوروا بيوتكم بتلاوة القرآن و لا تتخذوها قبورا كما فعلت اليهود و النصارى، صلوا فى الكنائس و البيع و عطلوا بيوتهم فان البيت إذا كثر فيه تلاوة القرآن كثر خيره، و اتسع أهله، و أضاء لأهل السماء كما تضىء نجوم السماء لأهل الدنيا». «۲»

و عن الرضا (ع) عن النبى قال: «اجعلوا لبيوتكم نصيبا من القرآن فان البيت إذا قرأ فيه القرآن تيسر على أهله، و كثر خيره، و كان سكانه فى زيادة، و إذا لم يقرأ فيه القرآن ضيق على أهله، و قل خيره، و كان سكانه فى نقصان». «۳»

فكما أن القراءة وسيلة إلى العلم و الثقافة و فهم معالم الدين فهى أيضا وسيلة للحصول على السعادة و الرفاه، فينعم الإنسان بحصوله على هذه الوسيلة على الخير و البركة حيث العلم طريق إلى سعادة الإنسان. كما أن القراءة هى وسيلة لتحقيق جانب كبير من الراحة النفسية و اطمئنان القلب و سكون النفس، فقراءة القرآن تهدئ من روع الإنسان، و تخفف عليه آلام الحياة، و ترفع عنه كثير من المشاكل الاجتماعية و النفسية حينما يتمعن فى تلك الآيات بصفاء الذهن و روية العقل و التفكير، فينظر من خلالها إلى آفاق نفسه و الى آفاق الكون فيرتاح باله و تطمئن نفسه كما يقول ربنا:

---

(۱) مجمع البيان (ج ۱) ص ۱۶

(۲) عدة الداعى ص ۲۱۲

(۳) القرآن ثوابه و خواصه ص ۳۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۸

أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ. «۱»

قبل أن نقرأ القرآن:

اشارة

هل هناك نوع محدد من القراءة؟ و هل هناك عدة قراءات للقرآن؟ و هل ثبتت هذه القراءات؟ و ما هى درجة صحتها و هل لها تأثير على وحدة القرآن أم لا؟

فقبل أن نحدد نوع القراءة المطلوبة للقرآن من الوجهة القرآنية و الثقافة الإسلامية فنلقى الضوء على هذه القراءات التى وردت حول القرآن و لو بشكل مختصر حتى نتوصل إلى رأى صائب حولها.

ما هى القراءات؟

قبل أن نتحدث عن نشوئها و متى بدأت هذه القراءات؟ نعرف القارئ عليها ليكون فى الصورة حتى يتسنى له فهم الموضوع بشكل واضح.

القراءات تعنى أن هناك عدة صور يقرأ بها القرآن. و كان ذلك أن جماعة من أصحاب النبى (ص) و فى حياته اشتغلت بقراءة القرآن تعلما و تعليما فكانت تترقب نزول الآيات على الرسول (ص) فتحفظها عن ظهر قلب ثم يقرءونها عند النبى (ص) بعد ذلك ليستمع إليهم.

و كان هؤلاء الحفظة يعلّمون غيرهم ما يأخذونه منه (ص) فينقل عنهم على شكل رواية مسندة مع القراءة المروية عن ذلك الشخص.

و كان هؤلاء التلاميذ الذين يأخذون عن الحفظة و هم يقرءونها بعدة وجوه نتيجة الخط الكتابى المعمول به- الخط الكوفى- حيث أن الكلمة كانت تقرأ بعدة طرق،

---

(۱) سورة الرعد آية ۲۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۲۹۹

و لم تكن آنذاك ثقافة خاصة باللغة العربية أو قواعد معينة لها مدونة و متفق عليها عند كل العرب، فكان كل واحد يقرأ حسب طريقته أو لهجة القبيلة التى ينتمى إليها، فانتقلت هذه القراءة من الطبقة الأولى و هم من قرّاء الصحابة- و كانت من بينهم امرأة تسمى بأم ورقة بنت عبد اللّه بن حارث- إلى تلامذتهم و هم الطبقة الثانية من التابعين، و هؤلاء كانت لهم حلقات فى تعليم القرآن فى مكة و المدينة و الكوفة و البصرة و الشام حيث أرسل إليها المصحف الشريف، و فى النصف الأول من القرن الثانى انتقل إلى الطبقة الثالثة، و هم جماعة من مشاهير قرّاء القرآن أخذوا عن الطبقة الثانية و من بينهم القراء السبعة الذين اشتهرت بهم القراءات السبع و هم:

۱- عبد اللّه بن كثير «مكى» ۲- نافع بن نعيم «مدنى» ۳- عاصم بن أبى النجود «كوفى» ۴- حمزة بن حبيب الزيات التميمى «كوفى» ۵- على بن حمزة بن عبد اللّه فيروز الفارسى «كوفى» ۶- أبو عمرو زبّان بن العلاء «بصرى» ۷- عبد اللّه بن عامر الشافعى الدمشقى

«دمشقی» هؤلاء هم القراء السبعة و تتبعهم القراءات السبع و يتلوها فی الشهرة أيضا قراءات ثلاث مرويـة عن أبی جعفر و يعقوب و خلف.

أما نشوؤها فهناك اتجاهان يوضحان ذلك:

الأول: و هو كما يـدعی من يقبل بهذه القراءات أنها نشأت فی عهد النبی (ص)، فكان أولئك ينطقون بها كما ينطق بها النبی (ص) و كما نزلت عليه

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۰

وحيـا من اللّه تعـالی بغض النظر عن كتابـة المصـحف فهی تسـند كروايـة قطعيـة مع اختلافهـا حتی تتصل بالنبی (ص) هـذا بالطبع إذا تحققت أسانيد هذه القراءات.

الثانی: إن المصـحف الكريم أول ما كتب كتب مجردا عن الحركات و السـكنات و النقط، مما أدّی إلی أن يكون نطق عبارته مختلفة نتيجـة الاحتمالات لعـدم وجود ما يساعـد علی وحدة العبارة لكل القراء، فنشأت نتيجة ذلك قراءات متعددة للوصول إلی حقيقة اللفظ المكتوب.

«و قـد ادّعی المستشـرق المجری جولـد تسـهير إن نشـأة القراءات كانت بسـبب تجرد الخط العربی من علامات الحركات، و خلوه من نقط الاعجام». «۱»

«و ذكر المستشـرق الألمـانی كارل بروكلمان فقال: حقا فتحت الكتابـة التی لم تكن قـد وصـلت بعـد إلی درجـة الكمال مجالا لبعض الاختلاف فی القراءة لا سـيما إذا كانت غير كاملـة النقط و لا مشـتملة علی رسوم الحركات فاشـتغل القرّاء علی هذا الأساس بتصـحيح القراءات و اختلافها». «۱»

عدم صحة القراءات:

ليس القصـد من الحـديث عن هـذا الموضوع هو الغوص فی أعماق هذا البحث العلمی بمقدار ما نريد أن نتوصل إليه فقط بان القرآن الكريم كتـاب بعيـد عن هـذه الاختلافـات التی تؤدی إلی اختلاـف فی معـانيه نتيجـة اختلاف ألفاظه و عباراته، و ذلك يشـكل ورود النقص علی كتاب اللّه عز و جل الذی

---

(۱) مذاهب التفسير الإسلامی ص (۸- ۹)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۱

يقول عنه سبحانه و تعالی: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ. «۱»

فمناقشة هذه القراءات غرضها بيان وحدة القرآن، و الحفاظ علی اصله و جوهره بوحدة عباراته و ألفاظه.

و قـد صـرح علماء الفريقين بأدلـة كافيـة فی رد مسألـة تواتر القراءات حيث ادّعوا أنها متواترة عن النبی (ص) و قد ثبت العكس تماما قطعا فذكر السيد الخوئی فی كتابه البيان ما يثبت نفی تواتر هذه القراءات فيما يلی:

الأول: «إن استقراء حال الرواة يورث القطع بأن القراءات نقلت إلينا بأخبار الآحاد فكيف تصح دعوی القطع بتواترها عن القرّاء علی أن بعض هؤلاء الرواة لم تثبت وثاقته.

الثانی: التأمل فی الطرق التی أخذ عنها القرّاء يدلّنا دلالة قطعية علی أن هذه القراءات إنما نقلت إليهم بطريق الآحاد.

الثـالث: اتصـال أسانيـد القراءات بالقرّاء أنفسـهم يقطع تواتر الأسانيـد حتی لو كان رواتها فی جميع الطبقات ممن يمتنع تواطؤهم علی الكذب، فان كل قارئ إنما ينقل قراءته بنفسه.

الرابع: احتجاج كل قارئ من هؤلاء على صحّة قراءته، و احتجاج تابعيه على ذلك، و إعراضه عن قراءة غيره، دليل قطعى على أن القراءات تستند إلى اجتهاد القراء و آرائهم، لأنها لو كانت متواترة عن النبى (ص) لم يحتج فى إثبات صحتها إلى الاستدلال و الاحتجاج.

الخامس: إن فى إنكار جملة من أعلام المحققين على جملة من القراءات دلالة

---

(۱) سورة الحجر آية ۹

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۲

واضحة على عدم تواترها. «۱» و ذهب السيد الخوئى (قدس سره) إلى عدم حجية القراءات شرعا. «۲»

و يقول الإمام الشيرازى: «الأقوى عندنا عدم جواز القراءة إلا بما تعارف رسمه فى المصاحف، فإنه هو المتواتر يدا بيد حتى يصل إلى صاحب الرسالة (ص)، و يدل على ذلك ما نشاهده فى المصاحف الخطية القديمة، و التى ينسب بعضها إلى الإمام أمير المؤمنين (ع) أو الحسن (ع) أو إلى غيرهما من الأئمة (ع)، فإنه كالقرآن الذى بأيدينا اليوم بلا زيادة و لا نقيصة، و القراءات المشهورة كالقراءات الشاذة كلها اجتهادات لا تفيد علما و لا عملا، و من لاحظ التاريخ فى شدة اعتناء المسلمين بالقرآن من أول نزوله إلى اليد فى كل عصر و مصر يظهر له أن ما بأيدينا اليوم هو القرآن النازل على الرسول (ص) بغير تغيير أو تبديل. «۳»

و يقول الإمام بدر الدين الزركشى: «اعلم أن القرآن و القراءات حقيقتان مغايرتان، فالقرآن هو الوحى المنزل على محمد (ص) للبيان و الإعجاز.

و القراءات: هى اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى كتابة الحروف أو كيفيتها.

ثم قال: «و القراءات السبع متواترة عند الجمهور و قيل: بل مشهورة ...

و التحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة. أما تواترها عن النبى (ص) ففيه نظر، فان إسناد الأئمة السبعة بهذه القراءات السبعة موجود فى كتب القراءات، و هى نقل الواحد عن الواحد لم تكمل شروط التواتر فى استواء الطرفين

---

(۱) البيان ص ۱۵۱

(۲) البيان ص ۱۶۴

(۳) موسوعة الفقه (ج ۲۱) ص ۷۱

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۳

و الواسطة». «۱»

«و لنعلم أن التواتر يعنى القطع بأمر معين يحصل معه اليقين و الاطمئنان بأنه صدر من النبى (ص). فإذا كانت هذه القراءات متواترة أى إنها مقطوع بها فلا يجرأ أحد أن يرفضها فإذا كان ذلك فكيف ينكر الإمام أحمد بن حنبل على حمزة كثير من قراءاته و كان يكره أن يصلى خلف من يقرأ بقراءة حمزة و هو من القراء السبعة. و كان أبو بكر بن عياش يقول قراءة حمزة عندنا بدعة.

و قال ابن دريد إنى لاشتهى أن يخرج من الكوفة قراءة حمزة. و كان المهدى يقول لو كان لى سلطان على من يقرأ قراءة حمزة لأوجعت ظهره و بطنه.

و كان يزيد بن هارون يكره قراءة حمزة كراهة شديدة». «۲»

أ ليست هذه متواترة و مقطوع بها؟ فلما ذا يعمل هكذا فى روايات وردت عن النبى (ص)، و ما الذى يجعل قراءة رسول اللّه يعاقب عليها، و يخرج من يقرأها؟ أ ليس ذلك يدل على الشك فى نسبة ذلك إلى الرسول و على عدم التواتر فهل يتجرأ أحد أن يرفض ما

يتواتر عن النبى (ص) أو ما يقطع به المسلمون انه صدر عنه.

الأحرف السبعة:

و لنا أن نتساءل ما هى الأحرف السبعة و ما صلتها بالقراءات السبع و القرّاء السبعة و هل هناك مناسبة أو صلة بينها أو لا تناسب بينها؟ حاول البعض أن يستدل على القراءات السبع برواية قيل إنها صادرة عن

---

(۱) البرهان (ج ۱) ص (۳۱۸- ۳۱۹)

(۲) تهذيب التهذيب لابن حجر (ج ۳) ص (۲۷- ۲۸) نقلا عن التمهيد (ج ۲) ص ۶۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۴

النبى (ص) «هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرءوا ما تيسر منه». «۱»

فما هى هذه الأحرف السبعة؟ و ما هو المراد منها؟ و هل يصح الاحتجاج بما لا يفهم معناه و بما لا يعرف مؤداه؟ إذا هو احتجاج باطل لا يوصل إلى نتيجة.

إذا كانت الأحرف السبعة تعنى القراءات السبع التى أمر بها النبى (ص) بعد أن نزلت من قبل اللّه بواسطة جبرائيل فيعنى إنها قاعدة من القواعد القرآنية التى يجب أن نعتمد عليها فى قراءتنا لهذا الكتاب، فهى بالتالى تشريع من اللّه عز و جل، فلا يجوز لنا أن نرد هذا التشريع.

و إذا كانت هذه الأحرف تعنى القراءات فكيف صح لخليفة المسلمين عثمان أن يتجاوز هذه الأحرف و يلزم المسلمين بقراءة القرآن على حرف واحد، و لم يعترض عليه كبار الصحابة و فى مقدمتهم أمير المؤمنين (ع)؟ هذا ما يدلل على عدم صحة هذا الحديث. و كيف يصح هذا الحديث؟ و قد ذكر الطبرى هذه الرواية و تعقبه الأستاذ احمد محمد شاكر فى تعليقه فقال: «هذا حديث لا أصل له، رواه رجل كذّاب هو عيسى بن قرطاس قال فيه ابن معين ليس بشىء لا يحل لأحد أن يروى عنه. و قال ابن حيان: يروى الموضوعات عن الثقات، لا يحل الاحتجاج به. و قد اخترع هذا الكذّاب شيخا له روى عنه و سماه: زيد القصار، و لم نجد لهذا الشيخ فى ترجمة فى شىء من المراجع. «۲»

و ليس ذلك فحسب بل الرواية لم ترد بهذه الصورة فقط و إنما وردت روايات عن النبى (ص) أيضا مختلفة فى عدد الأحرف، فبعضها يقول سبعة

---

(۱) صحيح البخارى (ج ۶) ص ۱۸۵

(۲) جامع البيان (ج ۱) ص ۲۴ نقلا عن دراسات قرآنية ص ۱۰۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۵

و بعضها يقول خمسة و بعض يقول أربعة و أخرى تقول ثلاثة و أخرى عشرة.

فما هو الصحيح فى هذه الروايات؟ و كم يكون بالتالى عدد القراءات؟ «۱» و لما ذا هذا العدد بالتحديد السبعة لم لا تكون اقل من ذلك أو اكثر! ثم يا ترى ما هو الغرض من هذه القراءات؟ حيث ذكر بعضهم أن الحكمة فى نزول القرآن على الأحرف السبعة هو التيسير على الأمة الإسلامية، خصوصا الأمة العربية التى شوفهت بالقرآن فإنها قبائل كثيرة و كان بينهم اختلاف فى اللهجات. «۲»

أ ليس هذا الكلام بعيدا عن المنطق؟ و هل التسهيل فى إيجاد لغات متعددة و لهجات متفرقة أم توحيد الأمة بقراءة واحدة؟ ثم إن هذا الكتاب ليس كتابا للعرب فقط أو للعرب فى ذلك الزمن بل هو كتاب لكل الناس، فلا بد أن تكون لغته واحدة و عباراته واحدة و

مؤداه واحد فإذا وجد الاختلاف فی کتاب اللّه فما بال من یتبعون هذا الکتاب؟! ثم أن الغموض حول تحدید معنی الأحرف ما هی؟ و ما ذا تعنی؟ فهل هی أحرف اللغة العربیة؟ فلما ذا حددت بسبعة و لیس اکثر؟ أم هی التشکیل و الإعراب و البناء! فلیست هناک دلالة واضحة علی ذلک و بالطبع لو اقتضت وجود هذه الأحرف المختلفة من قراءة إلی قراءة علی أیة فرضیة فإنها تعنی وجود زیادة لحرف أو کلمة أو جملة و ذلک مما یغیّر فی القرآن، و ینفی وحدة النص القرآنی، کما هو حاصل بالنسبة للاختلاف الموجود فی الإنجیل حیث یختلف النص من إنجیل إلی إنجیل.

---

(۱) تراجع هذه الروایات فی جامع البیان للطبری (ج ۱) ص (۲۴- ۲۶) و مستدرک الحاکم (ج ۲) ص ۲۲۳ و کنز العمال (ج ۲) ص ۲۲۳.

(۲) الزرقانی فی کتابه مناهل العرفان (ج ۱) ص ۱۳۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۶

فعلی أی حال إن القول بالقراءات بهذه الکیفیة یعنی القول بالتحریف فی القرآن و الیک أمثلة علی ذلک، فمثلا وَ هُوَ الَّذِی یُرْسِلُ الرِّیاحَ بُشْراً بَیْنَ یَدَیْ رَحْمَتِهِ «۱» و کذا فی سورة الفرقان ۴۸ و النمل ۶۳، بالباء.

هذه هی قراءة عاصم وحده، قال أبو زرعه و حجته قوله تعالی: وَ مِنْ آیاتِهِ أَنْ یُرْسِلَ الرِّیاحَ مُبَشِّراتٍ «۲» و ذلک أن الریح تبشر بالمطر، قال: «و کان عاصم ینکر أن تکون الریح تنشر، و کان یقول: المطر ینشر أی یحیی الأرض بعد موتها، یقال: نشر و انشر إذا أحیی.

و قرأ حمزة و الکسائی «نشرا» و قرأ نافع و ابن کثیر و أبو عمرو «نشرا» و قرأ ابن عامر «نشر» و دلائلهم فی ذلک غیر وافیة.

و من سورة مریم قرأ نافع و الکسائی «یکاد السماوات یتفطرن منه» بالیاء. و قرأ عاصم و الباقون «تکاد» بالتاء و هو خطأ محض مخالف لما هو موجود فی القرآن.

و من سورة طه قرأ أبو عمرو: «إن هذین لساحران» بالتشدید و الیاء و هو مخالف للقرآن.

و قرأ عاصم و الباقون: إِنْ هذانِ لَساحِرانِ ... بالتخفیف و الألف «۳» و هو الموافق لکتاب اللّه.

و الأمثلة علی ذلک کثیرة من شاء فلیراجع ذلک فی مضانه حیث اقتصرنا

---

(۱) سورة الأعراف آیة ۵۷

(۲) سورة الروم آیة ۴۶

(۳) یراجع فی ذلک کتاب التمهید فی علوم القرآن (ج ۲) ص (۱۴۱- ۲۶۰)

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۷

علی أمثلة ثلاثة للتدلیل علی أن هذه القراءات تهدم وحدة النص القرآنی، و بالتالی تؤدی إلی نقصه، و التغییر فی معناه.

«و من الواضح إن هذا ضرب من ضروب التحریف فی القرآن و لا نفهم معنی لان ینزل جبرئیل و یقول للنبی (ص) الآیة الواحدة علی الوجوه الکثیرة المختلفة حسب اختلاف القرّاء فی قراءتها فیکرر القرآن علیه، وفقا لتلکم الاختلافات الکثیرة، فان هذا لا یعدو عن أن یکون لعبا و عبثا بالقرآن الکریم، و مهزلة من مهازل العقل البشری لا مبرر لها، و لا منطق یساعدها». «۱»

و قد ورد عن أئمة أهل البیت علیهم السلام مما یساعد علی وحدة النص القرآنی، و انه نزل علی حرف واحد أی أن کلام اللّه لیس فیه اختلاف، و إنما حصل من قراءات ما هی إلا اجتهادات من قبل هؤلاء القراء و من عند أنفسهم، فکل اخذ یقرأ القرآن بطریقته الخاصة أو بلهجة قبیلته، لا کما نزل علی النبی (ص) و کما جاء به الوحی من عند اللّه، یؤکد ذلک ما ورد عن الفضیل بن یسار قال:

«قلت لأبی عبد اللّه (ع) إن الناس يقولون: إن القرآن نزل على سبعة أحرف فقال «كذبوا أعداء اللّه و لكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد». «۲»

و عن أبی جعفر (ع) قال: «إن القرآن واحد نزل من عند واحد و لكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة.»

فمصدر هذه القراءات هی اللهجات و القرّاء و ليس القرآن حيث لا علاقة لها به، و إنما نشأت نتيجة اختلاف لهجات تلك القبائل العربية التی أسلمت.

---

(۱) حقائق هامة حول القرآن الكريم ص ۲۹۷

(۲) الكافی (ج ۲) ص ۶۳۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۸

و قد تبنی هذا الرأی الدكتور طه حسين فاعتبر اختلاف اللهجات بين قبائل العرب التی لم تستطع أن تغير حناجرها و ألسنتها و شفاهها لتقرأ القرآن كما كان يتلوه النبی (ص) و عشيرته قريش، اعتبر ذلك أساسا لاختلاف القراءات، فقرأته هذه القبائل كما كانت تتكلم، فأمالت حيث لم تكن تميل قريش، و مرّت حيث لم تكن تمر، و قصّرت حيث لم تكن تقصر، و سكنت و أدغمت و أخفت و ثقّلت. «۱»

و أخيرا:

إننا لا نجد أية صلة بين الأحرف السبعة و هذه القراءات التی ادّعی إنها نزلت على النبی (ص) حيث نجد أن هناك تأويلا لهذه الأحرف السبعة من أئمة أهل البيت (ع) و من علماء الفريقين.

و الذی يظهر من روايات أهل البيت (ع) إن الأحرف السبعة هی إشارة إلى بطون القرآن و تأويلاته، و ان آيات القرآن يمكن أن تتحمل عدة وجوه من المعانی المتفقه مع قواعد القرآن و أقوال النبی (ص)، و لذا ورد عن الإمام الصادق (ع): «إن القرآن نزل على سبعة أحرف و أدنی ما للإمام أن يفتی على سبعة وجوه». «۲»

و ما ورد عن الإمام الباقر (ع) قال: «تفسير القرآن على سبعة أحرف منه ما كان و منه ما لم يكن بعد ذلك تعرفه الأئمة». «۳»

و ما يدلل على أن الأحرف لا صلة لها بهذه القراءات ما ورد عن أمير

---

(۱) الأدب الجاهلی ص ۹۵ نقلا عن دراسات قرآنية ص ۱۰۶

(۲) الخصال (ج ۲) ص ۳۵۸

(۳) بصائر الدرجات ص ۱۹۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۰۹

المؤمنين (ع) قال: «أنزل القرآن على سبعة أقسام كل منها شاف كاف و هی: أمر، و زجر، و ترغيب، و ترهيب، و جدل، و مثل و قصص». «۱»

لذا قال الشيخ شهاب الدين «أبو شامه»: «و أما من يهول فی عبارته، قائلا إن القراءات السبع متواترة لأن القرآن أنزل على سبعة أحرف. فخطؤه ظاهر لان الأحرف السبعة المراد بها غير القراءات السبع على ما سبق تقريره» «۲» بالطبع فی كتابه هو.

و ما يبدو لی هو إن للقرآن سمة خاصة و مميزات بعيدة كل البعد عن التعقيد الذی يجعل المسلم بعيدا عن كتاب ربه حتی لا يشتغل بأمور سطحية و جزئية تدور حول الكلمة و اللفظ ليترك المعنی و الفكرة جانبا.

فالأحرف هى ليست الألفاظ و الكلمات التى تقرأ بأى شكل من الأشكال و إنما هى الأقسام التى ذكرتها الرواية المنقولة عن أمير المؤمنين (ع) حتى ينشغل الإنسان بالجوانب الأخرى فى القرآن، كالجوانب التربوية و الحقائق التاريخية، لكى يتعلم الإنسان من القرآن ما يتبصر به من خلاله فى المجتمع، فتكون حينها سمة القرآن، و الميزة التى تميزه الحيوية و الحركة.

إذا فليست الأحرف هى ألفاظ و حركات و سكنات تشغل ذهن الإنسان بعيدا عن عمق القرآن فى تلك الجوانب.

نعم المطلوب قراءة القرآن بالشكل الصحيح عربيا و لغويا كما جاء به النبى (ص) لا كما جاء به القرّاء السبعة.

---

(۱) تفسير الصافى (ج ۱) ص ۳۹

(۲) المرشد الوجيز ص ۱۴۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۰

القراءة الرسالية:

اشارة

يا ترى كيف نقرأ القرآن؟ فهل المطلوب أن نتبع إحدى هذه القراءات التى لم تثبت مدى جديتها؟ أم إن القرآن كما بيّنا جاء على قراءة واحدة أقرأها جبرئيل للنبى (ص)؟ و هل المطلوب هو تفكيك رموز و عبارات القرآن أم إن المطلوب هو القراءة بالشكل السليم الموافق لما هو فى الكتاب المحفوظ إلى يوم القيامة؟

بالطبع قراءة القرآن كما أنها بحاجة إلى ضبط قواعدها لمن يستطيع أن يضبطها من تشكيل و إعراب و بناء، كذلك تحتاج إلى قراءة ذات مواصفات متميزة يتحلى بها القارئ حتى لا ينطبق عليه

الحديث الوارد عن الرسول (ص): «ربّ تال للقرآن و القرآن يلعنه». «۱»

فكما أن الصلاة التى يؤديها الفرد يجب أن لا تتحول إلى مجرد حركات بل تنهاه عن الفحشاء و المنكر، كذلك قراءة القرآن كما يخاطبنا الرسول

فيقول: «أنت تقرأ القرآن ما نهاك فإذا لم ينهك فلست تقرأه». «۲»

فالقراءة هى فى إدراك المعانى و التدبر فى آيات اللّه ضمن آداب القراءة التى علمنا إياها أهل البيت (ع)، و قراءة القرآن هى حديث العبد مع اللّه بواسطة هذا الكتاب.

فعن الرسول (ص): «إذا أحب أحدكم أن يحدث ربه فليقرأ القرآن» (۳)

و لكن ضمن الشروط و المواصفات التى تجعل الإنسان يقرأ القرآن بكامل قواه العقلية غير منشغل الذهن متوجها بتفكيره إلى هذه القراءة. فيا ترى ما هى المواصفات المطلوبة فى هذه القراءة؟ و كيف نقرأ هذا القرآن؟

---

(۱) بحار الأنوار (ج ۹۲) ص ۱۸۴

(۲) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد (ج ۱۰) ص ۲۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۱

أولا: قراءة الاستعاذة:

لقوله تعالى: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ. «۱»

ما ذا تعنى الاستعاذة؟ هل هى مجرد الصيغة التى

وردت فى روايات أهل البيت (ع) «أعوذ باللّه السميع العليم من الشيطان الرجيم» «۲»

أم إنها ليست مجرد ألفاظ و إنما هى سلوك لإزالة ما يقف حاجزا أمام فهم القرآن من وساوس الشيطان! و الحقيقة إن الاستعاذة و بمجرد اللفظ ليست واجبة قبل قراءة القرآن و إنما هى مستحبة بلا خلاف فى الصلاة و خارج الصلاة كما ذكر ذلك صاحب مجمع البيان.

«إنما هى راجحة للقراءة حيث القراءة فى نفسها غير واجبة إلا قدر الواجب من المعرفة فكيف تجب الاستعاذة و بالأحرى فى غير قراءة و لكنها قلبيا و عمليا واجبة إرشادية لكى لا يقع المؤمن فى فخ الشيطان». «۳»

و تأكيد القرآن عليها لإزالة كل ما يعترض فهم الإنسان لينفتح قلبه على هذا الكتاب، و يرتفع الحجب، و الحواجز النفسية. لذا

ورد فى الحديث عن الإمام الصادق (ع): «فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء قلب خاشع و بدن فارغ و موضع خال فإذا خشع للّه قلبه فرّ منه الشيطان قال اللّه تعالى: فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ». «۴»

---

(۱) سورة النحل آية ۹۸

(۲) مجمع البيان (ج ۵- ۶) ص ۵۹۳

(۳) الفرقان فى تفسير القرآن (ج ۱۳- ۱۴) ص ۴۸۰

(۴) مصباح الشريعة ص ۹۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۲

و الاستعاذة تعنى فصل الشيطان عن قارئ القرآن أثناء قراءته، و هى نوع من الالتماس و الطلب و الدعاء إلى اللّه بإلحاح فى إبعاد الشيطان و أحابيله و فى رفع تلك الحجب التى تشكل خطرا على الفهم و استيعاب آيات اللّه و بالتالى إبقاء الإنسان على حالة الجهل لمعالم هذا القرآن الكريم.

و هنا الاستعاذة بالقلب و سائر الأحوال الباطنية و الظاهرية فيما سوى اللسان، تحلّق على جو القراءة على أية حال و هى باللسان كإذاعة لما فى الجنان تكون فى البداية و النهاية دون حال القراءة حذرا من الاختلاط فقل: أعوذ باللّه .. أولا و قل أعوذ باللّه آخرا، و كن أعوذ باللّه فى نفسك و كل كيانك أولا و آخرا و فيما بينهما. «۱»

و الشيطان حقيقة واضحة و هو عدو الإنسان إِنَّ الشَّيْطانَ لِلْإِنْسانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ «۲» فيحتاج هذا العدو إلى مقاومة فعلية ليستطيع الإنسان أن يحول بينه و بين نفسه حين القراءة و التأمل فى آيات اللّه لفظا و معنى.

فالقراءة التأملية التى تعطى لهذا القارئ أثرا روحيا تبعد الشيطان و خطره عن الإنسان بالاستعاذة منه، يقول ربنا سبحانه و تعالى: وَ إِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنا بَيْنَكَ وَ بَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجاباً مَسْتُوراً. «۳»

و الشيطان الذى يستعيذ منه الإنسان بقراءته للقرآن يتوخى بتلك الاستعاذة الشر و الخطر المحدق الذى يترصد به للإنسان هو و أولياءه فقد يجنّد الشيطان هؤلاء لحجبه عن قراءة القرآن، فيقول سبحانه و تعالى:

---

(۱) الفرقان فى تفسير القرآن (ج ۱۳- ۱۴) ص ۴۷۹

(۲) سورة يوسف آية ۵

(۳) سورة الإسراء آية ۴۵

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۳

وَ قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِکَ مِنْ هَمَزاتِ الشَّیاطِینِ، وَ أَعُوذُ بِکَ رَبِّ أَنْ یَحْضُرُونِ. «۱»

و أشدّ خطرا حینما یتجسد فی صورة القوی الفاسدة، فیدخل الخوف و الجبن فی قلب الإنسان، فیتحدی بذلک إرادته بالضرب علی نقاط ضعفه التی هی من طبیعة هذه النفس، فتکون الاستعاذة هنا هی العلاج المباشر حیث هی طلب ملح من اللّه لدفع مشکلة الخوف و الجبن من مواجهة الحقیقة.

فالاستعاذة، قد تشکل نوعا من المواجهة العقائدیة مع الشیطان لأنه تحدی الإنسان فی عقیدته، أراد أن یهدم البنیة التحتیة له، فهو یراقب مرکز الحیاة عند الإنسان و هو قلبه،

فعن النبی (ص): «إن الشیطان واضع خطمه علی قلب ابن آدم فإذا ذکر اللّه خنس» «۲»

فإذا أردنا أن نبعد الشیطان و أفکاره الباطلة، و ننتصر علیه فی هذه المواجهة، فما علینا إلا أن نلتجئ إلی اللّه سبحانه و تعالی:

وَ إِمَّا یَنْزَغَنَّکَ مِنَ الشَّیْطانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِیعٌ عَلِیمٌ. «۳» فإن الشیطان لا یقوی علی مقاومة المؤمن إِنَّهُ لَیْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَی الَّذِینَ آمَنُوا وَ عَلی رَبِّهِمْ یَتَوَکَّلُونَ «۴» لأن قدرة الشیطان لأولئک الذین فقدوا کل موازین الحیاة، و خارت عزیمتهم، و إرادتهم، و عشش الجهل فی أدمغتهم فلم یستخدموا عقولهم، و لم یفتحوا قلوبهم علی کتاب ربهم، فهؤلاء یتسلط علیهم الشیطان إِنَّما سُلْطانُهُ عَلَی الَّذِینَ یَتَوَلَّوْنَهُ وَ الَّذِینَ هُمْ بِهِ مُشْرِکُونَ. «۵»

---

(۱) سورة المؤمنون آیة (۹۷- ۹۸)

(۲) نور الثقلین (ج ۵) ص ۷۳۵

(۳) سورة حم السجدة آیة ۳۶

(۴) سورة النحل آیة ۹۹

(۵) سورة النحل آیة ۱۰۰

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۴

ثانیا: قراءة الحق:

لقوله تعالی: الَّذِینَ آتَیْناهُمُ الْکِتابَ یَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ «۱» فالقرآن حق، و هو قائم علی هذا الأساس، فقراءته لا بد و ان تقوم علی أساس الحق، یعنی ذلک أن تکون قراءة تامة أ لیس إعطاء الحق یعنی تمام الشیء، فتلاوة القرآن لا بد أن تکون تامة أی تحمل کل الأبعاد، فلیست قراءة الثواب فقط و إنما قراءة التفکیر و التدبر و العمل و الشفاء و الثواب. کذلک لا تتحقق الاستجابة من المؤمن فی قراءته للقرآن إلا إذا کانت مبنیّة علی أساس الحق، فحینها یمکن له أن یقوم بتنفیذ الأوامر القرآنیة التی یقرأها.

فعن النبی (ص) فی تفسیر الآیة السالفة الذکر قال: «یتبعونه حق اتباعه». «۲»

و نسب إلی الإمام الباقر (ع) فی تفسیرها أیضا انه قال: یتلون آیاته و یتفقهون فیه و یعملون بأحکامه و یرجون وعده و یخافون وعیده و یعتبرون بقصصه و یأتمرون بأوامره و ینتهون بنواهیه ما هو و اللّه حفظ آیاته و درس حروفه و تلاوة سوره و درس أعشاره و أخماسه، حفظوا حروفه و أضاعوا حدوده إنما هو .. قول اللّه تعالی «کتاب أنزلناه إلیک مبارک لیدبروا آیاته فالذین آتاهم الکتاب و شرفهم بذلک یحزنهم ترک الرعایة و القصور و التقصیر فی مراعاته و الذین آتاهم الشیطان الکتاب أو أخذوه من الآباء بحسب ما اعتادوه أو تلقفوه من الرجال بحسب ما تدارسوه فإنهم یعجبهم حفظ الروایة و لا یبالون بترک الرعایة». «۳»

و لذلک جعل أمیر المؤمنین (ع) التلاوة الحقة التی تحمل کل الأبعاد، من قواعد الإسلام السبع التی ذکرها

فی الحدیث لسؤال کمیل بن زیاد قال:

---

(۱) سورة البقرة آیة ۱۲۱

(۲) الدر المنثور (ج ۱) ص ۱۱۱

(۳) تفسیر بیان السعادة (ج ۱) ص ۱۴۱ نقلا عن تفسیر الفرقان (ج ۲) ص ۱۱۶ القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۵

سألت أمیر المؤمنین عن قواعد الإسلام فقال: قواعد الإسلام سبعة أولها العقل و بنی علیه الصبر.

و الثانیة صون العرض و صدق اللهجة.

و الثالثة تلاوة القرآن علی جهته.

و الرابعة الحب فی اللّه و البغض فی اللّه.

و الخامسة حق آل محمد (ص) و معرفة ولایتهم.

و السادسة حق الإخوان و المحاماة علیهم.

و السابعة مجاورة الناس بالحسنی. «۱»

فحینما تکون التلاوة قاعدة من قواعد الإسلام فهی إذا لیست تلاوة عادیة و إنما هی تلاوة لفهم قاعدة من قواعد الإسلام، بل هی رکیزة أساسیة لفهم کتاب اللّه الذی یرشد الإنسان إلی طریق النجاة. لذا یقول سبحانه و تعالی: فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ «۲» أی أن هذه القراءة تتحول إلی إتباع و استلهام البصائر القرآنیة و المناهج الربانیة.

فالحق لا- یتجسد فی هذه القراءة إلا- إذا أحکمت من کل نواحیها. و کان هم القارئ هو البحث عن الحقیقة، و المعانی السامیة، و المفاهیم القیمة حین التلاوة للقرآن للارتفاع و السمو و لإدراک البصائر و الحقائق، و لذا

کان من دعاء علی بن الحسین (ع) عند ختمه القرآن «اللهم فإذا أفدتنا المعونة علی تلاوته و سهلت جواسی ألسنتنا بحسن عبارته فاجعلنا ممن یرعاه حق رعایته و یدین لک

---

(۱) تحف العقول ص ۱۳۸

(۲) سورة القیامة آیة ۱۸ القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۶

باعتقاد التسلیم لمحکم آیاته». «۱»

و هذه القراءة تحتاج إلی توجه کامل إلی اللّه، و فراغ القلب من أیة أفکار أخری، أو وساوس شیطانیة لیتوصل بها إلی معرفة الحق، و تکون وسیلة إلی المعرفة.

ثالثا: قراءة التدبر:

لقوله تعالی: کِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَیْکَ مُبارَکٌ لِیَدَّبَّرُوا آیاتِهِ «۲» التدبر فی القرآن، و إمعان النظر فیه لا یکون إلّا بعد القراءة.

من المیزات التی تمیز المؤمن عن غیره هو التدبر فی القرآن الکریم، لأنه قد انفتح قلبه علی القرآن، و غیر المؤمن قد اقفل قلبه عن المعرفة و الإیمان و العرفان.

کما ورد فی تفسیر أیة أَ فَلا یَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلی قُلُوبٍ أَقْفالُها «۳»

عن الإمام الصادق (ع) قال: «فإقفال القلوب ثلاثة إقفال عن المعرفة و أخری عن الإیمان بعد المعرفة و ثالثة تقفل الإیمان العرفان عن التجلی فی عمل الأرکان و هو الأصل المعنی بالتدبر». «۴»

و التدبر نعنى به التفكير فى الجانب التطبيقى للقرآن، و تجسيد تلك الآيات فى الواقع العملى، أو هو استقصاء و بحث عن الآيات لتطبيقها على أنفسنا.

و ربما قد نقصد بالتدبر هو القراءة العميقة فى مقابل القراءة السطحية لإعطائنا البصيرة و الرؤية السليمة فى الحياة، و لا يكون ذلك بالقراءة السطحية.

---

(۱) الصحيفة السجادية دعاء ۴۲

(۲) سورة ص آية ۲۹

(۳) سورة محمد آية ۲۴

(۴) تفسير الفرقان (ج ۲۷) ص ۱۲۲

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۷

لان الغاية من نزوله هو التدبر فى آياته أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها. «۱»

فتدبر الإنسان بعد القراءة فى هذا الكتاب مما يقوى الرابطة مع اللّه، و يشده اكثر إلى معرفة المزيد من الحقائق و العلوم، فكلما تدبّر فى آية اكتشف انه لم يصل بعد إلى عمقها. كما

عن زين العابدين (ع): «آيات القرآن خزائن العلم فكلما فتحت خزانة فينبغى لك أن تنظر فيها». «۲»

«و التدبر أن نسير بأفكارنا إلى عاقبة الأمور أو دبرها. و حين نتدبر فى القرآن فإننا نتفكر فى تطبيقات الآيات الكريمة، و تجسّدها فى الواقع العملى». «۳»

و قد دعا القرآن المسلم إلى القراءة القرآنية، و حثه عليها مع التدبر فى آياته.

فعن أمير المؤمنين (ع) قال: «ألا لا خير فى قراءة ليس فيها تدبر». «۴»

و عنه أيضا (ع) قال: «تدبّروا آيات القرآن و اعتبروا به فإنه أبلغ العبر» «۵»

كما نهى أهل البيت (ع) عن القراءة السريعة التى ليس فيها تأنّى حيث لا تجدى نفعا، و لا توصل المؤمن إلى غاية القراءة و هى التدبر فيه،

قال النبى (ص): «لا يفقه من قرأ القرآن فى أقل من ثلاث» «۶»

و

عن محمّد بن عبد اللّه قال قلت لأبى عبد اللّه (ع): «اقرأ القرآن فى ليلة؟ قال: لا يعجبنى أن تقرأه فى أقل من شهر» «۷»

و كل ذلك لأهمية التدبر الذى لا يختص بفئة معينة فهو

---

(۱) سورة محمد آية ۲۴

(۲) بحار الأنوار (ج ۹۲) ص ۳۱۶

(۳) من هدى القرآن (ج ۱۳) ص ۲۵۸

(۴) بحار الأنوار (ج ۹۲) ص ۲۱۱

(۵) غرر الحكم

(۶) كنز العمال خطبة ۲۸۲۸

(۷) الكافى (ج ۲) ص ۶۱۷

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۸

كتاب اللّه الموجه إلى الإنسان، فآياته خطاب لكل المكلفين شريطة معرفة لغته، و إمعان النظر فى معانيه، و بالتفكير فيه، و بالانفتاح عليه. و تتكرس هذه الأهمية فى أن التدبر يجعل من المسلم يعيش جو الإيمان حينما يقف على الواقع الذى يعيشه، فتنعكس على شخصيته و سلوكه باعتباره الوسيلة إلى المعرفة، حيث أن اللّه أودع فى كتابه كل ما يحتاجه البشر من برامج و علوم و وسائل إلى يوم يبعثون.

و العمل بالقرآن وسيلة المعرفة الناتجة من التدبر فى ظواهره و الوقوف عند معانيه، و محاولة معرفة خلفياتها،

فكان الإمام الصادق (ع) له دعاء خاص قبل أن يقرأ القرآن يبين فيه هذا المعنى فيقول حين يأخذ المصحف بيمينه: «اللهم إنى نشرت عهدك و كتابك. اللهم فاجعل نظرى فيه عبادة و قراءتى تفكرا و فكرى اعتبارا. و اجعلنى ممن اتعظ بيان مواعظك فيه و اجتنب معاصيك و لا تطبع عند قراءتى كتابك على قلبى و لا على سمعى و لا تجعل على بصرى غشاوة و لا تجعل قراءتى قراءة لا تدبر فيها بل اجعلنى أتدبر آياته و أحكامه آخذا بشرائع دينك و لا تجعل نظرى فيه غفلة و لا قراءتى هذرمة إنك أنت الرءوف الرحيم». «۱»

فما علينا إلا أن نفتح هذه القلوب المقفلة حتى يتيسر لنا معرفة القرآن فيتحرك فينا العقل لنتدبر فيما نقرأ، و يتواتر التفكير لدينا بعيدا عن الهوى و الشهوات، و ضغوط الحياة، و الأفكار المنحرفة، فتكون حينها نظرتنا استنباطية تجردية تحمل معها معانى آيات اللّه فقط دون أى آراء أخرى.

رابعا: قراءة الترتيل:

لقوله تعالى: وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا. «۲»

---

(۱) بحار الأنوار (ج ۹۸) ص (۵- ۶)

(۲) سورة المزمل آية ۴

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۱۹

و هى القراءة بصورة متوازنة من أجل التأثر و الفهم و الوقوف عند الآيات لبيان معناها و التدبر فيها.

و المعنى اللغوى للترتيل فى القرآن التأنّى، و تبيين الحروف بحيث يتمكن السامع من عدّها. و

عن أمير المؤمنين (ع) «احفظ الوقوف و بيان الحروف». «۱»

و الترتيل بهذا المعنى يقرّب الفهم، و يجعل منه كتابا ميسرا نفهمه حينما نتأنى فى قراءته.

فعن الإمام الصادق: «فى قوله تعالى وَ رَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا «۲» قال: هو أن تتمكن فيه و تحسن به صوتك». «۳»

و قراءة القرآن بغير هذه الطريقة تفقد أهدافها، و لا يستفيد القارئ من تلك القراءة شىء، و لا يتوصل إلى التدريج لتسهيل قراءته على المسلمين، و تيسير فهمه، لقوله تعالى: وَ قُرْآناً فَرَقْناهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلى مُكْثٍ وَ نَزَّلْناهُ تَنْزِيلًا «۴» و معنى مكث مهل و تؤده فإنه أيسر للحفظ، و أعون فى الفهم. «۵»

فإذا أراد المؤمن أن تنعكس هذه القراءة على شخصيته و سلوكه، و تتضح آثار القراءة جليةً فعليه بترتيل القرآن بهذا المعنى، و أن يتعامل معه كما يتعامل أصحاب الإمام على (ع) المتقين حيث يصفهم فى خطبة له و يبين مدى أثر قراءة القرآن على شخصيتهم حيث يقول «أما الليل فصافّون أقدامهم، تالين لأجزاء القرآن يرتلونها ترتيلا. يحزنون به أنفسهم و يستثيرون به دواء دائهم. فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعا و تطلعت نفوسهم إليها شوقا، و ظنوا أنها نصب أعينهم. و إذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، و ظنوا أن زفير جهنم

(۱) مجمع البحرين (ج ۵) ص ۳۷۸

(۲) سورة المزمل آية ۴

(۳) الوسائل (ج ۴) ص ۸۵۶

(۴) سورة الإسراء آية ۱۰۶

(۵) تفسير كنز الدقائق (ج ۷) ص ۵۳۰ القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۲۰

و شهيقها فى أصول آذانهم جانون على أوساطهم، مفترشون لجباههم و اكفهم و ركبهم، و أطراف أقدامهم، يطلبون إلى اللّه تعالى فى فكاك رقابهم». «۱»

و لذلك أكد أئمة أهل البيت (ع) على أن القراءة الحسنة و المتأنية هى المطلوبة، حيث لها وقع فى النفس فتزداد إيمانا و تعلقا بربّها.

فعن عبد اللّه بن سليمان قال سألت أبا عبد اللّه (ع) عن قول اللّه عز و جل و رتل القرآن ترتيلا قال: قال أمير المؤمنين (ع): «بيّنه بيانا و لا تهذّه هذَّ الشعر و لا تنثره نثر الرمل و لكن افزعوا قلوبكم القاسية و لا يكن هم أحدكم آخر السورة». «۲»

و عن على بن حمزة قال: قال أبو عبد اللّه (ع): «إن القرآن لا يقرأ هذرمة (الإسراع فى القراءة) و لكن يرتل ترتيلا، فإذا مررت بآية فيها ذكر الجنة فقف عندها، و اسأل اللّه الجنة، و إذا مررت بآية فيها ذكر النار فقف عندها، و تعوذ باللّه من النار» «۳»

و روى عن أم سلمة قالت: (كان رسول اللّه (ص) يقطع قراءته آية آية). «۴»

لكى تكتمل القراءة:

اشارة

لقراءة القرآن آداب كآداب التلميذ عند أستاذه، فكما أن التلميذ حينما يقدم إلى أستاذه باعتبار التلمذة ليأخذ الدرس منه، فعلى المؤمن أن يقوم بعدة تعليمات تكون مكملة لهذه القراءة المطلوبة فعليه:

أولا: الاستعداد النفسى للقراءة:

(۱) نهج البلاغة خطبة ۱۹۳

(۲) الكافى (ج ۲) ص ۶۱۴

(۳) الكافى (ج ۲) ص ۶۱۷

(۴) كنز الدقائق (ج ۱۳) ص ۴۹۸

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۲۱

و ذلك بالوضوء قبل البدء لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ «۱» فجدير بهذا القارئ إذا أراد لمس حروف القرآن أن يتطهر حتى يحق له لمسها، كما

ورد عن أمير المؤمنين (ع): «قال لا يقرأ العبد القرآن إذا كان على غير طهور حتى يتطهر». «۲»

بل حتى إن الروايات أمرت بتطهير الفم على وجه الاستحباب لقراءة القرآن.

فعن النبى (ص) قال: «نظّفوا طريق القرآن قيل: يا رسول اللّه و ما طريق القرآن؟ قال أفواهكم. قيل بما ذا؟ قال: بالسواك». «۳»

فكل من يريد أن ينتفع بالقرآن تمام الانتفاع عليه بتحصيل الاستعداد النفسى و ذلك يتوقف على طهارته، و نظافته من الأوساخ و القاذورات، للإقبال على الحديث مع اللّه. حيث من يقرأ كأنما يتحدث مع ربّه، و من يريد أن يكون بحضرته يستعدّ للقائه. كما يستعد للقاء الأمراء و الملوك بأفخر الملابس و أجملها و أنظفها.

ثانيا: الصوت الحسن:

للصوت و طريقة القراءة تأثير على القارئ نفسه و المستمع أيضا، فكلما كان الصوت حسنا و جميلا مع ضبط المخارج للحروف كان الكلام أبلغ فى التعبير و أوضح للسامع. و لحروف اللغة العربية مميزات تختلف باختلاف المخارج، فكل حرف مختص بجرس معين و إيقاع مناسب.

قال يحيى اليمنى فى كتاب الطراز «ما من واحد من الأحرف العربية إلا و هو مختص بنوع فضيلة لكنها متفاوتة فى الصفاء و الرقة، و لهذا فانك تجد

---

(۱) سورة الواقعة آية ۷۹

(۲) الوسائل (ج ۴) ص ۸۴۷

(۳) بحار الأنوار (ج ۹۲) ص ۲۱۳

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۲۲

(العين) انصع الحروف جرسا و ألذّها سماعا، و القاف مختصة بالوضوح و المتانة و شدة الجهر، فإذا وقعا فى كلمة حسّناها لما فيها من تلك المزية. و هكذا كل حرف منها له مزية لا يشاركه فيها غيره، فسبحان من انفذ فى الأشياء دقيق حكمته، و احكم المكونات بعجيب صنعته. فمتى روعيت هذه الاعتبارات و ألقت الكلمة من هذه الأحرف السهلة كان الكلام فى نهاية العذوبة و جرى على أسلات الألسنة بالسلالة و خفة المنطق». «۱»

و من هنا نلاحظ أن العرف يتذوق الأصوات فيعجب بها، و ينسجم معها، باعتبار أن الصوت أداة اللفظ للتعبير عن الأفكار و الكلام المراد إيصاله إلى السامع. فإذا كان حسنا و جميلا و خارجا من القلب فانه يؤثر، و يدخل فى قلب المستمع عند الإنصات إليه. و لذا ورد عن أئمة أهل البيت (ع) فى قراءة القرآن بالصوت الحسن.

فعن النبى (ص): «إن حسن الصوت زينة للقرآن» «۲»

و عنه أيضا: «إن لكل شىء حلية و حلية القرآن الصوت الحسن». «۳»

و

عنه كذلك: «زيّنوا القرآن بأصواتكم». «۴»

و

عن الرضا (ع): «حسّنوا القرآن بأصواتكم فان الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا» «۵»

و

عن الصادق (ع) يقول: «كان على بن الحسين صلوات اللّه عليه أحسن الناس صوتا بالقرآن و كان السقاءون يمرّون فيقفون ببابه يسمعون قرآنه، و كان أبو جعفر أحسن الناس صوتا». «۶»

و لذا نرى أن القرآن قد نهى عن الصوت المنفر بشكل عام سواء كان فى

---

(۱) الطراز (ج ۱) ص ۱۰۶

(۲) بحار الأنوار (ج ۹۲) ص ۱۹۰

(۳) الكافى (ج ۲) ص ۶۱۵

(۴) الترغيب و الترهيب (ج ۲) ص ۳۶۳

(۵) عيون الأخبار (ج ۲) ص ۶۹

(۶) الكافى (ج ۲) ص ۶۱۶

القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۲۳

أثناء الحديث أو قراءة القرآن. فقال سبحانه و تعالى: وَ اغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْواتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ «۱» و صدور التلاوة من المؤمن للقرآن بالصوت الحسن فإنها ترهف و تشجى القلوب، و تنقاد إليها النفوس، و تصغى إليها الأسماع، و يقبل العقل عليها بالتدبر فى معانيها، باستحسان بلاغة آياتها و شدة تأثيرها فتحرك القلوب المتحجرة بهذا التعبير الصادق و الصوت الحسن.

ثالثا: الخشوع:

هو تأثر خاص يضفى على الإنسان حالة الخضوع تجاه من يخشع إليه.

فعند ما يأخذ المؤمن القرآن بيده ليقرأه فليشعر نفسه انه بحضرة اللّه الخالق العظيم، و ان ما بين يديه هو رسالة منه إلى هذا العبد الضعيف، فلينظر ما ذا يريد منه الله فى هذه الرسالة. فيقول سبحانه: أَ لَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَ ما نَزَلَ مِنَ الْحَقِ. «۲»

فالخشوع بالقلب هى صفة من صفاته، فكلما قرأ الإنسان آية من آيات كتاب اللّه زاد تأثره، و انتفع بها. فآيات الوعد و الوعيد و الإنذار و التبشير تثير فيه الأمل و الخوف، فيتحرك فيه الشوق و الخشوع.

فعن أبى أسامة قال زاملت أبا عبد اللّه (ع): «قال: فقال لى اقرأ فافتتحت سورة من القرآن فقرأتها فرّق و بكى. ثم قال: يا أبا أسامة ارعوا قلوبكم بذكر اللّه» «۳»

فقراءة القرآن بحالة من الخشوع مطلوبة لتحلّق بالإنسان إلى عالم الطهر لانفصالها عنه فى غير هذه الحالة، فيدرك المؤمن حينها مدى الهجران بينه و بين اللّه، فيجهد نفسه للتقرب منه بواسطة السير الروحى و السلوك القلبى.

فعن النبى (ص): «اقرأ بالحزن فانه

---

(۱) سورة لقمان آية ۱۹

(۲) سورة الحديد آية ۱۶

(۳) روضة الكافى ص ۱۶۷ القرآن نهج و حضارة، ص: ۳۲۴

نزل بالحزن» «۱»

و

عن جابر عن أبى جعفر (ع) قال: «قلت: إن قوما إذا ذكروا شيئا من القرآن أو حدّثوا به صعق أحدهم حتى يرى أن أحدهم لو قطعت يداه أو رجلاه لم يشعر بذلك؟ فقال سبحان اللّه ذاك من الشيطان ما بهذا نعتوا إنما هو اللين و الرّقة و الدّمعة و الوجل». «۲»

---

(۱) الوسائل (ج ۴) ص ۸۵۶

(۲) الكافى (ج ۲) ص ۶۱۶

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فى سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علىّ بْنُ موسَى الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... َ يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فى تلخيص بحار الأنوار، للعلاّمة فيض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جَهابذة هذه المدينة، الذى قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَيت النبىّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ– فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَى.

– من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتى "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة

ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنَة

المكتب الرّئيسيّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ وليّ التوفيق.

مركز القائمية اصفهان
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩